كتاب المساكين

"إلى صاحب المساكين: لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، وجوته كما للألمان جوته"

شيخ العروبة: أحمد زكي باشا

تأليف

مصطفى صادق الرافعي

قدم له

محمد سعيد العريان

عرض ودراسة

عادل عبد المنعم أبو العباس

مكتبة ابن سينا

مصطفى صادق الرافعي، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد ابن أحمد، ١٨٨١- ١٩٣٧
كتاب المساكين/ تأليف: مصطفى صادق الرافعي، تقديم: محمد سعيد العريان؛ عرض ودراسة: عادل عبد المنعم أبو العباس.
ط١- القاهرة: مكتبة ابن سينا، ٢٠١٦
٢٢٤ ص، ٢٠ سم
تدمك ٢ ١٦١ ٤٤٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١- المقالات العربية.
أ- سعيد العريان، محمد سعيد العريان، ١٩٠٥- ١٩٦٤ (مقدم)
ب- أبو العباس، عادل عبد المنعم (دارس)
ج- العنوان. ٨١٤
رقم الإيداع: ٢٠١٦/١٤١٧٤
الترقيم الدولي: 978-977-447-161-2

تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم
الإخراج الفني: وليد مهني علي

تطلب جميع مطبوعاتنا بالمملكة العربية السعودية من
مكتبة الساعي للنشر والتوزيع
ص.ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ ـ هاتف: ٤٣٥٣٧٦٨ ـ ٤٣٥١٩٦٦ ـ ٤٣٥٩٠٦٦
فاكس: ٤٣٥٥٩٤٥ جوال: ٠٥٥٠٦٧١٩٦٧
E-mail: alsaay99@hotmail.com

مطابع العبور الحديثة - القاهرة
تليفون: ٤٤٨٩٠٠١٣ فاكس: ٤٤٨٩٠٥٩٩

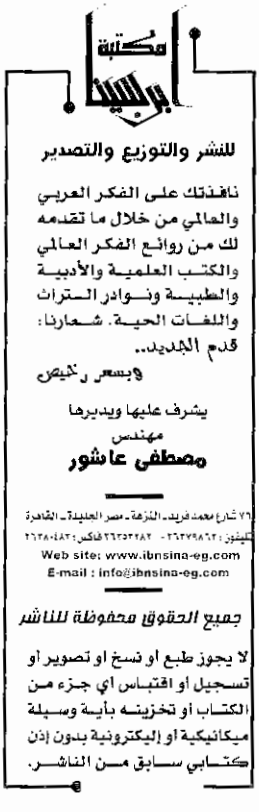

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل أو اقتباس أي جزء من الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة ميكانيكية أو إلكترونية بدون إذن كتابي سابق من الناشر.

تقديم

الحمدُ للهِ على نعمةِ الإيمانِ، والصلاةُ والسَّلامُ على مَنْ هَدانَا اللهُ بهِ إلى الإسلامِ، وعلى آلِهِ وأصْحَابِهِ أجمعينَ.

وبعد

فهذا أثَرٌ مِنْ آثَارِ أدِيبِ العربيةِ الكبيرِ "مصطفى صادق الرافعى" سَمَّاهُ "المساكين"، تمَّ تأليفُهُ فى ٣٠ ديسمبر ١٩١٥م، وأدْخَلَهُ إلى المطبعةِ دونَ أن يعرِفَ موعِدَ صُدُورِهِ، ثمَّ لاحَ لَهُ- على ما يبدو- أن يزيِّد عليه فَصْلاً فى ٢٨ مارس ١٩١٦م، ورُبما كان قدْ دفعَ بِهِ إلى المطبعَةِ ناقصًا على أن يُكملَهُ أثنَاءَ الطبع، وهذا مُمكِنُ الحدوث فى المطابع القديمة، على أنَّ الكتاب لم يَصْدُر إلا فى عام ١٩١٧م، وهو يَضُمَّ ثمانية فُصُول.

والغرضُ من تأليف كتاب "المساكين"- علَى ما يصرحُ بِهِ الرافِعىُّ نفسُه- هو الكتابَةُ عن الفقرِ لا مِنْ أجْلِ مَحْوِهِ، بل فى سَبيلِ الصَّبْرِ عليْهِ، والعزاءِ عنهُ، والكتابةُ عن "الغِنَى" مِنْ أجْلِ إصْلاَحِ مَا يَفْهَمُهُ مِنْهُ غِيْرُ أهْلِهِ، ينطلِق الأديبُ الكبيرُ مِنْ أُفُقٍ إيمانىٍّ لتفسير شىءٍ مِنْ حكمةِ اللهِ،

حاضًّا علَى عزة النفسِ، والثقةِ باللهِ، والصبر على الفضيلةِ ، وانتزاعِ الوهم التاريخى القديم الذى نشأ مِنْهُ معنى "الغنى والفقر".

وقدْ أسْنَدَ "الرافعىُ" الكلامَ فى الكتابِ إلى رَجُلٍ اسمهُ "الشيخ على" رأى فيه "الجبلَ المتمردَ البائِخَ الأشم فى هذهِ الإنسانيةِ المسكينةِ". ويؤكد "الرافعى" أن شخصيةَ "الشيخ على" شخصيةٌ حَقِيقيَّة من قريةٍ مصريةٍ تُدْعى "منيةُ جناح" مِن أعمالِ مركز دسوق، وقد توفى سنة ١٩١٩م، أى بعَد صدورِ الكتابِ فى طبعتِهِ الأولى بعامَيْنِ.

لقيَهُ "الرافعىُ" مُعدمًا وحيدًا هزيلا مشردًا، إذَا جاعَ نَزلَ أوَّل دارٍ تلقاه، فتناوَلَ مَا يُمْسِك رَمَقَهُ، وإذا نعس توسَّدَ ذراعَهُ حيثُ أدركهُ النومُ، فى الدَّارِ أو فى الطريقِ، كان يعيشُ فوقَ آمَالِ الناسِ والحياة، وعنْدهُ حَلٌّ لكلِّ مشكلاتِهِ.

ووصَفَهُ "الرافعىُ" بأنه "رَجُلٌ كأنُه قُطِعَةٌ من الأبَدِ، لا أمْسَ لَهُ يَتعقبُهُ، ولا غَدَ لَهُ يترقَّبُهُ، بل الحياةُ عنْدهُ يقظَةٌ طويلةٌ، والموتُ نَوْمٌ أطوَلُ" وقدْ أرادَ الرافعىُ" أن يجىءَ كتَابُ "المساكين" صدى لأفكار هذا الشيخ الفيلسوف ناطِقًا بلسان الرافعى الأديب.

وقد لفتَ الأستاذ "كمال يوسف الحاج رحمه الله" الأذهان- وهو على حق- أن "الرافعى" قَلَّدَ كبارَ عباقرة العالَم، الذينَ وضَعُوا أفكارَهُم على لسانِ أبطالٍ يتخيلُونَهُم أوْ يأخذونَهُم من دائرةِ الواقع "فيتخذونَهُم أبواقًا ينفخونَ بِهَا لوامِعَ أرواحِهم وَبَوارِقَ أفكارهم".

ويَستشهِدَ "كمال الحاج" على صحةِ ما ذَهَبَ إليْهِ بأفلاطُون الذى اتخذ "سقراط" بطلاً لمحاوراتِهِ.

بينما يرجح الدكتور "الجوزو" أن الرافعى قَلَّدَ "نيتشه" بالذات، حيثُ

جعلَ من "زرادشت" مِثَالَ الإنسانِ الأعْلَى، علمًا بأنَّ الرافعى مُطَّلِعٌ على كتابات الفيلسوف الألمانى.

وكتابُ "المساكين" فى مجملهِ تضم فصولُهُ ثلاثة فنون:

١-حواراتٌ فلسفية بحتة تجرى بين "الرافعى" و"الشيخ على" كما فى فصل "الفقر والفقير" الذى يتناوَلُ مواضيعَ : الطمع، والفقر، والحياة، والموت، والبخل، والنظام الاجتماعى، وفَضْل لؤم المال ووهْم التعاسة الذى يتناول المتكبرين والبخلاء والطامعين.

٢- قصصٌ أخلاقية تتضمن وعظًا واعتبارًا، ومنها قصة "مسكين ومسكينة"، وقصة "سحق اللؤلؤة" وغيرها.

٣- خواطر وتأملات فى الحياة والموت، والفرَح والحزن، والنقص والكمال، والإيمان والإلحاد... الخ

وسوف أدعُ بقية التفاصيل، لتلميذ الرافعى وصديقه، الأستاذ الأديب "محمد سعيد العريان"، الذى صَدَّرَ بعض الطبعات القديمة بكلمة تنم عن معرفة دقيقة بأدب "الرافعى" وكتاباته وهذا التصدير خلت منه الطبعات التى أخرجها بعض الناشرين وذكرنا لها مما يميز طبعتنا هذه، ويجعلها تضع أمام المطلع على أدب "الرافعى" شهادة تلميذ لأستاذه، وهذا التلميذ، ليسَ نِكرَة، بل هو أديبٌ فاِقه، كان كل من دَرَسَ الرافعى عالةً على كتاباته، رحم الله الرافعى، ورحم تلميذه وصديقه الحميم "محمد سعيد العريان"

متمنيا للقارىء التمتع بأدبٍ راقى، وبأسلوب مشوِّق يجده فى كتابات "الرافعى" ومؤلفاته. والله الهادى إلى سواء السبيل

عادل عبد المنعم أبو العباس

فاتحة[1]

محمد سعيد العريان

كان الرافعى - رحمه الله- شاعر النفس، مرهف الحس، رقيق القلب، قوى العاطفة. يرى المنظر الأليم فتنفعل به نفسه ويتحرك خاطره ويتفطر قلبه؛ وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكى له أن تلمح فى عينيه بريق الدمع يحبسه الحياء. ولقد كان الرافعى يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيرًا من المآسى الفاجعة يسأله أصحابها الرأى أو المعونة، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاما مكتوبًا، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها، فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل.

ولقد وقعت الحرب العالمية الأولى واستعرت نارها فى الميادين البعيدة، لا يبلغ إلينا منها نارٌ ولا دخان ولا يراق دم، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء، فما كان ضحاياها فى مصر بالجوع والمتربة أقل عديدًا من ضحاياها هناك فى الميدان...

كيف كان يعيش العامل المسكين فى تلك الأيام؟ رباه! إننى ما أزال أذكر يوم أرسلنى والدى- وأنا غلام بعد- أستدعى النجار لعمل عندنا، فوجدته جالسًا فى أهله يأكلون. كانوا ستة قد تحلّقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز إدامه الماء، تتسابق أيديهم إليه فى

(1) انظر كتاب "حياة الرافعى" لمحمد سعيد العريان

نهم كأنما يخشى كل واحد أن تعود يده إلى القصعة بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية...!

هكذا كان يعيش نصف الشعب فى تلك الأيام السود، مما فعل القحط والغلاء، لأن أقوات الشعب قد حُملت إلى الميدان لتخزن فى دار المؤن وقتًا ما لتقذفها من بَعدُ قنابلُ المحاربين وتذروها رمادا فى الهواء...!

ونظر الرافعى حواليه فارتد إليه البصر حسيرًا مما يرى ويسمع، فاحتبس الدمع فى عينيه ولكن قلبه ظل يتحدث بمعانيه...

ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستعرة، والبؤس تتعدد ألوانه، وتتشكل صوره، وتحتشد آثاره والرافعى دائم الحديث إلى نفسه وهو يحمل من هم الشعب فى قلبه الكبير، حتى امتلأ الإناء يوما ففاض...

فى بعض اللحظات التى تفيض فيها النفس بالألم، يحس الإنسان كأنه شىء له فى نظام الكون إرادة وتدبير، وأن من حقه أن يقول للمقدور لماذا أنت فى طريقى...؟ فتراه فى بعض نجواه يتساءل: ربِّ، لمَ كتبت علىّ هذا ...؟

لماذا حكمت بذلك...؟ لماذا قدَّرت وقضيت...؟ ما حكمتك فيما كان...؟

ألم يكن خيرًا لو كان ما لم يكن... ثم يتوب إلى نفسه ويفىء إلى الحق، فيعود معتذرًا يقول: رب؛ لقد ظهرُ حكمك؛ ودقت حكمتك، فمغفرة وعفوا...!

وتظل حكمة الله مطوية فى ظلمات الغيب، لا يتنوّرها إلا من غمره شعاع الإيمان وسطع فى قلبه نور الحكمة، أما الذين تعبَّدتهم شهواتُ أنفسهم فهم أبدا فى حيرة وضلال.

فى لحظة من تلك اللحظات، أغمض الرافعى عينيه وراح يفكر، وفى

رأسه خواطر يموج بعضها فى بعض، ثم فاءت نفسه، فرفع رأسه وهو يقول: ربِّ، ما أدق حكمتك وأعظم تدبيرك...!" وأفاض الله عليه ورفع عن عينيه الغطاء...

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضا، ويسرق بعضهم أقوات بعض، ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت، فدمعت عيناه ولكنه كان يبتسم، وعاد يقول: حكيمٌ أنت يارب! ليتهم وليتنى... ليتهم يعلمون شيئًا من حكمة الله فى شىء من أغلاط الناس!... كل شىء فى هذا الكون العظيم يجرى على قدَر منك وتدبير حكيم!".

ثم شرع يؤلف كتابه "المساكين".

أخرج الرافعى كتابه هذا فى سنة ١٩١٧، وهو الكتاب الرابع مما ألَّف فى المنثور، وثانى ما ألف فى أدب الإنشاء، ويعرِّف به الرافعى فى الصفحة الأولى منه فيقول: هو كتاب "أردتُ به بيان شىء من حكمة الله فى شىء من أغلاط الناس..."

وقدم له بمقدمة بليغة فى معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنسانى يقول فيها:

"هذا الكتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مَرْقعة جديدة... فقد والله بليت أثواب هذا الفقر، وإنها لتنسدل على أركانه مزقا متهدّلة يمشى بعضها فى بعض، وإنه ليلفقُها بخيوط من الدمع، ويمسكها برُقع من الأكباد، ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل، وأمل إلى خيبة، وخيبة إلى هم، وأقبحُ من الفقر ألا يظهر الفقر كاسيا أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية، أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين..."

وللكتاب فصول شتى، ليس له وحدة تربط بين أجزائه إلا أنه صور من آلام الإنسانية كثيرة الألوان، متعددة الظلال، تلتقى عندها أنة المريض، وزفرة العاشق، ودمعة الجائع، وصرخة اللهفان المستغيث، فهنا صورة "الشيخ علىّ" الرجل الذى يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس، لأنه يعيش فى نعمة الرضا، وإلى جانبه قصة الغنى الذى حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المال، وهذه صاحبته الصغيرة التى انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع، فوهب لها المال ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة، وهذا... من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع!

وأول أمر الرافعى فى تأليف كتاب المساكين أنه كان فى زيارة أصهاره فى "منية جناح" فلقى هناك الشيخ علىّ؛ والشيخ علىّ هذا رجل يعيش وحده، ليس له جيب يمسك درهما، ولا جسد يمسك ثوبًا، ولا دار تؤويه ولا حقل يغل عليه، يجوع فيهبط على أول دار تلقاه، يتناول ما يمسك رمقه، ويدركه النوم فيتوسد ذراعه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق. رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس، وآمال الحياة، ولقيه الرافعى واستمع إلى خبره، فعرف من فلسفته فلسفة الحياة، ووجد عنده الحل لكل ما فى نفسه من مشكلات، فكان هذا الكتاب من وحى الشيخ علىّ الفيلسوف الصامت فى الرافعى الأديب، واجتمعت له مادة الكتاب فى مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة، ويصف الرافعى الشيخ علىّ فيقول:

"... هو حليم لنفسه، غضوب لنفسه، وكذلك هو فى الخفة والوقار، والضحك والعبوس، والزهو والانقباض، وفى كل ضدين منهما لذة وألم، كأنه جزيرة قائمة فى بحر لا يحيط بها إلا الماء؛ فلا صلة بينهما فى المادة

وإن كانت هى فيه؛ فالناس كما هم وهو كما هو يرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى، يرى نفسه من دهره أقوى من أن يصيب بأذى؛ ويتحاشونه رأفة ورحمة ويتحاماهم أنفة واستغناء، ثم إن مسه الأذى من رقيع أو سقط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه، فيألم وكأن ألمه مرض طبيعى؛ ولا فرق عنده فى هذه الحال بين أن يُمغص بطنه بالداء أو يمغص ظهره بالعصا؛ وهو والدنيا خصمان فى ميدان الحياة؛ غير أن أمرهما مختلف جدا، فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمع إليها ولم يقع فيها، وقهرها هو لأنها لم تظفر به...

"... وهو رجل سدت فى وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء، فكأنه فى الأرض بطل خيالى يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة، ولكنه مع ذلك يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التى لا تغذوها مادة الأرض ولا مادة الجسم، فهى تزدرى كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف، وكل ما ردت عليك الغبطة من بسطة فى الجسم أو سعة فى المال أو فضل فى المنزلة، وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف...

"... فهو من أجهل الناس فى الدنيا وأجهل الناس بالدنيا... وأنت إذا سطعت له بالجوهرة الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصاة جميلة تتألق. وإن هوّلت عليه بألوان الخز والديباج حسبك مائقا لم تر قط نضارة البرسيم وألوان الربيع..."

هذا هو الشيخ على الذى أوحى إلى الرافعى كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه وردّه إلى إلهامه، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الصحيح.

وقد فرغ الرافعى من كتاب المساكين فى سنة ١٩١٧؛ وفرغ الشيخ

على من دنياه بعد ذلك بقليل، ولكن روحه ظلت تعمل فى نفس الرافعى وتملى عليه وتلهمه الرأى إلى آخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة؛ والواقع أن الرافعى كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضا فيما لا طاقة له به، إيمانا كان مادة حياته ونظام عمله. وإيمانه ذاك هو الذى كان يفيض عليه أمارات المرح والسرور حتى فى أعصب أوقاته وأحرج ساعاته، فكنت لا تراه إلا مبتسما أبدا ضاحكا ضحكة السخرية والاستسلام.

كتاب المساكين الذى يقول عنه المرحوم أحمد زكى باشا:

"لقد جعلتَ لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو. وجوته كما للألمان جوته".

... وهو كتاب اجتمع على إخراجه سببان: أهوال الحرب التى حطت على مصر بالجوع والقحط والغلاء، والشيخ على الجناحى.

محمد سعيد العريان

صفحة من كمال النبوة وأخلاق سيد الخلق

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول فى بعض دُعائِه:

"اللَّهُمَّ أحيِنِى مِسْكِينًا وأَمِتْنِى مِسْكِينًا وأحشُرنِى فى زُمْرَةِ المسَاكين"[1]. فقال له أنَسُ بنُ مالكٍ رضى الله عنه:

"يا رسول الله إنك لتُكْثِرُ من هذا الدعاء!" قال: يا أنس: "إن رَحْمَةَ اللهِ لا تُفارِقهم طَرفَةَ عَيْن"[2]. وخُيِّرَ عليه الصلاة والسلام أن يكون له مثلُ أُحُد[3] ذَهَبًا فقال: "لا ياربِّ، أجوعُ يومًا فأدعوك، وأشبَع يومًا فاحمدُك!"[4].

---

(1) الحديث صحيح: أخرجه الترمذى فى الجامع الصحيح وقال: حسن صحيح وصححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير.

(2) ذلك بأنهم مادة الأخلاق والعواطف، فهم فى الإنسانية كالجيش يقذف به فى المهالك لأنه وحده مادة النصر، وعلى هذا فمن رحمة الله بالناس أنهم فى الناس.

(3) جبل بالمدينة.

(4) الحديث صحيح. متفق عليه البخارى ومسلم.

صفحة من الحكمة

قال الفيلسوف ديوجينيس الكلبى- وهو ذاك الذى رآه الإسكندر الأكبر فقال فيه "لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديوجينيس"-:

"ينبغى أن نقدّر ثروة الإنسان لا بأمواله ومستغلاته، بل بعدد الأشياء التى يستطيع أن يعيش غير محتاج إليها[1]".

(1) يريد الفيلسوف أن ما نملكه فى الحقيقة هو ما نملك أن نستغنى عنه، لأن ما نحتاج إليه يصرفنا فى وجوهه وأسبابه فهو يملكنا مصلحًا إن قل ومفسدًا إن كثر، وعلى أيهما فهو شاغل عن الإنصراف إلى سواه بالإنصراف إليه. وحكمة الفيلسوف تنظر إلى المأثور: "القناعة كنز"

ومن بديع قول هذا الحكيم: يكون الأسد حبيسا فى قفصه، ولكن الحبس لن يجعله عبدا لمن يطعمه

صفحة من الغيب

لما أجمعتُ النيةَ على طبع هذا الكتاب طبعتَه الأولى، رأيت فيما يرى النائم أنى فى دار الطبع التى اخترتها له وقد سألنى جامع الحروف أن أكتب المقدمة ليبدأ منها، فكتبتها ثَمةَ ودفعتها إليه، ثم استيقظت وما برحتْ تدور على لسانى، وتالله إن خَرَمْت[1] منها حرفا، وهذه هى بنصها وكأنها فاتحة الكتاب من قلم الغيب:

"هذا كتاب المساكين، فمن لم يكن مسكينا، لا يقرؤه لأنه لا يفهمه[2]، ومن كان مسكينا فحسبى به قارئا والسلام".

الراضى

(١) أى ما نقصت.

(٢) قل أن يوجد فى أهل الفهم رجل واحد لا تفهمه طبيعة الحياة الدنيا أنه مسكين"

مقدمة الطبعة الأولى

هذا كتاب حاولت أن أكسوَ الفقرَ من صفحاته مَرقَّعَة جديدة... فقد واللّه بليتْ أثواب هذا الفقر وإنها لتنسدِل على أركانه مِزَقا متهدِّلة[1] يمشى بعضُها فى بعضَ، وإنه ليلفقُها[2] بخيوط من الدمع، ويمسكها بُرقَع من الأكباد، ويَشدُّ بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل، وأمل إلى خيبة، وخيبة إلى هم، وأقبحُ من الفقر أن لا يظهر الفقر كاسيا أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى[3] الأوَّلين.

وأنت فربما رأيتَ الرجل من الناس وبه من جمال الدنيا مَسحةُ الدينار، وعليه من نضرة هذه الحياة ألوان الجنة والنار...[4] وما تشك فى أنه واسع البِسطة، عريضُ النعمة، طيِّبُ المكِسبة، وهو على ذلك رقعه خَلق[5] فى أذيال الفقر يجرِّرها على أقذار الحياة وأدناسها، ولو نطق له الغنى لقال: دعنى، فما كل ذى مَتربة فقير، ولا كل ذى مَثراة غنىّ[6]، والفضائل قائمة فى الدنيا بالصغار والفقراء، ولكن من نكد الدنيا أن عنوانها هم الكبراء وحدهم؛ على أن أكثر هؤلاء لا تكون منهم فى كل

---

(١) أى قطعا مسترخية.

(٢) لفق الثوب: ضم شقة منه إلى شقة.

(٣) أى الافكار الساقطة، مما هو مبعث الجريمة والرذيلة.

(٤) كناية عن الأعمال التى تؤدي إليهما معا.

(٥) بالية، والكلمة للمؤنث والمذكر.

(٦) المثراة: ما يكون سببًا لتكثير المال.

أمة إلا الطبقةُ المنحطة انحطاطًا.. عاليًا.. فالناس مخطئون فيما اعتبروا به معنى الفقر إذ حاصروه من جهاته الأرضيَّة وقد ترامت، وضيَّقوا من حدوده السماوية وقد تراحبتْ[1]، وإنما هو طبقة معنوية فوق الأرض؛ وإنما هو أسلوب خاص فى نظام الكون، ولا سبيل إلى التنقيح والتحرير فى أساليب الله نصرفها عن معانيها أو نتكذب فى تأويلها، أذ نرَّد عليها ماليس منها، وإنما الشأن كلُّه أن نحسن الفهمَ عن أوضاع القدرة الإلهية بمقدار ما نستبينُ فيها من الحكمة، فإن فى ذلك صلاحَ أنفسنا، وما جعل الله فى سبيلَ المصلحة والمَفْسدَةِ إلا من أفهامنا، حتى إن الأدمغة لتُعدُّ من أكبر العلل فى أمراض التاريخ الإنسانى، وربما كانت العلةُ الكبرى فى طائفة من الطوائف صورة أثرية لأكبر رأس فيها.

فإن نحن أسأنا الفهم أو ذهبنا به المذاهبَ أو أفسدنا من تأويل حكمة الله أو غيَّرنا أو بدَّلنا. فذلك واقع بنا لا يعدونا، وما يستولى على الكون من جهلنا اضطراب ولا تلحقُ به آفة فى وضع من أوضاعه، وإن الله لا يظلم الناسَ شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وما دام فى هذه الدنيا شىء من المادة أو المعانى يُحتاجُ إليه أو يتوهم أحد أنه محتاج إليه، ففى الدنيا الفقر.

وما دام للناس رغبة يتنافسون فيها أو يرفعون من شأنها بالمنافسة، فثمَّ الحسد.

وما دام فى الغيب أيام وآمال وفى الدنيا فقر وحسد، فهناك الطمع.

وما دام لهؤلاء الناسِ من أشيائهم ما تحملهم أخلاقُهم على الضنِّ به، أو يكون سبيلُه من الطبيعة أن يُضَنَّ به، وفيهم الفقر والحسد والطمع،

---

(١) ترامت وتراحبت: بمعنى اتسعت.

فثَمَّ خبءُ السوء والرذيلةُ الماحقة وثَم البخل؛ وإن البخل وحده لفى حاجة إلى نبى يُصلحه!

هذه أخلاق أعرقتْ فيها الإنسانيةُ ولابد منها ومن فروعها حتى يَظلَّ الناسُ ناسًا لا ملائكة ولا شياطينَ، فإن من عجيب حكمة الله أنه لا صلاحَ للعالم إلا بالفساد الذى فيه.

بَيْد أن فى كل شر جهة من الخير أو جهة تتصل بالخير، فإذا صلُح فهُمه صلح هو أيضًا أو كأنه صلح لظهور حكمته والوقوفِ به عند حد الشر الطبيعى، وهو الشر الذى لابد منه.

فليكن الفقرُ والحسدُ والطمعُ والبخل، ولكن برِضًا يَمنعُ السخَط، وسكونٍ يكسر شِرَّة النفس، ورفق لا يَعنَف على الحق، واعتدال يُقِرُّ كل شىء على حدِّه[1]، يومئذ يجد الإنسان فى كل نزوَةٍ من نزوات جنونه شيئًا من الحكمة، أو على الأقل شيئًا يمكن من بعض الوجوه أن يسمى فى باب المنفعة الإنسانية: حكمة.

ولقد كان الفقرُ عُريانًا يوم كان أدُم فى الأرض وليس عليه إلا ما خَصف من ورق الجنة[2]، وعاش دهرًا تحت السماء يلبس من ضياء كل كوكب ويمرُح فى ثياب بيضاءَ من أشعة القمرين؛ إذا لم يكن يعرفه أحد بعدُ ولا استطار به سَماعُ السوء[3] فى الأحياء، بل كان عُنصرا مجهولا فى غيث الطبيعة، ولم يكن لهذا الإنسان يومئذ من المعانى الفقرية... غيرُ شعور طبيعى لا زَيع فى تأويله عن الطبيعة، وهو شعور المعدةِ القوية

---

(١) عندنا أن الفضائل شهوات محدودة، والرذائل شهوات مطلقة، وأن السعادة الممكنة أن نجعل كل شىء فى حده.

(٢) خصف الورق على بدنه: ألزقها وأطبقها عليه ورقة ورقة.

(٣) أى الذكر بالسوء.

المعصوبة التى لا تحتمل الشعرَ والخيالَ وفنونَ الكذب العقلى، ولا تشعر إلا لتطلبَ، ولا تطلبُ إلا ما تجد، ومتى وجدت وانظفأ نَهَمُها[1] فليس إلا قوةُ الجسم وانبساطُ النفس وحمدُ الله فى كل ضَربٍ من ضروب الجمال فى الخليقة.

ثم كانت عداوةُ ابنىْ آدمَ إذ قرّبا قُربانا فتُقُبّلَ من أحدهما ولم يُتقبّلْ من الآخر، وفتحت الصفحةُ الأولى من تاريخ الدم الإنسانى فى الأرض، فكان البغضُ أول سطورها، وجاء من بعده الفقر، وخُطّت بعد ذلك سطورٌ وسطور كلها يلتقى إلى هذين المعنيين، يومئذ عُرِفَ هذا الفقرُ وأصبح يَتلبس فى كل إنسان بمعنى يُلائمه، إذا لم تعد الحياةُ هى الحياة بل الوسائل التى يُدفع بها الموت، ومنها الموْت نفسُه، فصار البغضُ وسيلة، والحسد وسيلة والطمع وسيلة، والقتل وسيلة، وكل ذلك لأن الإنسان فقير بمعنى من معانى الفقر، وما البغضُ إلا فقر من المحبة، ولا الحسدُ إلا فقر من الثقة، ولا الطمعُ إلا فقر من العقل.

وإن أردت العجب فاعجب لهذه الطباع الإنسانية إذ يحاول كل امرىء أن لا يفهم من معنى الفقر إلا ما يمكن أن يُجرِيَهُ على الناس كافَّة، حتى لا يكون هو وحده المبتَلى فى نفسه الممتَحن فى سعادته، وحتى يجد مادةَ العَزاء من حيثُ التمسها، فالفقر على ذلك هو العَوَزُ إلى المال، وهذه بلية عليها يحيا الناسُ وعليها يموتون، ولقد كان الفقر قبل أن يكون المالُ، ثم وجُد المالُ فما مَنعَ أن يُلّقى أهلُهُ الأغنياء من هموم الدنيا وبأساءِ الحياة ما لو استطاعوا لافتدوا من عذابه بكل ما فى أيديهم ولو أن لهم طلاعَ

---

(١) النهم: إفراط الشهوة فى الطعام

الأرض[1] ذهبا، ووجُد المال فما مَنَعَ الفقراءَ أن يُخوّلهم الله من رحمته التى لا تفارقهم طرفة عين ما لا يحبون أن لهم به من الدنيا ولا الدنيا كلها[2].

دخل بعضُ الفقراء[3] على الرشيد العباسىّ وتاجُهُ يومئذ سبيكة العصر الذهبىّ فى تاريخ الإسلام، والإسلامُ يومئذ ترتجفُ به دِفَّتا الشرق والغرب وكأن الشمسَ والقمر يتلألآن على أرجاء ملكه ذهبا وفضة[4]، وكان فى يد الرشيد كأسُ ماء وقد رفعها إلى فمه، فلما أبصر ذلك المَلك الذى لا يملكه شىء أمسك ثم قال له: عِظنى! قال، أرأيتَ يا أمير المؤمنين لو مُنعت عنك هذه الشربة التى فى يدك، أفكنت تطلبها بكل ملكك؟ قال: نعم! قال: أفرأيتَ لو شربتَها ثم امتنع خروجُها منك، أكنت تفتدى من عاقبة ذلك بكل ملكك؟ قال: نعم! قال الرجل الصالح: فانظر يا أمير المؤمنين، ما قيمةُ ملك لا يساوى عند قدَر الله شَربة ولا... ولابَولة...!

كذلك يحاول الناسُ أن لا يُخطئوا الرأى فيما يَستحبُّونه أو يطمئنون به وكأنهم لذلك يحاولون أن لا يصيبوا الحقَّ فيما يكرهون أو ينفرون منه، فكلهم سواءٌ فى ابتغاء السعادة المتوهَّمةِ التى لا يستحيل أن تتفق، ولكنها مع ذلك لا تتفق، إذ يريدها كلٌّ امرىء على غير ما يناسبُ تكوينَه الإنسانى... وهم بعدُ على سواءٍ من خشية الفقر، كأن فقرهم بين أعينهم،

---

(١) أى ملء الأرض.

(٢) كانت معدة "مورغان" الأمريكى صاحب الملايين الكثيرة ضعيفة فجعل مائة ألف جنيه لمن يشفيها ورأى الأطباء أن ينتزعوها ويبدلوه منها معدة كلب، فخشى الهلاك وأبى. فمعدة الرجل الفقير هى فى جوفه أثمن من مائة مليون جنيه فى يد ذلك المسكين، وهى الكنز لا هذا المال الذى لا يشترى معدة

(٣) هم الصوفية، ولقب الفقير أشرف ألقابهم لأنهم أهل الحقيقة.

(٤) رأى الرشيد يوما سحابة تمر فى السماء فقال: أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك!

فلا تبرح أوهامُهم تَنتجِى[1] بمعانيه وهمومه، ثم لا تبرح تَنمى بها حتى صار الفقر فى أنفسهم غيرَ الفقر فى نفسه، وقد علم الله أنه مامن إنسان إلا وفى تكوينه معانى كثيرة منه، على أن السعادة الممكنة أو التى يمكن أن تسمى سعادة، إنما يكون زِمامها الحسّ، إذ هو الوسيلةُ لإدراك الجمال وتعرُّفِ المواضع المعنوية فى المادّة والاهتداء فى صُنع الله إلى أسرار الحكمة، وليس من لذه يصبها الإنسانُ فيسميها لذة إلا وهى شىء معنوى يجىء من طريق الحسّ فيشعر هذا الإنسانُ أن فيه معنى لم يكن فيه وكأن اتصال شىء من سرِّ النفس أو قدرِتها بشىء من سر الطبيعة أو قدرتها هو السعادة.

غير أن العجيبَ الذى ما يُقضَى منه عجبا أن ذلك الحسَّ كلما نَضِج واستمر[2] كان أشدَّ إدراكا للآلام منه للذات، حتى إن الرجل الرقيقَ ليتألم للناس أكثر مما يتألم لنفسه؛ فهل ذلك إلا أن حكمة الله قد أقرَّت فى تركيب الإنسان من عناصر الفقر أكثر مما وضعت فيه من عناصر الغنى؟

وما أشبهَ نفوسَ الناسِ فى هذه الحياة بالزجاجُ سُلطَ عليه نورُ الشمس؛ فما كان من طبعه رديئا غير مصقول، أو مهمَلا قد شاع فيه الصدأ، فذلك متى أَلَحَّت عليه وقدةُ الجوِّ حُمىَ وتضرم فى ذات نفسه؛ وما كان من طبعه صافىَ الماء بادىَ الرونقِ نقىَّ الصفحة، رأيته فى توقُّدِه واضطرامِه كأنما يَمُجُّ من شعاع الشمس لهبا يتطاير؛ فإن كانت الزجاجةُ قد أخِلَصت فى سَبكها وصُنعت على الوجه الذى يجمع الضوءَ ويعكس منه وأحكمت من هذه الناحية، فهناك تبلغ من دِقة الحس مبلغ

---

(١) أى تتناجى، ويقال: فلان فقره بين عينيه: إذا كان دائما يخشاه فلا يقنع ولا يهنأ، وهو آلام الفقر، وكثيرًا ما يكون فى آلام الأغنياء.

(٢) استمر الامر أى اتقاد، والمعنى الحس الكامل المطاوع.

الأنفس الرقيقة المهذبة، فلا تكادُ ترسل عليها الشمسُ من نورها حتى يرجع فيها نار تلظَّى.

ومتى اعتبرنا الشقاء الإنسانى وما يعترض الإنسانَ فى طريق الحياة، رأينا الحق الذى لا مِرْيةَ فيه أن هذا الإنسانَ حين تمشى راحِلتُه إلى القبر[1] لا يكون قد انتهى من الحياة كما يقال. ولكنه ينتهى حينئذ من الموت.

فهذا التركيبُ الإنسانى المعجزُ بقليله وكثيره وجملتِه على السوَّية، والذى استشرفَ منه العقلُ لأسرار هذا العالم كما تُوَجَّه مرآةُ المُرصِد إلى السماء لم يشهده عصر من عصور الدنيا قُطّ إلا ذاهبًا إلى الفناء بما كسب وما اكتسب، حتى ليمكن أن يقال إن حياةَ الحى مصيبة تكبُر كُلما كَبِرَ... فكيف لعَمرى يحتمل هذا التركيبُ الهالكُ أن يَسعد إلا بمقدار ما يُدنى إلى الفهم معنى السعادة الأبدية التى ليست من هذا العالم، كما تريد أن تُفهِم الطفلَ شيئًا فى نفسك فيراه معنى مُتمردًا عاتيا، فلا تزال أنت تُصغِّرُ منه وتمسخه وتُحِيلُه عن وضعه وتقلِّبه على وجوه مختلفة، إلى أن توافق صورة من هذه الصور فهمَه الصغير الضعيفَ المتحاملَ على نفسه، فيدركَ الوجهَ الذى أردتَ على الوجه الذى يُريد هو، ويعلمَ ما ترمى إليه على الطريقة التى لا تعلمها أنت[2].

ولعل هذا هو السبب فى أن الفطرة الإنسانية لا تزال من أول الدهر

---

(١) كناية عن الجنازة، ويقال من المجاز: مضيت رواحله: إذا شاب وضعف، ولكنا استعملناها كما ترى فأصابت حقها

(٢) أى تركب وتتخذ كل معنى راحلة وظهرا، والكلام استعارة.

ضالة فى طلب السعادة، تسترحل[1] إليها كل معنى ثم لا تصل إليها بمعنى، فإن السعادة الدنيوية فى التركيب الإنسانى إنما هى بمقدار لغوىّ أو ما يشبه المقدار اللغوىّ لا غير.

وإذا نحن اعتبرنا هذا الوجودَ الفانىَ بما وراءه من عالَم الغيب، رأينا كل صِنف من الموجودات كأنه لغة متميزة بخصائصها أوجدها الله فى هذه الحياة لتدل عليه سبحانه بنوع من الدلالة أو ضرب من المجاز، فأينما مَدَّ الإنسانُ عينيه رأى لفظًا كالإشارة أو إشارة كاللفظ.

ولكن قُتل الانسانُ ما أكفره! فإن ما لا يريد أن يفهمه ليذكرَه ويتذكرَ به أكثرُ مما فهمه لينساه، ولقد رأى أن ما فوق الأرض وما تحت السماء لا يَدلُّه بإشارة واحدة على أنه خالد فى هذه الحياة الدنيا.

بيد أن الإنسانَ كما يكذبُ فى الكلام يكذبُ فى الفهم؛ فهو أبدا يحتاج- لِشقوَتِهِ- من هذه الطبيعة إلى أشياءَ تُضِلُّ عواطفَه، كما يحتاج إلى أشياء تهديها، ومن ههنا اقتحمت أهواؤه ونَزَغاتُه على الطبيعة وعلى الشرائع والأديان، والتبست رأيه معانى الأشياء التى تتصل بنفسه، فظهر من الغنى ما يشبه الفقر، ومن الفقر ما يشبه الغنى، وصارت الحياةُ كلُّها جهادا وشقاءٍ ونَصَبا، لأن المشكلَ فيها أكثرُ من الواضح، ولأن الطريقة التى يتبعها الإنسان الراقى... فى حل هذه المشكلات التى تعترض مطامعَه، وأغراضَه، هى أن يحلَّ مسئلة بوضع مسئلة مثلها.. ذلك لأنه لا يهتدى إلى الكمال فى شىء، وهو ناقص ولا يُذعِنُ أنه ناقص، وإلا فما باله يرى الحكمة الأزليةَ قد جعلت قِوامَ صحته على القليل من الطعام دون الكثير،

---

(١) سيأتى فى الكتاب رأى «الشيخ على» فى السعادة. وفى كتابنا «حديث القمر» ورسائل الأحزان، والسحاب الأحمر» من ذلك أشياء كثيرة.

وعلى الخفيف دون الثقيل، وعلى الرخيص دون الغالى، وعلى الطعام كما يُفيد دون الطعام كما يريد، ثم هو يأبى إلا أن يَعد هذه الصفاتِ وأشباهَها فى باب القِلَّة من الفقر، ويعتبر نقائضَها وما جرى مجراها فى باب الكثرة من الغنى، ثم يضرُب الله على بصره ويطبعُ على قلبه فلا يرى لحاجته فى الغنى من بلاغ وسبب إلا أن يكونَ المبالغة فى الادِّخار، والاغراقَ فى الجمع، والطِماحَ كلَّ مَطمح، وأن يستأكلَ الناسَ فيكون عليهم اكلب[1] من الجوع، ويَستصفيَهم فيكون فيهم أسرعَ من المرض ويستزِلَّهم فيكونَ معهم أشبهَ بالرذيلة، ونحن نعرف الكدَّ والحرصَ والبخلَ والشرةَ والضَّراوةَ وكلَّ الرذائل الاجتماعية ونَصفُها ونحدُّها بآثارها وحقائقها، وكأننا لا نعرف أن كل رذيلة هى إنسانٌ من الناس وقد رأينا الحكومات تجمع الأنواع من الجماد والنباتِ والحيوان تؤلف منها الكتب الحيةَ على نسق الطبيعة نفسها، وهى تلك التى يسمونها "المعارضَ" و "المتاحفَ" ولم نر حكومة واحدة أقامت معرضا حيوانيًّا لأشخاص الرذائل يُدرَسُ فيه علمُ مقابلة الطباع فى الإنسان وبين الغرائز فى الحيوان، وعلمُ الانحطاط الاجتماعى وفنَّ الطبقات السفلى من الحياة، وتُؤخذ منه أمثلةُ الاعتبار والموعظةِ والنصيحةِ فى أبواب مختلفة؛ ولو قد فعلت ذلك أمةٌ من الأمم لرأى الناسُ فيما يرون هناك من كبار اللصوص وأهلى الإثم والشر والفساد عددًا كبيرًا من كبار... من كبار الأغنياء...؛ ثم لرأوا كيف يتصل تاريخُ الطمع بتاريخ البخل، وكيف يتصلُ هذا بتاريخ الغنى، ولظهر لهم بُطلانُ معانى كثيرةٍ مما يعده الناسُ فى باب الحقائق؛ إذ لا تجد الرذيلةُ هناك من يكابر فيها أو يغرُبها أو يناضِلُ عنها، ولا صاحبها نفسَه.

---

(1) كلب الجوع: سعاره وشدته. واستأكل الناس: إذا أكل من أموالهم.

لأنه فى قفص من أقفاص المعرض... وكأنه ثمَّةَ معنى من الباطل محبوسٌ فى شكل من البرهان على فساده!

وليت شعرى- وذلك معنى الغنى- هل يَظن من اجتمعت له نفقةُ ألف سنة أنه سينال فيما بقى من عمره القصير لذةً كلذة عيشه ألفَ سنة، وأنه إذا ادخر ما يقوم بمائة ألف إنسان فقد صار هو فى الأرض مائة ألف بطن..؟ إن حياة الغنىّ على هذا الوجه لا تكون إلا موتا على طريقة الحياة... فليس الإسراف فى جمع المال والكَلَبُ عليه إلا طريقة دنيئة لإنفاق العمر، وليس حبُّ المال والبخلُ به إلا وجها من بغضِ الناس وازدرائهم" وإنما البخلُ فى رأى أهله وسيلةُ الغنى وسَننُه القريب، وهو مهما احتجوا له وتمحَّلوا فيه وناضلوا عليه ليس أكثر من كونه شعورا ذا جهتين: فأما من جهة البخيل فهو الحبُّ للنفس لا غير، وأما جهة النفس فهو البغض للناس لا أكثر ولا أقل!

ولأ يسرُّ على الناس أن يرتووا من رَشْحِ الحجرِ ويغتذوا بلبن الطير[1] من أن يجدوا فى الرجل البخيل بغضا لشىء من المال يرّضخُ به محبة لهم وشفقة عليهم وحنانا من لدنهُ. قديما كان البخيل أبغضَ الناس لهم وأبغضهم إليهم وأبغضّهم فيهم، وما أقبح هذا البخل- أخزاه اللّهُ- أن يكونَ بغضا ثلاثَ مرات.

ولو أن رجلاً من هؤلاء الذين بسطَ الله لهم فقبضوا، وجاد عليهم فبخلوا، وأعطائهم فأمسكوا- قد أراد الله به خيرا فوقاهُ شحَّ نفسه، ويسرّ له فى أخلاقه ومكَّن له فى باب البذل والجود، وآتاهُ من حب الخير بعضَ ما ابتلاه من حب المال؛ لرأيتَ حياته توسعة على قوم فى معاشهم،

---

(1) كناية عن المستحيل.

وإحياءً لقوم فى آمالهم، وعَتادا لقوم فى أعمالهم، ومنفعة لآخرين من وجوه كثيرة؛ ولرأيت فى غناه بَركةَ العدل ورحمة الأمنِ وعِصمة الخلود، فكأنه استجمع فى حياته الطيبةِ خيرات الأعمار الكثيرة، وكأنه أمَّةٌ فى نفسه، ثم لا يكون رجل أحب إلى الناس ولا أجدرَ بطبيعةَ الحب الإنسانى منه، ثم لا تجد اسمهُ إلا فى واحدة من ثلاث: إما صفحة تكتبها الأعمال للتاريخ، أو صفحة يُفردُها الناسُ للأخلاق، أو صفحة ترفعها الملائكة إلى الله.

بل أحرِ بهذا الاسم الكريم أن يكون يومئذ بأعماله وآثاره وحسناته اسما لكتاب ضخم فى أيدى ملائكة الرحمة.

فهذه آثارُ كرم النفس الطيبةِ لا تنشأ إلا بين نوعين من الحب: حبِّ الرجل الكريم للناس وحبِّ الناسِ لهذا الرجل الكريم؛ لا هو يَمطلهم حقًّا عليه، ولا هم يظلمونه حقًّا له؛ ولعمرى كيف يستطيع المَطْلَ أو يستطيعون والدَّينُ الذى وجب على الفريقين هو دَينُ القلب؟

وقد تكلمت السماءُ فى أزمان مختلفة وهَبطَ الخطابُ من عرش الله على لسان الأنبياء صلوات الله عليهم، وما نبىّ مُرسَل إلا وأنت واجد فى كلامه وشريعته:أن تحبَّ للناس ما تحب لنفسك.

فهذا الحب الإنسانى مَحضٌ من نصيحة السماء، ولا بدعَ أن يكون فيه بعض الدواء لآلام الإنسانية الضعيفة إن لم يكن هو الدواءَ كلَّه.

انظر بعيشك ما عسى أن تكونَ آلامُ الفقر إلا صُوَرًا من اضطراب النفوس إذ ينصرف بعضُها عن بعض، وذلك أيسرُ البغض؛ أو ينازعُ بعضها بعضا، وذلك سبب البغض؛ أو يَكيدُ بعضُها لبعض، وذلك عين البغض؟

من أجل هذا كان البخيل مادة من مواد الفقر وإن كان هو ذات نفسه معنى من معانى الغنى.

ولقد يصاب الناس بألوان من العذاب، ويمتَحنون بضروب من المكروه وترسَلُ عليهم الآفاتُ تختلجهم من ههنا وههنا؛ غير أنهم يجدون لكل مصيبة محلاً من الصبر يُمسكونها فيه، فتجىءُ وحدها وتذهبُ وحدها "وإنما هى الغمراتُ ثم يَنجلين؛ فإنَّ من رحمة الله أن لا يزالَ الليل والنهارُ يَتراكضان بيننا وبين النسيان كما يتراكضُ البريدُ، فيذهبان بشكوى المصيبة ويرجعان من النسيان بالسلوى أو العزاء أو نحو ذلك؛ ولكن الطائفة من الناس إذا ابتُليت بالغنىّ البخيلِ ابتليت منه بالمصيبة التى تأكلُ المصائب، إذ يرون فيه أشياء من معانى القَحط والجدْب والوباء والفقرِ والعداوةِ والبغضاء، وطَرَفا من كل جائحة، ومعنى من كل آفة، بحيث تضيقُ به جوانب الصبر على سَعتها وانفساحها وتَنزَوى دونه فتختلط كلُّ مصيبة بكل مصيبة؛ وليس يأتى على هذا الإنسان شىء[1] كتداخُلِ مصائبه بعضها فى بعض، فإن ذلك يَمحَقُ الصبرَ، ويذهب بالسكينة، ويفسد الرأىَ. ويَفتُق على العزم من كل ناحية فتقا، ويترك المرءَ كأنه مجنون بشىء أكبرَ من الجنون.

فالغنىُّ البخيلُ من ذلك كله، بل هو ذلك كلُّه..

(١) أى ليس يهلكه، من قولهم: أتى عليه الدهر: إذا أهلكه.

غرض الكتاب

«وأما بعدُ، فإنى قد وضعتُ هذه الأوراقَ وكتبتُ فيها عن الفقر وما هو من باب الفقر، لا لمحوِه ولكن للصبر عليه، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه؛ ثم كتبتُ عن الغنى وما إليه، لا رغبة فى إفساده على أهله، ولكن لإصلاح ما يَفهم منه غير أهله؛ وأدَرْتُ الكلامَ فى كل ذلك على الوجه الذى يراه الشاعرُ فى ضَحكِ الطبيعة ورقَّتها، دون الوجه الذى يعرفه الفيلسوفُ فى عُبوس المادة وجفائها؛ ونحوتُ به من نَسقِ العقل فى بث خواطره للنفس، لأنى أريد به النفسَ فى مستقرها؛ وجئتُ به من مَبرَق الصبح لا من غياهِب الليل، وأطلعته من أفُق الإيمان لا من قرارة الشك، وأردت به تفسيرَ شىء من حكمة الله فى شىء من أغلاط الناس؛ فإن من ضرائب اللوم وغرائز السوء فى هذا الإنسان أنه ما ينفك يحمل نعم الله ورحمته وما لا حدّ له من العناية الإلهية ولكن كما يحمل نعم الله ورحمته وما لاحد له من العناية الإلهية ولكن كما يحمل الطاووس ألوانه وتحاسينَه وزينته البديعة على ساقين مجرودتين فى الغاية من القبح كأنهما من غراب...

ولست أدَّعى أن كتابى هذا يُسمِنُ من شِبَع أو يغنى من جوع؛ فإن هذه العلومَ كلها ومجموعة العقول البشرية وتاريخ ما شاء الله من عمرانُ الأرض، لا ينتهيأ للإنسان أن يَعجنها ولو أفرغت عليها السماءُ كلَّ ما فى سحائبها. ولا يأتى له أن يخبز منها رغيفًا واحدا ولو حملته الملائكة ليضعَه بيده فى عين الشمس، ولا يخرج منها غذاءُ المعدة إلا إذا خرج

الحبرُ الأسود من عَرَق الزنْج... ولكنى أرمى بالكتاب إلى عزة النفس، وإلى الثقة بالله، وإلى الصبر على الفضيلة، فإن الناس من الشر بحيث لا يُعانُ على الفضائل إلا من صبر لها صبر المبتلى، ثم إلى مغالبة الوهم التاريخى القديم الذى نشأ منه معنى الغنى كما نشأ منه معنى الفقر، وأنتَ لو انتزعت الأنبياءَ والحكماءَ وأهل العزائم من مجموع هذا الخلق لرأيت التاريخ الإنسانى كلَّه فى ذينك المعنيين بابًا واحدًا من الخطأ.

فلقد والله بالغ الناسُ فى اعتبار هذين الحجرين[1] وأسرفوا على أنفسهم فى محبتهما والكدِّ فى طلبهما بأخلاق وشيمَ ليس لأكثرها موضع فى الإنسان ولا يتسع لها عمرهُ القصير، وإنْ هى إلا من كَلَبِ الحيوانية فيه، بل هى تطور فاسد فى أخلاقه التاريخية، فقد كانت الجماعة الأولى تنازع الحيوان وتتعاون عليه، وكانت الحيوانية قبيلا والإنسان قبيلا آخر، وعبَرت الإنسانية على ذلك دهرًا ثم انفرعت وانشقت وترامت على أقطار الدنيا فصار لكل أرض إنسانُها وبقى الحيوان كله قبيلًا واحدًا، ومن ثم ظهر أثر الإنسان على الإنسان، وأخذت تلك الحيوانات العاقلة تملى تاريخ الأرض فى الأرض غير مهذَّب ولا منقح، بل أصواتاً تتعاوى[2]... ويومئذ كان عمل الفرد الواحد للقبيلة كلها، لأنه فى الاجتماع بقبيلته، لا بنفسه، وكان الفرد فى عهد الجماعة إنما يقاتل على الرزق، فأصبح فى عهد القبيلة يقاتل على الطَّماح إليه والاستكثار منه ولم يكن فى تاريخه ما يَقذَع هذا الطماح

---

(١) أى الذهب والفضة، وقد سميا كذلك فى الحديث الشريف

(٢) من ههنا تعرف أن كل تطور فى المدنيات هو فاسد إن لم يكن فى أصوله المعانى المؤمنة مما أومأنا إليه فى مقدمة (هذه) الطبعة الثانية

أو يكفه أو يرد فيه ردًا، فاسترسل إليه، وينشأ من ذلك فى نفسه معنى الجمع والأدِّخار وأن يَمهَدَ[1] لغيره من بعده.

ثم استفاض الدهر بحوادثه وعصوره وقامت الممالك واستجمت الأمم واستبحر العمران وما برح ذلك المعنى يتسع ويتتابع ويتلوَّن فى تاريخ طويل ليس كتابنا بصدده[2]- حتى عاد ذلك القتال الأول فرقًّ ثم رق إلى أن صار قتالًا فى الأسواق بين جماعات الدراهم والدنانير؛ وكان النزاع بين فردٍ وفردٍ وبين قوةٍ وقوة، فارتقى وتهذب حتى إلى أن صار نزاعًا بين خلق وخلق وبين حيلة وحيلة، وبعد أن كان المَيدان فى رُقعةِ هذه الأرض صغُر شيئًا فشيئًا أو كبر شيئًا فشيئًا حتى أصبح فى رقعة الضمير...

فإلانسان المتمدن هو هو ذلك الإنسان المتوحش فى عملهِ للقبيلة، إذ يكنزِ الكنوز ويَعقُد العُقدَ[3] ويرتبط الأموالَ، غير أنه قد حصر معنى القبيلة فى نفسه هو ومن تَلزمه نفقته من أهله وولده، فلم تتكافأ وسيلة العمل وغايته، وجمع كثيرا وأنفق ثم فضل عنه كثير، فإن هو لم ينفق من هذا الفضل على قبيلته الإنسانية وأبناءِ أَبيه الأول من الفقراء والمساكين، فذلك الجمع فساد طبيعى، وتزُّيد فى أخلاق الحياة لا تبعث عليه الحاجة أو لا تحمله الحاجة التى بعثت عليه، ومن هنا خرج ما فى

(١) بمعنى يكتب، وما هم لدنيا إلا من أن كل واحد يجمع لجماعة.

(٢) على هذا التاريخ تقوم فلسفة علم الاجتماع، وليس من غرض كتابنا هذا.

(٣) هى ما يتملكه الإنسان من أرض وعقار.

لغات الناس من الذم الأخلاقى[1] الذى هو فى الحقيقة هجاءُ الطبيعة بعقولها وشرائعها أديانها لأكثر الناس...

فالرجل يزعم أنه يَجدُّ ويدَّخِرُ ويَحزِم ويترقى والحقيقةُ تصيح من أفواه الأنبياء والحكماء والفقراء أن ذلك جهل وبخل وطمع وتسفُّل، ومن أجل هذا صارت الإنسانية لا تتقدم خُطوة إلا وقفت زمنًا تلهثُ وتستروِحَ مما بها، لكثرة ما تحملُ من الصناديق والخزائن الثقيلة...

فحسبكم أيها الناس انظروا إلى تركيب الكون واعتبروا سُنَنَ الأقدار فى إدارته من أحقر ما فيه إلى أعظم ما فيه، فإنكم لا تجدون معانى الغنى الصحيح الذى لا فقرَ له إلا فى الأجسام والعقولِ والأنفس، ولن تجدوا معنى واحدًا خلق فى صَندوق أو خزانة...

وقد وضعتُ كتابى للمساكين، وأسندتُ الكلام فيه إلى «الشيخ على»، وهو رجل ستعرف من خبره الذى أقصُّ عليك أنه الجبلُ المتمرِّد الباذخُ الأشم فى هذه الإنسانية المسكينة التى يتخبَّطها الفقر من أذاه وجنونِه ومسه.

وأنا أرجو أن ينزل هذا الكتاب من قلوب المساكين منزلا حسنا، وأن يتصل بأنفسهم الضعيفة، ويُقضى إليهم ببثِّه ويفضوا إليه، فقد تكون مصاحبة البائس للبائس ثروة نافعة لا ثينهما فى معاملة الزمن.

مصطفى صادق الرافعى

---

(١) يظن بعضهم أن هذه النسبة خطأ وأن صوابها الخلقى على القاعدة المعروفة من النسبة إلى المفرد، ولكن ذلك الصواب هو الخطأ بعد أن صارت لفظة «الأخلاق» اسما للعلم المعروف علم «الأخلاق» فالنسبة هنا تجرى مجرى قولهم «أنصارى» إذ كان هذا الجمع «الانصار» من الشهرة كالاسم المفرد.

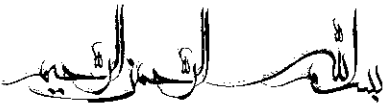

مقدمة الطبعة الثانية

وضعتُ هذا الكتابَ من إحدى عشرة سنة[1] ولو استوى فى أَحَدَ عشرَ قرنًا ثم كُتبتْ له يومئذ مقدمةٌ لكان هو هو كما أصفه اليوم، كتابٌ ليس له قبلٌ وليس له بَعد؛ فهو دائر مع النهار والليل على معنًى آخرُهُ فى الإنسانية أولُه معنى، إذا قلت فيه إنه يجىء مع كل مولود فقد قلت إنه لا يموتُ مع أحد من الموتى.

ستقرأ فى الكتاب وصفَ "الشيخ على" الذى أسندتُ إليه الكلامَ وجعلتُه فيما أستوحيه كالخيط من شعاع السماء تهبُط عليه تلك المعانى التى خلد عليها جمالُ الخلد "فالشيخ على" هذا هو رمز فى كل دهر لثبات الجوهر الإنسانىِّ على تحوُّل الأزمنة فى أشكالها المختلفة، ومن ثم تعيش مع الإنسانيةِ معانى هذا الكتاب، فهو من روحها صورة وحِلْية وجاذبية، ومن عجيب الحكمة أنه ما مِن نبىّ أو حكيم أو شاعر يترجمُ إلى لسان الحياة ما هو أسمى من الحياة إلا استمدّ ذلك من مساكين الحياة خاصة، هم أبدًا السحابةُ المستويةِ المُخِيلةُ لمطرِ العواطِف[2] على جَدْبِ الروح الإنسانية فى الأرض؛ ولعلهم لذلك يتراكمون فى الحياة من

(١) كتب المؤلف هذه المقدمة سنة ١٩٢٩

(٢) الممتلئة التى يؤمل فيها المطر

سوادٍ كالغمائم، ويتشققون من نار كالبرُوق، ويجلجِلون برعود يئنون فيها، ويتبجَّسون بمطر يبكون به[1].

وأعجب من ذلك أنك لا تجدُ من شىء يُحدِث من ذى نفسه مثل هذا الأثر[2] إلا أجملَ الجمال فى أقوى الحبِّ، فكأن أعظمَ البؤس وأعظمَ الجمال صورتان لحكمة إلهية واحدة وإن اختلف منظر ومنظر، والسماء تغبرُّ بلون التراب فى رأْيِ العينِ حين لا تحمل ماءَ المُزْنِ الصافى.

يزعمون أننا فى عصر وفى دهر القانون، ويريدون أن يسلبوا الناس إيمانهم، كأن الإيمان هو مشكلة الإنسانية، مع أنه لا حلَّ لمشكلتها إلا به. إن مسألة الغنى والفقر وما كان من بابهما لا يحلها العلم ولا القانونُ، إذ هى من مواد القضاء والقدر فى إنشاء الآلام والأحزان وأضْدادها التى تُقابلها، وما دام فوق الإنسانية من السماء قوة لاتُحدّ، وتحت الإنسانية من القبر هُوَّة لا تُسدُّ، فلا نظام إلا على تصريف النفس أمرًا ونهيا، وتأويلِ الحياة معنى وغاية، فإن لم يكن الشأن فى ذلك مُقررا فى الغريزة على جهة الإيمان؛ فلن يكون العلم والقانونُ على ظاهر النفس إلا ثورة بما فى باطنها، ولن يبرحَ الناسُ على ذلك بعضهم من بعض كالهارب منه وهو مضطر إليه، أو كالمضطر إليه وهو هارب منه؛ وكل من كلّ فى معنى من معانى النفس لا إنسانيةَ فيه.

ما زاد العلماء على أن خلقوا فى ساعدَى الحياة هذه العضلةَ البخاريةَ وذلك العصبَ الكهربائىّ، فمن لم يستطع أن يتوقى ضربة الحياة المدنية بعُدَّة من قوة وعتاد من المال، طاحت به فدكته دك الخسف ووضعته

---

(١) جلجلة الرعد: دويه، وتبجس الماء: تفجره واستعماله فى المطر هنا مبالغة فى انتزاع الوصف.

(٢) يقال: فعل كذا من ذى نفسه ومن ذات نفسه: أى طبعًا لا تكلفا.

من الناس موضع الحبَّة من الرَّحى الدائرةِ فما بينه وبين أن ينهارَ موضعٌ يستمسك عليه، وإنما هذا الموضع هو إيمان المؤمن إذ يعطف على الضعَفاء أو يُسعدُ أو يبرُّ بما كُتبَ عليه أن يرق لهم من ذاتِ نفسه ويَتحنَّى ويتوجع.

ومتى كان العلم والدينُ يقومان جميعًا على تنظيم الطبيعة فى مادتها وإنسانيتها، لم تجر الإنسانيةُ إلا على ناموس بقاء الأصلح فى الجهتين "فإذا تخلى بها العلمُ وحده فلن تجرىَ أبدًا إلا على ناموس بقاء الأصلح فى ظاهرها لإيجاد الأفسد فى باطنها".

لن يُفلحَ الإنسان للحياة الطيبة، ما دام بهذا التركيب الذى لن يتغير- إلا إذا وازنَ بين بيئته التى هو يوجِّهها وبين طباعِه التى هى تُوجهه. فقيَّد أشياءَ فى قيودها، وأطلق أشياءً من قيودها، وجمع فى مُتبوأ نفسه حدًّا بحرية ودينا بعلم، بَيدَ أن طغيان العلم فى هذه المدينة قد مَرَد عن طباعِ[1] الإنسان وشمائله فى كل موضع من الحيَاة لا تكافئه فيه قوةُ الدين، فإذا هو يزين الشهوات، وإذا الشهواتُ تُطوِّعُ المغامَرَةَ، وإذا المغامرةُ تجلب المنازعة، وإذا المنازعةُ تدفع إلى الحرص؛ وإذا الحرصُ يَتصرفُ بالحيلة، وإذا الحيلة تُهلك التقوى، وكان فى تقوى الإنسان إيمانه؛ وكان فهى إيمانه رحمتُه؛ وكان فى رحمته الأثيرُ الإنسانىُ الذى تعيش فيه الروح، وعلى ذلك يقع فى الإنسان من النقص بمقدار ما يزيد له العلم، فإذا هو منحدر إلى السقوط، مقبل على المحْقِ، راجع إلى الحيوانية بأكثر مما يحتمل تركيبه منها؛ أو لا يرى الناسُ أن تفوُّق أمةٍ على أمة لم يعد فى هذه المدنية إلا معنى من معانى القدرة على اكلها..!

(١) أى مرن عليها واستمر وبلغ منها الغاية التى تخرجها من جملة ما عليه الطبع الإنسانى الكريم.

ومضى العلم على شأنه ذاك حتى جعل الإنسان آله من آلاته التى غَمر بها الدنيا، فأصبح من لا إيمان له يَتَعسَّفُ خسائسه[1] لا يدرى أين يؤُم منها وأين يقف، فلا يتسفَّل بقوة إنسان ولا بضراوة وحشٍ، ولكن بقوة آلة من الآلات الكبرى ودقتها وسرعتها وإتقانها.. حتى لا رذيلةَ من رذائل هذه المدنية إلا هى مُفننة فى تركيب على نسَق الأمور المخترعة، وكأن الآلاتِ العمياءَ ما زادت إنسانَها شيئا إلا أن قالت له كن أعمى... وكأن المدنية الملحدة ما عَدَتْ أن جعلت الوحشية تعمل أعمالها الفظيعةَ بتأنق وتمدُّن...

نسى الناسُ الإيمانُ أو انسلخوا منه؛ فإذا أيديهم تموج بأسباب الفضائل[2] لا تُحكمها ولا تَضْبِطُها؛ وما كان الإيمان الصحيحُ إلا التقوى[3]، ولا كانت هذه التقوى إلا عملا من أعمال الإرادة غايتُه إيجادُ الغرائز العليا فى الإنسان بالأسلوب الذى لا تخلق الغريزةُ العلميةُ فى النفس إلا به، وعلى النحو الذى لا تصلح فى الحياة إلا عليه.

أظهرُ آثار الإيمان[4] تحديدُ الغايات الإنسانية وتنسيقُها والملاءمةُ بينها، فإن إطلاقَ الغاية لكل إنسان على شأنه وسبيلِهِ كيف دَرَّتْ

---

(1) يتخبط فيها على غير هدى

(2) ماجت اليد بالشيء: إذا اضطربت به؛ كأن أيديهم لا تضبط أسباب الفضائل من ضعفها عنها.

(3) الإسلام كله في كلمة التقوى كما بيناه مفصلا في كتابنا(إعجاز القرآن) فانظره، وكلمة التقوي من معجزات هذا الدين لقد قال (هكسلى) قسيم داروين الشهير: "إن الدين هو إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه في الحياة" وكل هذا من قول أستاذ القرن التاسع عشر، وكل ماسبقه به الفلاسفة والحكماء، وكل ما جاء وما سيجيء هو من معانى (التقوى) فى الإسلام، لا تضيق الكلمة عن شيء منه

(4) سيأتيك فيما تقرأ من الكتاب كلام كثير عن الإيمان وفلسفته.

معيشته[1] وكيف دارت أهواؤه- يجعل طُرقَ الناس متداخلة متعادية فيقطع بعضها على بعض ويقوم سبيل فى وجه سبيل، فلا تحل عقده إلا من حيث تُقرَضُ أختها: ولا يتخلص خيط من خيوط اللذات الملتبسةِ المتشابكة إلا قاطعا متقطعا معا؛ وأنت إذا بحثتَ عن الوحدة التى تحاول ضمَّ الإنسانية المتنافرة وردَّها إلى مرجع واحد، لم تجدها فى غير إيمان المؤمنين؛ فهو أبدا يقابل فى كل نفس ما تطغى به الحياة على أهلها، ولا عمل له إلا أن يحذف الزيادات الضارَّة بالإنسان من بيئته، وبالبيئة من إنسانها؛ وهو بهذا حائل فكل مجتمع بين أن تنقلب أسبابُ السمو العقلى فتعودَ من أسباب الدناءة والخسة.

وإنما محلُّ الإيمان من أهله فوق محل الحكومات ممن تحكمهم؛ فهو الأمر والنهى بلغة الدم والعصب؛ وهذه الغايات التى تتألف من أجلها الحكومات: كأمن الناس ونظامِهم وحريتهم وسعادتهم، هى أنفسُها محكومة بمسائل تأتى من ورائها فى طبائع الناس وعاداتهم ومعايشهم ومصالحهم؛ فإن لم تكن فى النفوس من الدين أصول تأمر وتحكم، وفى الطباع من اليقين أصول تستجيبُ وتخضعُ، رجعت الحكومةُ فى الناس أداة مسلطة لا تُغنِى كبيرَ غناءٍ فى الخير والشر؛ إذ يحتاج الخير أبدا إلى قوتها تحميه، ويحتال الشر أبدا على قوتها تستنفذه؛ ومتى لم يكن الخيرُ إلا بالقوة فاحتياجُه إليها شر ومتى لم يكفَّ الشر عن القوة فاحتياله عليها شر مثله؛ فإذا تضعضعت من الأديان هذه الدعائم الراسيةُ- وفرَطَ من الإنسانية هذا الفارُط الذى ليس فى الأرض كفاءٌ منه- لم تجد حسنة فى حكومة من الحكومات إلا معها من طبيعتها سيئة، ولم تجد سيئة إلا

(1) كناية عما تتفق به أسباب العيش وتجتمع وتزكو.

هى سيئتان؛ فلن تكون الحياةُ حينئذ إلا تعقيدا أشد التعقيد من طغيان القادرين عليها بالمال والغنى، ومن حِقد العاجزين عنها بالفقر والحاجة.

والغنىُّ القادر على مُتَعِ الحياة ولذاتها هو دائما فى فلسفة العاجز قادر بلا قدرة، كما إن الفقير الضعيفَ هو دائما عند نفسه عاجز بلا عجز؛ ولا أدلَّ على ذلك من تعبيرهم عن معناه بالكلمة التى تُشبهُ أن تكون هى أيضا معنى بلا معنى.. وهى الحظُّ. فلا بد للناس من الحدود التى تبنى بين كل ضدين من أحوال الإنسانية جِدارا يعطفُ نفسا على نفس بالرحمة، ويردُّ قوة عن قوة بالصبر، ويكُف عادية عن عادية بالتقوى، ويحقق عواملَ التوازن بين أسباب الاضطراب فى الجماعات المتصادمة، ليُقرَّ كل مضطرب فى حَيِّز إن لم يُمسكهُ فيثبتَ فيه لم يُفلتِه فيَعْدوَ على سواه.

فإذا عملت المدنيةُ على هدم هذه الحدود وتركت قوة الإيجاب فى طبيعة الحياة بغير قوة سلبية من الإيمان فى طبيعة النفس، كشفت للإنسان عيوبَه ببلاغه من تعبير شهواته فزادتها رسوخا فيه، كما تقول للص: إنك لتسرق وستصبحُ غنيا تمرُّ يدك فى الذهب تُنفق وتستمتعُ على ما تشتهى... فما يراك قلت له: لا تكن لصًّا وتعفَّف، بل قلتَ له كن غنيا واستمتع. ويومئذ يغبرُّ البؤسُ ويقشعرُّ الفقر كما نرى لعهدنا فى الأمم التى فشا الإلحاد فيها، فليس من بعدُ إلا أن يتحول الفقر عن صورته البيضاء فى سكبِ الدمع إلى صورته الحمراء فى سفك الدم؛ وكان سؤلا فيعوُد اغتصابا، وكان الأسفلَ فيرجعُ الأعلى، وكان يفرُضهُ الحقُّ فإذا هو الحقُّ من نفسه. واللّهِ لكأن المسكين فى هذه المدنية هو الجزء اللئيمُ الذى طرده الغنىُّ من نفسه. وتبرأ منه وأمات ما بينه وبينه، فإذا هما اعترضا فى مذهب من مذاهب الحياة، نفرّ الغنى كأنما يرى قبره يدنو منه، وأطبق عليه البائس بمعانى النقمة واللعنة يقول له: ما أنا إلا لؤمك أنت!

إن من الشجر شجرة تنبت فى القَفر تعتصر ماءَها من بين رمل وحجر، وتمتص غذاءها من لؤم الجدب، فإذا حان أن يُزهِرَ عُودُها شَوكَ فلا يكون فى عقدِه ونبرِه[1]، إلا شَوك شوك؛ فإذا ازدرعوها فى الخِصب وخَضَّلها الماء[2] وساغت لها الطبيعةُ، ثم حان أن يزهر عودُها، مَلَّسَه كرَمُ الأرض[3] فإذا فى موضع كل شوكة زهرة كأنها كلمةُ الحد، وكذلك مثلُ الفقير بين الملحد والمؤمن!

تُرى أيخرجُ الإنسان فى هذه المدنية من عصر العقل إلى عصر القلب، أم هو منحدر من عصر عقله إلى عصر معدته، ثم إلى[4]....؟

وكان على هذه الأرض أغنياء مؤمنون فيها من كرم الحس شِبهُ الفقر، ومساكينُ مؤمنون لهم من كرم الصبر شِبه الغنى، فهل تنقلب المدنيةُ من الغنى المحض والفقر المحض إلى مادة تخلق اللحمَ الحىَّ وأخرى لا تخلق له إلا الظُّفْر الحى...؟

وكان اختراع الإنسان فى المادة الجامدة؛ أفتراه يجىء يوم على الناس يكون أعظم اختراع فيه للإنسان الأخير أن يعيدَ إلى الأرض إنسانها الأول الكريم؟

مصطفى صادق الرافعى

---

(١) النبر: النتوء الذى فى العود.

(٢) بلها الماء.

(٣) نعمته وأدمجته وأزالت نتوءه.

(٤) تحت المعدة: الأمعاء.

الشيخ علي[1]

هو رجلٌ تراه في ظاهره من الدنيا ولكن باطنُهُ يلتحق بما وراءَ الطبيعة وكان ينبغي أن لا يقوم مثلُه على مَسرَحِ الخَلْق إلا مُمثلاً، وأن لايمثل إلا الوجه المطلق من الحياة، بعد أن استقصى الفلاسفة إلى تمثيليه كلَّ ذِريعةٍ فلم يَسْتَوِ لهم أن يَمُرُّوا فيه، وقصَّرَ بهم التكلفُ، وقطعتهم دونه تلك الفلسفةُ التي حَملتهم عليه- فخُلِقَ الرَّجل نشيطًا، مهزوزًا، رَامِيًا بصدرِه ونحرِه مُعْتَرِضا في زِمام القدرَ كأنه صورة الفكر الذي يُمثله وكأنه أسلوبٌ قائم بنفسه في بلاغة الطبيعة.

وأحْسِبُهُ في نظره إلى الخَلق يتوهم أنه رَحَّالة خرج من بعض الأفلاك التي تُعْرَفُ بالعقول العشرة[2] فهبط من أشعته على الدنيا، فهذا العالَم شيء جديد في نفسه وهو شيء جديد في العالَم...

... ينظُر إليك كما تنظر إليه، فأنت تتَبَيْنُ في سَحْنَتِه[3] الواضحةِ أوصافَ الجنونِ الهادىء، وتعْجب من منظر تلك العاصفة النائمةِ في عينيه، وهو يَسْتَجْلي منك الغَرابةِ في قدرة الله إذ أنشأك مثالًا غير مفهوم، ويُطيل عَجبه منك أنك على ما فيكَ تتعجب منه... فكلُّ رجل في

---

(١) هذا الرجل من قرية يقال لها "منية جناح" من أعمال مركز دسوق أحد مراكز مديرية الغربية، وقد توفى سنة ١٩١٩، ولما وضعنا كتاب "السحاب الأحمر" في سنة ١٩٢٤ جعلنا فيه فصلا على لسان الشيخ علي، وسنلحقه بهذه الطبعة من "المساكين".

(٢) من وساوس الفلسفة اليونانية القديمة أنهم يجعلون الأفلاك عشرة ويسمون كلا منها عقلا، وقد أخذها عنهم فلاسفة العرب وزعموا العقل الإنساني من تحتها كلها...

(٣) أي هيئته.

رأيه إنما هو صورة من الرجل الصحيح الذى لم تزَوِّرْ فيه حِرْفة العيش ومطالبَ الحياة شيئًا على الله.

ولكلِّ امرئ سؤال يتردَّد بين نفسه وبين، السماء، فرجل يقول: اللهم هذه القوة فأين الرزق؟ وآخر يقول: وهذا الرزق فأين القوة؟ وثالث يصيح: هذه هى العافية وهذا الرزق فأين السعادة؟ والشيخ على كأنه يقول: اللهم إنه لم يبق من الإنسانية إلا حشاشة تسوق بنفسها[1] وكلُّ رجل من هؤلاء صورة مقلَّدة فأين الأصل؟

لما وُلد هذا الرجلُ،ولعلَّ الطبيعةَ يومئذ كانت فى صَميم الخريف ثائرة مجرودةً غبراء[2].. قامت أمه عن نجم منطفئ لا تَعرِفُهُ الأرض وقد زَهَدَت فيه السماء، فكان رضيعا ثم فطيما ثم جَحَشَ... ثم تزَعرعَ ثم صار يافعًا وعاد فتى وانقلب كهلاً وهو اليوم يَحْطِمُ الخمسين[3] وكأنه لم يكن فى كل ذلك شيئًا، ومتى سُوِّيت عليه الأرضُ لم يترك وراءه إلا سطرا ضئيلا فى سِجِلِّ[4] الموتى فكأن الخيرَ والشرَّ لم يُدركا هذا الرجل. وكأنهُ روح كتب عليها الحبسُ فى جسمها فلا تشهد أمرا من ورائه حتى تنطلق، وكأنه حى على رغم الحياة!

وتُرى أى عقلٍ يعيش به؟ بل أى عقل وأى جنون ليس من أثرهما الخيرُ والشر؟ إن أكبر من تُنجبه الفلسفة ويخرجه الأدبُ ليطوى عمره

---

(١) يقال، رأيته يسوق بنفسه: إذا كان فى الموت.

(٢) أى لا نبات فيها.

(٣) كان هذا فى سنة ١٩١٩، ويقال. حطمته السن: إذا كبر وضعف وكان هذا على العكس فهو يحطم السن... وقد شاع هذا الاستعمال فى أقلام الكتاب دون أن يتنبهوا إلى أنه لا يجوز أن يقال إلا في مثل هذه النكتة.

(٤) كناية عن أسمه، وكان اسمه الشيخ على جمعة.

طيًّا وراء هذه الغاية البعيدة، وما حياةُ الفلاسفة إلا اختيارٌ للموت، فهم يُميتون فى أنفسهم كل سبب إلى الشهوة، وكلّ داعِيةٍ إلى اللذة يَحيوْن بالقسم الأعلى وتبقى مادة الأرض فيهم كأنها أرض بورٌ عارية المحاسرِ لا تُخصِبُ ولا تنبتُ، وهذا (الشيخ على) كله أرض بور... فهو عصر برأسه من تاريخ الأخلاق، وعلى أى الوجوه اعتبرتَه رأيتَه كشيوخ الفلاسفة وحكماء الدنيا. يعيش فى الناس بعقل غير العقل.

ولو تنفس به العمر فبلغ المائة وجاوز العصرين[1] ما زاد كلُّ عمله على أن يُشبه نفسَه، فهو حليم لنفسه غضوب لنفسه، وكذلك هو فى الخفة والوقار، والضَّحك والعبوس والزَّهْو والانقباض، وفى كل ضدّين منهما لذةٌ وألم؛ كأنه جزيرة قائمة فى بحر لا يحيُط بها إلا الماء، فلا صلةَ بينهما فى المادة وإن كانت هى فيه، فالناس كما هم، وهو كما هو: يرونهُ من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى، ويرى نفسَه من دهره أقوى من أن يصيبَ بأذى، ويتحاشونه رأفة ورحمة، ويتحاماهم أنفَة وإستغناءً؛ ثم إن مسه الأذى من رقيع أو سقيط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه، فيألم وكأن ألمُه مرض طبيعى يعتريه، ولا فرق عنده فى هذه الحال بين أن يمغصَ بطنُه بالداء أو يُمغص ظهرُهُ بالعصا...!

وهو والدنيا خَصمان فى ميدان الحياة غير أن امرهما مختلف جدا، فلم تقهره الدنيا لأنه لم يَطمح إليها ولم يقع فيها، وقهرها هو لأنها لم تظفر به!

وإنى لأرى فى اللغة كلمات لم تقع على معانيها ولم تجتمع اللفظةُ منها بمدلولها؛ فكلمة السعادة تبحث عن معناها فى الناس وأهوائهم

---

(1) توفى رحمه الله في سنة ١٩١٩ للميلاد كما تقدم (بعد ظهور الطبعة الأولى بسنتين).

وشهواتهم، ومعنى السعادة يبحثُ الناسُ عنه فى هذه الكلمة وحدودها وحقائقها، وربما كان هذا المعنى بجملته مُلقى تحت الشمس فى زاوية من زوايا القرى، أو متفيّأ ظلَّ شجرة من شجر الجُمَّيز، أو نائما تحت سقف معروش من حطب القطن، أو جالسا يضحك فى ندوة الحى، أو قائما يتأملُ مجرى النهر، أو مضطجعًا يُقلِّبُ وجههُ فى السماء، أو هو الذى يسمى "الشيخ على"!

... وماذا فى السعادة أهنأ من أن تُوقى شرَّ هذه السعادة فلا تتطلع نفْسك إليها ولا ينالكَ إلا ما تحبُّ أن ينالك، فأنت بعدُ وادع قارٌّ آمِن فى سِربِك، معافاً فى بدنِك، خارج من سلطان ما بينك وبين الناس، من خلق مستبدّ، أو رغبة ظالمة، أو صلةٍ عاتبة، ولا حكم عليك إلا لمالِكِ الملك... ولم يفتُقِ اللّه لك من فنون اللذات ما ينغِّصهُ عليك، ولا ضَرب منك مثلا، ولا نص لك عقابا، ولا جعلك مِرآةَ عدو يُصلحُ فيها نفسه[1] ولا نَصبَك لمجاراة أو مباراة، وقد جنَّبك فُضوحَ هذه الدنيا. والدنيا من السوء بحيث يَفضَحُ فيها بعضُ الخير مالا يفضحُ بعض الشر.

ثم ماذا أنتَ طالب من السعادة إذا هانت الحياةُ فلم تَضْعُف عن احتمالها، ولم تَرْمِك بداءٍ فى مرضِ العيش إلا قمت له، ولم نحملك على أمر إلا تحملت عليه، وقويت على نفسك فلم تَكذبك أملا، ولم تخدعك فى باطِل، ولم تجاذبكَ إلا مَورِدٍ لا تصدُر عنه إلا آثما أو نادِما، وكنتَ من نعمة اللّه مخفًّا لا تحملُ إلا رأسك، ولا تجوع إلا ببطنك[2]، وقد كُفيتَ أن تضرسَك نزغاتُ هذا الرأس، وأَمِنتَ أن يقتلك داءُ هذا البطن، ولم يَضرِبك

(١) يرى غلطاتك فيتقى على نفسه من مثلها، فكأنك مرآته.

(٢) يقال: فلان يجوع بخمسة بطون مثلا: إذا كان يكدح لمعاش خمسة.

الله بشيء من هذه النعم المنافقةِ التى يأتى بها المالُ حين يأتِيك بالجاه وأصحاب الجاه ومن يريدك لمالك وجاهك، وأعوُذ بالله من النفاقِ[1] ومِن نِفاق النعمة خاصة، فبينا هى لك إذا هى عليك. وبينا هى مَتاع إذا هى التِياع، وبينا هى فى طعامك شيء إذا هى من طعامك قيء...

وهل فى النعمة خير من الكَفَافِ حاضرا، ومن الصحة فارهة، ومن قرة العين وضَحك السنِّ واستطلاق الوجهِ، وأن يكون القلب فى حجاب من نور السماء، لا تهتِك عنه رذائل النفس، ولا يعلَق به غبار الأرض، ولا يتغشَّاهُ ظلام الحياة، ولا يزال هذا القلبُ فى نضرته وصفائه كأنه سعادة مخبوءة فى غيب الله يُخلق بعدُ مَن خُبِئت له؟

وكذلك أعرف "الشيخ على"، فهو رجل سُدَّت فى وجهه منافِذُ الجهاتِ كلها إلا جهةَ السماء، فكأنه فى الأرض بطل خيالى يُرينا مِن نفسه إحدى خرافات الحياة، ولكنه مع ذلك يكاد يُخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهيةَ التى لا تغذوها مادةُ الأرض ولا مادةُ الجسم، فهى تزدرى كل ما على الأرض من متاع وزينة وزُخرُف، وكلَّ ما رَدَّت عليك الغبطة من بَسْطة فى الجسم، أو سَعة فى المال، أو فضل فى المنزِلة، وكلَّ ما أنت من إقباله على طمع ومن فوَتِه على خوف: تلك الحقيقة الطاهرة التى تكون أعظم ما أنت واجدُها فى سِيَرِ الأنبياء والصِّديقين والشهداء، أو حيث يكون ذلك العقل الجبار الذى لا يشبه عقول الناس، مِن نُبوغ يخرِق العادة، أو جنون تخرقه العادة، وما الجنون إلا نبوغ فوق الطاقة، ولا النبوغ إلا جنون رقيق!

وكذلك أعرف "الشيخ على"، فهو أجهلُ الناس فى الدنيا، وأجهل

---

(١) انظر: فصل النفاق، في كتاب «السحاب الأحمر» وتصويره وفلسفته

الناس بالدنيا، كأنه من هذه الجهةُ ممتلَخُ العقل[1]، وأنت إذا سطعتَ له بالجوهرة الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حَصاة جميلة تتألق، وإن هوَّلْتَ عليه بألوانِ الخَزِّ والدِّيباج حَسِبَك مائقا لم تر قط نضارةَ البرسيم وألوانَ الربيع، وكأنى بِك لو وصفتَ له الذهبَ وما أضرمتْ نارُه فى الأرض وهى برد وسلام، وما أيقظ جماله من الفتنة التى استحال عليها أن تنام، ثم أريته شعلة من هذه النار فى غرة الدينار، لتَضاحك منك، إذ تريد أن تُوهمه- بما أعظمت من ذلك الشأنِ- أنك سلبتَ مُلك اللّه قطعة من الشمس التى غَرَبتْ أمس، ولرأيتَ من زِرايته عليك ما يُعلِمك أنه ما أكبر هذا الدينارَ فى عينك إلا صِغر فى نفسك، ولا ملأ يَدك بالحرص عليه إلا فراغ ما بينك وبين اللّه، ولا كدَّكَ فى طلبه إلا أنك مُسخَّر، ولا أذلك للمال إلا خضوعك للآمال، وما أنت إلا فى قيد من الهمِّ حببه إليك أن قفله هذه القطعة من الذهب!

وإذا أحضرتَه ألوانَ الطعام وجلوت عليه أبَّهة الخِوانِ وقلت له: هلمَّ فارتَع وأصب حتى تَنتأرُ مَانتُك[2] رأيت من نفوره واحتجازه كأنه يقول لك: ويحك! وهل لِبطنٍ كبرياء وهو ستار على أقذار، وهل يسع كل هذا وما هو بالعريض الطويل ولا سلامةَ له إلا بالقليل لأنه قليل، وهل تحتمل ما فى العنقود حبةٌ واحدة، ويحتمل الغنىُّ أن يكون فى صندوقه الإلهى[3] حاجةٌ زائدةٌ، ويبلغ الحمق من هذا الإنسان أن يميت قلبه لأنه وجد النعشَ من المائدة؟

وكذلك أعرف "الشبح على" فهو لا يرى فى الأشياء غير ما خصتها

---

(١) أى مسلوب العقل ذاهبه.

(٢) أى السرة وما حولها، وذلك من الشبع والكظة.

(٣) كناية عن البطن، ويقال: الشبع مكسلة، والبطنة تذهب الفطنة.

به الطبيعة، ولا يرسل عليها إلا أشعةً صافيةً من عينيه الضاحكتين لم تخالطها ألوان النفس ولا زفرت عليها أنفاس القلب، وما ثمَّ غير الانقباض والنفور أو الاستئناس والانبساط، فإما رآها قبيحة وإما رآها جميلة، ومتى قُسِمَتْ الأشياء عنده إلى قبيح وجميل فليس وراء هذين ثالثٌ فى التقسيم، وليس إلا جميلٌ جميل وقبيحٌ وقبيحٌ، فأما المأمولُ والمرغوب والمتنافَس فيه، والمتبرَّم به والمسخوط عليه، وما جاءَ بالشَّقوة وما جاءت به السعادة، وما كان من ورائه حبذا وليت، وما أعانت عليه لعل وعسى، ثم كان وأخواتها، وإن وبناتها، ثم أنا وأنت وهو، ثم انعطف على هذا النحو أو انفرَع منه- فكل ذلك تقسيم لا يفهمه شيخنا، وما هو من جدِّه ولا لَعبه لأن صفحة نفسه ليست كألواح الأطفال: يثبتون فيها ما لابد من مَحوه، ويمحون ما يعودون إلى إثباته، ليتعرفوا ما أصابوا مما أخطئوا، وليتعلموا كيف ينبغى أن يتعلموا.

وهل تجد- أعزك الله- فى هذا الناس مَن يحسن أن يوقرك؛ إلا وهو يحسن أن يحقِّرك، ومن يعرِف كيف يشكرك، إلا وهو يعرف كيف يكفرك ومن يقول لك حفظك الله، إلا وهو قادرٌ أن يقول أَخزاك الله، فالناس عبيد أهوائهم؛ وأينما يكن محلك من هذه الأهواء فهنالك محل اللفظة التى أنت خليقٌ بها، وهنالك يتلقاك ما أنت أهلهُ، وأما ما يريدون أن تكون أهله، وليس فى الناس شىء يزيدك كمالا من غير أن يزيدك نقصا؛ حتى إيمانك، فإنه كفرٌ عند قوم؛ وحتى عقلك، فإنه سفهٌ لطائفة وحتى فضلك فإنه حسدٌ من جماعة، وحتى أَدَبك، فإنه غليظ لفئة.

أما شيخنا فقد مسح الله نفسه ومسح ما به من الناس؛ فليس فى

صدره ولا صدر أحد حَسِيكة[1] عليه؛ وهو أبدًا فى صمت بليغ كصمت الطبيعة، وكأن فهمه شىء من هذا الصمت، فلا يتصل بفهمه ولا يداخل فكرَه إلا الجمال والقبح، والطبيعة نفسها تخرج الجميل تفسيرا للقبيح؛ وتُظهر القبيح تعليقًا على الجميل، وكذلك الشيخ فى إدراكه.

وأجمل ما يرى من وجوه الحياة وجه السماء الصافية، ووجه النهر الجارى؛ ووجه الأرض المخضرة؛ ووجه الرجل الطيب، ووجه المرأة الجميلة: كل أولئك عنده سواء، فليس وجه خيرا من وجه، لأنه لا يُحسن أن يؤوِّل لغةَ الطبيعة فلا ريبةَ فيه، ولا يتزيَّد فى معانيها فلا كذَب فى حواسه، ولا تخاطبه الطبيعة فيما توحى إليه إلا بأسهل ألفاظها وأطهرها وبمقدار ما خُلقَ له؛ إذ لا ترى فيه غيرَ تلك الحيوانية الضعيفة التى هى ضرورية لحى منقطع مثله، وما كانت لُوَثةُ عقله إلا فصلا بينه وبين الإنسان فى حيوانيته؛ وإن شرَّ ما تكون هذه الحيوانية حين تكون عقلية محضة، وراءها عقلُ العالِم واختراع المخترع وفَنُّ المتفنن.

وقد يكون "الشيخ على" رجلا تعسا فى رأى الناس، لأنه حيوان ضعيف وإنسان أضعف؛ ولكنها تعاسة بالغة، فهى من تلك الآلام الحادةِ التى بالغت الطبيعة فى تكوينها لتخرج منها ذلك النوع الشديد الحادَّ الذى يسمونه اللذَّة، وربما كانت التعاسةُ السامية خيرا من سعادة سافلة.

إن المجنون لم يَزِلَّ عن منهج الحياة بجنونه، ولكنه يتبع سَنَة هذه الحياة على طريقة خاصة غير ما ألفه الناسُ أو تواضعوا عليه، ليرى فى كل شىء أثرَ جنونه، فهو حى مع الأحياء بَيْدَ أنه يُشبه أن يكون تفسيرا

---

(1) أى عداوة وغيظ.

للحياة الغامضة التى تَلُوذ بكل جانب مهجور على وجه الأرض، وبكل رأس تحتسبه جانبا مهجورا؛ لأن الناس لا يفهمونها ولا يتسعون لفهمها.

وهذا "الشيخ على" رجل غامض متلَّفف بحقيقته العجيبة، وكَدُهاة السياسة فى شباكهم التى يأخذون بها الأممَ والشعوب فلا تَبرُح ترتَبك فيها ارتباكَ الصيد فى الحبالة، وأولئك الفلاسفة الذين يعيشون فى السُّحُب العالية من فضائلهم فيُمطرون الكون مرة ويَرْجُمونه مرة... إلى غيرهم من رَوابى الخَلق[1] ومن كل رجل عظيم أظله أحُد الجناحين المنبسطين على الأرض والسماء: جَنَاحِ الوحى أو جناح التاريخ. ولكن "الشيخ علي" غموضه من كل جهاته واضح من جهة واحدة هى جهة الجنون فى اصطلاحنا؛ وتلك هى جهة الفضيلة الخالصة فيه، إذا قطعت ما بينه وبين الرذيلة وجعلت له فى الناس رذيلة مجنونة مثله، فكانت سُبَّتُه أنه رجلٌ مطلق لا ينزل على حكم، ولا يتحمَّل على أمر، ولا يُنازع إلى عادة معروفة؛ بل هو قد نجا بنفسه من هموم الناس وأصبح كالروح الوثَّابة التى لا يمسكها قيد ولا يُخضعها زمام، والتى هى فيه كما هى فى موجة البحر وعاصفة الريح؛ فكل مخلوق يَحِجلُ فى الحياة لمكان القيود منه، وهذا يجمعُ الوثبة العالية ثم يثبُ مقبلا ومُدبرا ويتخطى مدَّ بصرهِ فى الحياة كأنه بُرأق الأنبياء...

وليت شعرى هل يأملُ الناسُ أن يشهدوا الحقيقةَ مغلوبة على أمرها، وما كانت الحقيقة أحدَ الخصمين قط إلا كانت الهزيمةُ على الآخر ولو أن هذا الآخر عصر من تاريخ الأرض. ثم ما هى الحقيقةُ إلا أن تكون عقلا مطلقا لا زيغ فيه، أو حقا مطلقا لا كذب فيه، أو يقينا مطلقا لا شك فيه؟

---

(١) أى هاماتهم وعظمائهم، جمع رابية، لظهورهم وعلوهم.

وهذا "الشيخ على" أما عقله فعند الله، وأما حقُّه فقد أوجبَه الله، وأما يقيُنه فلا يعلمه إلا الله، فكيف يُرى مغلوبا لاصطلاح أوعادة وأكثرُه راسخ فى السماء؟

إنه ليجوع ويظمأ ويَعرَى، ولكن كما يجوع الطير وتظمأ الأرض ويعرى الشجر: ليس من حَلَّة إلا وسبيلها من رحمة الله، فإن تخَّلث عنه السماء مرة وقطعت مقاوده من الغيب وخذلته الوسيلةُ- فما تغمُز منه الحاجة إلا حجرا صَلدا يقع على أى جانب ترميه ثم لا يقع إلا حجرا؛ لأن آلام هذا الرجل من الألم القفر الذى لا يَنبتُ فيه شىء من الخوف، ولا يهتدى إليه وهّم من الحياة، ولا مجرى فيه للدمع، ولا ظلَّ للحسرة؛ وهو ألم إن أفضى إلى الموت أفضى إليه برجل لا يعرف الموتَ ماهو؛ وإن أبقى على الحياة أبقى عليها فى رجل عرفت الحياة من هو...

رجل حَطَّ الله أوزاره وكتب عليه أن يكون فقيرا من المال وحبِّ المال؛ وذل المال، فخرج وليس له فى أفئدة الناس إلا الرأفة والحنان؛ وجاء وليس له من الناس حاسدٌ أو عدو. وخُلقَ ذا حدّين من نفسه الماضية لا يكتنفه ذل أوهُم إلا قطعهما وانطلق كالفرِس العتيقِ فى ميعةِ حُضرِه[1] وماذا يبغض الناسُ منه وماذا يعادون وهو فى ذلك البحر زورقٌ قد سقط مِجدافه فليس له ما يَضرُب وما يُسخِّر به، وإنما تدافعه رحمة الله حيث اندفع، والبحرُ لا يعادى الزورق الذى يجرى فوقه ولكن يعادى المجداف الذى يديره ههنا وههنا.

رجل كأنه قطعةٌ من الأبد، لا أمس له يتعقبه ولا غَدَ له يترقَّبه، بل الحياة عنده يقظةٌ طويلة والموت نوم أطول.

---

(١) أى فى أول نشاطه وجريه

"والشيخ على" متى أحس الجوعَ ولج البابَ الذى يصيبه مفتوحا فلا يقعُ على الناس إلا متطرئا، وهو مع ذلك لا يَحطُّ فى الطعام ولكن يَخط فيه خطا[1] وما هو إلا أن يستقر شىء فى جوفه مما يقيمُ صلبه حتى ينفرَ نفورَ الطائر لا يرى إلا أنه قد استوفى حقَّ طبيعته من خادم طبيعى.. فلا جزاءً ولا شكورا، ولهذا لا يبرُح أبدا على الحد الذى يصلحه لنفسه فلا يتجاوزه، وأعجب ما يروعنى من فضيلته أن هذا الحدَّ عينَه هو الذى لا يفسد ما بينه وبين الناس.

وهو إذا تكلم فإنما يَترَمرَم[2] من طول السكوت، فإما أن يغمغمَ حروفا وأصواتًا، وإما أن يَلوثَ بعض كلمًا غير مفهومة كأنه يُسِرُّها فى أذنِ الدهر الذى لم يفهمه، ولكن لهذا الرجل كلمة فى الشتاء وكلمة فى الصيف: فأما الأولى فأن يسأل دِثَارا يستدفع به أذى البرد، ولا معنى لكلمة "هات" عنده غير هذه الضرورة، وأما الثانية فأن يَهبَ الدثارَ لغيره، ولا معنى لكلمة "خذ" عنده غيرُ هذا الاستغناء، على أنك واجدٌ أكثرَ ما فى هذا العالمَ من شر وفسادٍ إنما يرتطمُ فى هذين الحرفين" "هات، وخذ".

هذا هو "الشيخ على": رأيته فرأيتُ فى بـرودِهِ ثورة على العالمَ الإنسانى، وعرفته فأصبت فى ضميره قطعةً مجهولة من هذه المسكونة، واستجليت نفسَه فإذا هو أفُق فوق الأرض، وطالعتُه فكأنى رأيت فى جملته النقطة الأرضية التى يبدأ من ورائها ارتفاع السماء، وبلوتُه فإذا هو حصاة تحت ضِرس الدنيا والناسُ هنالِكَ يُمْضغون، فلم أملك أن غمستُ قلمى من نظراته فى مجرى من أشعة الوحى، ووضعت الاعتبار من هذا

(١) المتطريء: الذى يأتى من غير دعاء؛ وحط فى الطعام: أكثر منه؛ وخط بالخاء: إذا نال شيئًا يسيرًا

(٢) يقال كان ساكنا فترمرم: أى حرك فاه.

الرجل وحقيقتِه ما عرفتُ من الناس وحقائقهم، فخرجتُ لى من المقابلة هذه الصفحات، ولذا كان القول فى "المساكين" ما قال "الشيخ على".

على أنى إن كنتُ لم أُحسن وصفَ الرجل أو كنتُ لم أبلُغ فى وصفه فذلك لأن هذه الحقيقة فى هذا القلم كالثمرِ الحُلْوِ فى العُودِ المرّ؛ والرجلُ مما أنضجه القدَرُ وحده وليس لنا من حقيقته الغامضة إلا الصفاتُ التى تثبتُ أنها غامضة.

وهل فى الحياة أشدُّ غموضًا من رجل يَرى، أو كأنه يَرى، أن كل نعمة لم ينلها فهى مصيبة لم تَنَله، وكلُّ ما يعرفه من هذه الدنيا أنه يعرفُ كيف يتركها مطمئنا وعلى شفتيه من الابتسام تحية السماء لا ستقباله، ومتى هو فارقها انكشف موتُهُ عن حياته، وصرحتْ هذه الحياة من ضميره وخلصَت من هذا الضمير كلمة هى معنى الرجل الذى انطوى عليه، وكانت هذه الكلمةُ "هى الحمدُ لله"!

فى وحى الروح[1]

التراب المتكلم أمام التراب الصامت

ترى أيُّهما هو الصدق فى حقيقتِه: ما نفرحُ به أو ما نحزنُ له أما إن فى الحياة مِلْحًا وإن فى الحياة حُلوًا وكلاهما نقيض، فليس منهما شىء إلا هو رد للآخر أو اعتراضٌ فيه أو خلافٌ عليه، وتجدهما اثنين وهما واحدٌ فى اثنين.

فأنت تُؤتَى الحلوَ تُسيغُهُ وتستعذبُهُ فإذا هو بك فى الملح تَمُجُّه وتَغَصُّ به، ثم لا تضع من أمر على أحسنِه فى صورة إلا رأيتهُ على أقبحِه فى صورة أخرى.

والإنسانُ من الهمّ فى عمر دهر لا يموت، ومن السرور فى عمر لحظة تشِبُّ وتَهْرَمُ وتموت فى ساعات؛ والحيُّ كأنه من هذه الدنيا فرخٌ فى بيضة مُلئث له وختِمتْ عليه فلن يزيد فيها غير خالقها، وخالقها لن يزيد فيها!

ومن الصحة والمرض، ومما سرَّ وساءَ، وما شدَّ وهدَّ، ومن العقلِ العجيب الذى يحكم من الإنسان تركيبًا عصبيًا مجنونًا ثائرًا قد استبانت فيه الحيوانية- من كل ذلك وما إليه مزيجٌ هو بقدرة الله أشبه، ولكنه فوق ضعفنا وحيلِتنا، فلن نرى منه فى الكون إلا شكلَ الحيْرة ومعناها والعذاب

---

(١) روح أخى محمد كامل بك الرافعى، وقد انتقل إلى رحمة ربه فى شهر يونيو من سنة ١٩٢٨ رحمه الله، وهذا الفصل مما زدناه فى (هذه) الطبعة الثانية من المساكين، إذ هو من مادة الكتاب وعلى نسقه ونهجه.

بها؛ والفرحَ بالغفلة عنها والسرورَ بإنكارها أو المكابرةِ فيها؛ والحيرة لا نفىٌ ولا إثبات، ومتى يطلبُ الإنسانُ الحقيقة وهو جزء منها لم يقف إلا على جزء منها، فالمشكلة متحركةٌ إلا كل جهة حتى لا تذهب عنها لتنساها إلا وأنت ذاهب بها لكيلا تنساها.

أما إن فى الحياةِ مِلْحا وإن فى الحياةُ حلوا وكلاهما نقيض فالصَّريح أن يُخلَقَ منهما المستحيلُ وهو الملح الحلو.. فإن لم يمكن، فالممكنُ من الحقيقة للإنسان أن يستحيل الإنسان فيموت!

تُرى أيهما الذى هو الكذبُ في نفسه : الموتُ أم الحياة؟ إنه الجنينُ فالوليدُ ثم الميتُ لا مَحالةَ بعد أن يُسرِع الأجلُ أو يَتراخى؛ لا يَتقار جنين فى ذاته الدمويةِ من الأحشاء، ولا يثبتُ وليدٌ فى ذاته من المهد، ولا يُتركُ شاب فى ذاتهِ العظميَّةِ للحياة، ولا يقف شيخ فى ذاته الجلدية دون القبر!

مِن عُقدة الثمر إلى لُبِّتها إلى شحمتها إلى قشرتها، على ناموس القضاء والقدر فى باب الحَتْم المقضىّ من كتاب السماء، وعلى ناموس النشوء والارتقاء فى باب الهذيان العلمىّ من كتاب الأرض...

وكما تكونُ تحت الوسائد كنوُز أحلام الليل، تكون فى هذه الحياة أحلامُ الكنوز الخالدِة التى تملأ الأرضَ كلَّها ضوءُ لؤلؤةٍ واحِدةٍ منها.

تطلُع الشمسُ على الناس كأنها فصُّ خاتمِ السماء تشيرُ به أن تعالوْا إلى الكنز فى ضوء هذه الياقوته الصغيرة.

الحواسُّ زائغة متراجِعة مقلوبة، وهذا هو نظامُها ونَسقُها واستواؤها فليس من أحدٍ فى هذا الكون الموجود إلا وهو ناظر إلى كونٍ غير موجود.

السماء سموات، والأرض أرضون، والأكوانُ عِداد العقول، وكلُّ أمل فى رأس مخلوق يزيد عنده الدنيا أو ينقُصها ويغيِّرُ من الخليقة ويبدل؛

وكل إنسان فى كل يوم هو إنسانُ يومه ذلك، فكأن كلَّ حى من كل حى غلطة، آمالنا كأرقام الساعة: هى اثنا عشر رقما محدودة، ولكنها فى كل دقيقة هى اثنا عشر رقما فلن تنتهى.

والحياةُ خداع وغرور، وزَيغ وخطأ، وعمل وعَبَث، ولهو ولعب، ومهزلة وسخرية؛ والناس كالأرقام تُخَط على هذا التراب ثم يقال للعاصفة: أجمعى واطرحى وحلى المسألة...

وأين كلَّ ما صبتهُ الشمس والكواكب من نيرانها، وما أخرجته فصولُ الأرض من وَشْيها وألوانها، وما هَتفتْ به الطير من أغاريدها وألحانها وما تلاطمت به الدنيا من أمواج إنسانها؟ وأين ما صحَّ وما فسد، وما صدق أو كذب، وما ضرَّ أو نفع، وما علا أو نزل؟ فى كل لحظة تمتلىء هذه الدنيا لتفرغَ. ثم تفرغ لتمتلىء، وماضيها ومستقبلُها مِطرقتان يَمرُّ بينهما كل موجود لتحطيمه.

وكأن الحياة ليست أكثر من تجربة الحياة زمنا يقصر أو يطول، وما العجيب أن لا تُفلحَ التجربةُ فى أحد، ولكن العجيب أن لا تنقطع وهى لا تفلح.

والعالَم كالبحر من السَّراب يموج به أديمُ الأرض بما رَحُبَت ثم لا تملأ أمواجه ملعقة، والحقيقة فى كل شىء لا تزال تفرُّ من تحليل إلى تركيب ومن تركيب إلى تحليل؛ لأن شعور أهل الزمن بالزمن لا يحتمل المعنى الخالد.

ولعل سبب الموت أنك لا تجد إنسانًا يعيش فى حقيقته الإنسانية؛ فلا هذه الحقيقة يسّرت له كاملةً ولا هو خُلق لها كاملا؛ وفى الإنسان كالطبيعة أرض وسماءٌ فترابه لا يتغشاهُ مما فوقه غيرُ الظل وقد خُلق

مقسوما فشُقة منه فى أرضه وشُقة فى سمائه، فإذا حضره الموت ضرب الضربة بين هاتين فأخذت السماءُ السماءَ وجذبت الأرضُ الأرض.

هناك البرقُ الإلهىّ ملء الكون يلتمع ويخطفُ، ولكنه من الإنسان كشعلة تتوهج فى غرفةٍ أرضها وسقفُها وحيطانها من المرايا وليس فى هذه الغرفة إلا هذا الضوء ورجل أعمى.

فلا سخريةَ ولا ضلالة ولا عبث ولا خداع إلا فى أسلوبنا الإنسانىّ المبنى على حواسنا الزائغة، كما تَنوُد[1] السفينة خفت على موج البحر وما عبث البحرُ بها ولكن يعبث بها وزْنها.

يريد الله أن نخلق لأنفسنا معنى من السمع والبصر ليس فى أذن ولا عين، وأن نزيد فى مجموعة أعصابنا الواهنة عصبًا عقليًا يراه ويسمعه ويدركه ويؤمن به[2] فالإيمان قوة خبَّارة لا تجمع إلا من ردّ كل أطراف النفس[3] المنتشرة إلى عقدتها الروحية، وحبسها أكثر حواسَّها فى حس واحد عنيف مؤلم، ووضعِ المناعم المضنون بها فى ذلك المعنى المفتوح المتهدم الذى لا يمسك شيئا وهو الزهد، وحصرِ الآلام الطاحنة فى ذلك المعنى المطبقِ المتحجرِ الذى لا يُفلتُ شيئًا وهو الصبر، وردِّ الأخلاق كلّها إلى ذلك العنصر الذى يُضيف معنى الحديد إلى معنى اللحم والدم وهو الإرادة؛ وبعد ذلك كله وضع كلِّ شىء إنسانىّ فى ضوء من أضواء الكلمة المتألهة المسماة بالفضيلة.

---

(١) تنود: تتمايل وتتحرك.

(٢) كأن الله تعالى يخلق الإنسان ويودع فيه من سره ثم يقول لست حيوانا فأكمل نفسك.

(٣) أطراف النفس: كناية عن شهواتها.

يا إلهى! ما أقواك وما أضعفنا! كأنك تقذفنا من السماء فنجد من بعد أن نرتفع إليها بأنفسنا على أجنحة الأعمال التى تطير بجاذبية مما تحب!

لما خلقت الإنسان عبدا على قدرك صار إلها على قدره، فيجب فى الحق أن تعذبه السماءُ إذا وغل عليها طفيليًّا بلا عمل ولا ثمن!

النخلة السحوق نواة مخزونة فى بلحة، والعالم العظيم تركيب مخبوء فى إنسان، فالإنسان لنكده الطبيعى محيط بنواميس قاهرة تحركه، وتحيط به نواميس أخرى قاهرة تتحرك معه، فمن ثم لا يبرح يصطدم، ولن يكون متجها أبدا إلا إلى التخطيم، فإذا هو تورّع وتحرج واستعلى أمات من شهواته فأبطل مثل ذلك فيما حوله، فكان خروجه من بعض الدنيا هو حقيقة وجوده فى بعض الدنيا، ومثلٌ هذا حقيق أن يقول: إنى أحكم العالم من داخلى.

تباركت ربنا وتعاليت، إن الشك فيك لهو اليقين على طريقة والإيمان بك هو اليقين على طريقة أخرى، المُقعَدُ لا يمشى، والأعرج لا يعدو، والضعيف لا يسبق العدّاء، فإذا أنكر المقعدُ على من يراه يمشى، والأعرج على من يبصره يعدو، والضعيف على من يعرفه قد سبق، فما ذلك من إنكار العين ولا من مكابرة النفس، وإنما ذاك رأى منظور فيه إلى حظ رِجْلٍ مُهملةٍ وأو قدَم مكسورة أو عظْم واهن؛ ومن ثم لن يكون فى الناس مُلحد إلا وفى طباعه أو أخلاقه أو حوادث دنياه جهة مريضة ينكسر عندها الرأى ويبتلى بها الرجل من إعراض امرأة، فمنذا يقول إنّ النفس الإنسانية فى وزن قُبلة!

فأما الملحدُ بغير علة فهذا لا يُوجِده أب ولا تضعه أم، إذ يجب أن تكون طباعُه له وحده وميراثُه منه وحده حتى يُصدَّق زعمه أنه الحد

للبرهان وحده؛ فما يجحد الجاحد إلا ليجعل نفسَه فى الرفاهية من الأمر والنهى، ويخرجَ بها من حكم الضرورة؛ والإيمان كله ضرورات مسلَّطة الحكم على ما بين المؤمن ونفسه، وما بين المؤمن والناس، وما بين المؤمن وربِّه، حتى كأنّ فيه شيئًا يُلذعُه بالجمر فما يستريح عن لذعة إلا قدر ما يَجمُّ ليحتمل اللذعة بعدها.

يا إلهى؛ إنما يحبك المؤمنون، ويكابدون فى رضاك على مقدارٍ منك لا منهم؛ فأنت تَقذُف قلب المؤمن بضرورات كشُقَل البراكين، وتضرُب روَحه من مصائبه بسلسلة جبال مفتولة، وتتركه فى الأرض يشعر كأنما خرّ عليه سقف العالم!

شُبه خلفها بصائرُها، وظُلمات تنتهى بعد حين إلى مَدِّ النهار الأكبر[1] ومن الضرورات والمصائب والآلام يتخلَّقُ الجوُّ الحسَّاسُ الذى يبُسط فيه الإنسانُ جَناحَىْ روحِه ويسمو بها على التراب والمادة.

الجوّ الجوّ: هذه تغريدةُ البلبل فى قفصه.

الغذاء الغذاء: وهذه قوقأة الدَّجاجةِ فى قفصها.

أيقيِّس الإنسانُ نفسهُ على قياس من الطبيعة فى قوتها المتراكبة، ومظهرِها المسخَّر لكل ما يتفق، وتركيبها المبنى على سهولة الاحتمال ونظامِها الميَّسر لعدم المبالاة؟ ألا ما أحمق الزهرةَ التى علمت أن الدَّوحة لا تقتلعها إلا العاصفة العاتية فقالت: الآن أهزأ بالنسيم؛ ثم لمسها النسيم فرمى بها ورقة ورقة!

كأن الشكلَ الإنسانى نقص إنسانى، وكأن الإنسانى لم يجىء إلى الدنيا بأكمله وكأنه ما خلق منه إلا قدر مّا لغرض ما؛ كأنه تركيب فى يد

(١) أى أعظم ضوئه فى لجة الضحى فذلك هذه

الصانع الأعظم ألقى منه جزاءً فى مِرَجلِ الفلَكِ الأرضىّ ليغلى قليلا... ثم يتطاير ويجتمع فيتلقاه من بَعد.

كأن هذا الإنسان تحت هذه الضغطة فى هذه الفورةِ فى هذا الفلك، مادّة يُطعم جوا لتتحولَ ولتتحّولَ ليس غير. ألا ما أحمقه وهو فى المرجل على الوقدة الحامية إذا أبى أن يغلى!... وما أسخفه وهو فى المصفاة تحت الضغطة الثقيلة إذا أبى أن يُعصر!... وما أجهله وهو فى الحياة الفانية إذا نسىَ أنه سيموت!

لا تغترى أيتها الحبة الصغيرة المختبئة فى كُدْسة من القمح تتحدر فى ثُقب الرَّحى، ولا تحسبى أنك من لهو ولعب تنبعثين هناك وهنا بين الحب، إنك فى رفق ولكنه رفق الحجرين الآكلَينِ اللذين لا يدّعان شيئًا ولا يفلتان شيئًا وإنما يَرْفقان بك قليلاً قليلا ليُجيدا طحنَك كثيرا كثيرا!

فتحنا القبر وضَرْحنا للميت العزيز؟ لم أقل إنه مات، بل قلت إن موته قد مات! كأن الحى على هذه الأرض هو القبرُ الإنسانى لا الجسمُ الإنسانى. فإنك لتجد قبورا من ألف سنة ولا تجدُ إنسانا فى بعض عمرها، أما ترى همومَ الدنيا وأحزانَها كيف لا يخلو منها أحد، كيف تخرجُ من النعيم كما تَخرُج من البؤس؟ ما أحسبها إلا صُورًا من ظلمة القبر يجىء القبر فيها حينا بعد حين إلى ميِّتِه الذى لم يمت!

من يهرب من شىءٍ تركه وراءه، إلا القبر، فما هربُ أحد منه إلا وجده أمامه؛ هو أبدا ينتظر غيرَ متململ، وأنت أبدا متقدم إليه غيرَ متراجع؛ وليس فى السماء عنوان لما لا يتغير إلا اسم الله وليس فى الأرض عنوان لما لا يتغير إلا اسمَ القبر.

وأينما يذهب الإنسانُ تلقته أسئلة كثيرة: ما اسمُك؟ ما صناعتك كم عمرك؟ كيف حالك؟ ماذا تملك؟ ما مذهبك؟ ما دينك، ما رأيك؟...

ثم يَبطلُ هذا كلُّه عند القبر كما تبطل اللغاتُ البشريةُ كلُّها فى الفم الأخرس، وهناك يتحرك اللسانُ الأزلىُّ بسؤال واحد للإنسان؛ ما أعمالك؟

أيها المتقاتلون على الدنيا والإنسانُ إلى حين! إن تنازع البقاء مذهب فلسفى بَقرِى لا إنسانى... فإنها الثيرانُ هى التى تجد من القوة أن تنتطِحَ فى المجزرة وتنسى لِم هى فى المجزرة!

فتحنا القبرَ وأنزلنا الميتَ العزيز الذى شُفى من مرض الحياة، ووقفت هناك، بل وقف التراثُ المتكلم يعقل عن التراب الصامت ويعرِّف منه أن العمر على ما يمتدُّ محدود بلحظة، وأن القوة على ما تبلغُ محدودة بخمود، وأن الغايات على ما تتسع محدودة بانقطاع، وحتى القارّات الخمس محدودة بقبر!...

يا عجبا! القبور مأهولة بملء الدنيا وليس فيها أحد! أية ذرّة من التراب هى التى كانت نعمة ورغَدا، وأيتها كانت بؤساوشقَّاء، وأيتها التى كانت حُبًّا ورحمة، وأيتها كانت بغضا ومَوْجِدَة؟

سألتُ القبر: أين المال والمتاع؟ وأين الجمال والسحر؟ وأين الصحة والقوة؟ وأين المرض والضعف؟ وأين القدرة والجبروت؟ وأين الخنوع والذلة؟.. قال: كلُّ هذه صوَر فكرية لا تجىء إلى هنا ؛ لأنها لا تؤخذ من هنا! فلو أنهم أخذوا هدوءَ القبر لدنياهم، وسلامَهُ لنزاعهم، وسكونَه لتعبهم، لسخروا الموت فيما سَخروه من نواميس الكون!

إن هؤلاء الأحياءَ يحملون فى ذواتهم معانيهم الميتة وكان يجب

أن تدفنَ وتَطهرَ أنفسُهم منها؛ فمعنى ما فى الإنسانية من شر هو معنى ما فى الناس من تعفن الطباع والأخلاق.

يكذب أحدُهم على أخيه فيعطيه جيفةً حقيقة ميتة، ويكيدُ بعضهم لبعض فيتطاعمون من جِيَف الحوادث المسمومة، ويمكر الخائن فإذا جيفةُ عمل صالح قد مات، فكلٌ مضغة تبتلعها من حق أخيك الحى هى كمضغة تفتلذها من لحمه وهو ميت: لا تعطيك إلا جيفة؛ ثم أنت من بعدُ لستَ بها إنسانا ولكنك وحش.. بل وحش دنىء لست له فضيلة الوحشية التى من وقوة تأبى أن تمسَّ لحوَم الموتى!

واها لك أيها القبر! لا تزال تقول لكل إنسان تعال، ولا تبرح كل الطرق تُفضى إليك فلا يقطعُ بأحدٍ دونك ولا يرجع من طريق راجع، وعندك وحدك المساواة، فما أنزلوا قط فيك ملكا عظامُه من ذهب، ولا بطلا عضلاته من حديد، ولا أميرا جلده من ديباج، ولا وزيرا وجهه من حجر، ولا غنيًّا جوفه خِزانة، ولا فقيرا عُلقت فى أحشائه مخلاة!

أَلا ويحك أيها القبر! لِم لا تأتى إلا فى الآخر؟ ولم لا تضعُ حدود معانيك بين الأحياء بعضهم من بعض حتى يقوم بين الضعف والقوة حدُّ المساواة، وبين النفوس والشهوات حدُّ التقوى، وبين الحرام والحلال حد الله!

يا شقاءَ أهلِ الأرض! أما إنهم لو وُضعوا فيها موضعا من العناية لما كان الإبهام فى السريرة، ولا كانت الغفلة فى النفس، ولا كان النسيانُ فى الطبع، ولولا هذه الثلاثُ فى هذه الثلاثة لما كان المجهولُ البشرىُّ كله فى شىء واحد وهو القبر.

إن أحزاننا وهمومَنا ودموعنا هى كل المحالة الإنسانيةِ العاجزةِ

التى نحاول بها أن نكون فى ساعة من الساعات مع أمواتنا الأعزاء؟ هم يأخذوننا إليهم اختلاجا وانتزاعا فى هذه الأحزان والهموم والدموع؛ فكأنها أمكنة تخلّق من الأثير الروحى وتتجسمُ من معانيها كى تَصلح أن يلتقى فيها روح الحى وهو حىّ بروح الميت وهو ميت، كما يتلاقى روحا الحبيبين فى قبلتهما أولَ مرة إذ يخلقُ قلباهما لهذا اللقاء جوًّا أثيريا من الزفرات واللوعات بين الشفاه المتلامسة.

أو لعل الموتَ كِما يُجرد الحىَّ من روحه ينتزع من أهله شهواتِ أرواحهم فيميتهم مدةً من الزمن فى القلب وفى العين وفى الفكر، وبذلك يرُد جميعَ المحزونين إلى المساواة، فأهلُ كلِّ ميت وإن علا كأهل كل ميت وإن نزل، وتموت بالموت الفروقُ الإنسانية فى المال والجاهِ والقوة والجمال، حتى لا يبقى إلا الدمعة واللوعةُ والحسرةُ والزفرة، وهذه هى أملاك الإنسانية المسكينة!

ياهمَّ من يُحسُ ويعرف كيف يموتُ العزيز عليه وكيف يتحول من يحبه إلى ذكرى! إن ما يُعمل فى القبر يعمل قريبٌ منه فى القلب!

وما يعرف الحىُّ أَن الذاكرة فيه هى حاسة اللانهاية[1] إلا حين يموت له الميت العزيز، فلا يكون فى الدنيا وهو في ذاكرته بمعانيه وصورته لا يبرحها.

وليس يُنزِل الحى من أمواته فى القبر إلا من يقول له إننى منتظرك إلى ميعاد! أما لو عقلها الأحياء لعرفوا أن الموت هو وحده ناموس ارتقاء الروح ما بقيت فى الدنيا، ولكن ضجيجَ الشهوات- على أنه لا يعلو رنةَ كأس ولا يغطى همسة دينار ولا يخفى ضحكة امرأة- يطمس على الكلمة

(1) هذا رأي لنا، فالذاكرة عندنا من الأدلة على خلود الروح

الأزلية التى فيها كلُّ قوة الصدق وكلُّ صراحة الحقيقة، فإذا هى خافتةٌ لا تكاد تثبت، غامضة لا تكاد تبين!

أذلك سحرُ الحياة فينا، أم سوءُ استعدادنا لها، أم شراهةُ الجسم من لذة الحياة لا بتلاع كل ما فى الكون منها، أم حماقةُ الكأس التى تريد أن تغترف البحر لتكون له شاطئين من الزجاج، أم بلاهة الإنسان الذى يريد أن يطوىَ فيه معنى الخالق ليكون إله نفسه!

وَيْحه من غريق أحمق يرى الشاطى على بعدٍ منه فيتمكَّثُ فى اللجة مرتقبا أن يسبح الشاطىء إليه... ويثبت الشاطىء ويدعُ الأحمقَ تذوب ملْحةُ روحِه فى الماء!

اسبحْ ويحك وانجُ، فإن روحَ الأرض فى ذراعيك، وكل ضربة منهما ثمنُ ذرّة من هذا الشاطىء كذلك ساحلُ الخُلد: يريد من الإنسان الذى هو إنسانٌ أن يبلغَ إليه مجاهدا لا مستريحا، عاملا لا وادعا، تَلْهثُ تَعبا لا ضحِكا، ويَشْرَقُ بأنفاسه لا بكأسه، ويَنضح من عرق جهاده لا من عطر لذاته.

إن روح النعيم الأرضي فى ذراعى الغريق الذى يُجاهدُ لينجو، وروح النعيم الأزلى الحىّ الذى يجاهدُ ليفوز!

الفقر والفقير

قال "الشيخ علىّ": يا بُنىَّ، إن فى تاريخ الحياة سؤالا لم تزل تُلقيه أطماع الناس فى كل عصر من عصورها وما إن تُصيب له جوابا مُقْنِعا، لأن الطمع ليست له طبيعة محدودة، فهو يرمى بسؤال غير محدود ويريد بطبيعته جوابا غيرَ محدود.

هذا السؤالُ واحد من ثلاثة هى حقائق الإنسانية الضالةِ عن الإنسان نفسه فى غيب الله.

يقول الإنسانُ: ما هى الروحُ التى تُعطى الحياة؟ وتقول آماله: ما هو الموتُ الذى يستلبُ هذه الحياة؟ وتقول أطماعُهُ: وما هو الفقر الذى يَجمعُ على الروح بين الموت والحياة؟

كذلك يَتساءل: ما هو الفقر؟ على أنه غَيْر الفقرِ ذلك السؤالُ الذى تجدُ فى كل نفس إنسانية معنى من جوابه، ولا غيرَ الفقر ذلك القبرُ المعنويُّ الذى لم يخلق الله نفسا من النفوس إلا ولها ميِّتٌ من الأمل فى ترابه، بَلَى، وإذا كان فى لُغَاتِ الأفواه لفظ خالد فإنما هو الفقر؛ وإذا كان فى هواجِس القلوبِ معنى خالدٌ فإنما هو خوفُ الفقر، وإذا كان للدموع الإنسانية مَصَب واحِد تلتقى إليه من جهات الأرض فإنما هو بين شاطئين إن جاز أن يكون أحدهما الحب فإن من المحقق أن أحدَهما الفقر!

إن هذ الأرض لتصبح فى كل يوم ولا يمكن ان يقال بحق إن فيها عملًا إنسانيًا عامًا غير طلب المال، فأحْرِ بها أن تُمسىَ فى كل يوم ولا يمكن أن يقال إن فيها معنى إنسانيًا عامًا غير راجع إلى الفقر.

ويقولون إنها تدور حول قرص الشمس، وهو قول فلكى أو سماوى يصح إطلاقه على الأرض كهيئتها يوم خلقها الله، أو على الأقل كما خلقها؛ أما الحقيقة الأرضية فأنها تدور حول قرصين: قرصِ اللَّهب، وقرص الذهب؛ وبالله ولِلفقير! إنه دائما فى الجهة المظلمة.

الفقر متى ألقيته سؤالا عاد إليك بجواب نفسه، لأنه فصل من كل عمل، كالشتاء فصل من كل سنة؛ وليس فى الناس جميعا من يصدق إذا ادعى أنه لا يعرفُ الفقرُ، غير اثنين لا خيرَ فيهما. غنى جُنَّ من فرط الغنى، وفقير جُنَّ من فرط الفقر، فالأول لا يعرف هذا الفقر فى جنونه لأنهُ جنَّ بغيره، والثانى لا يعرفه لأنهُ جنَّ به، ولكن من هو الفقير؟

من هو الكائنُ الضعيف الذى أحاط به الجهل حتى إنه ليجهل نفسه، وأينما يُولِّ وجهه أشاح عنه الناسُ بوجوههم فلَوَوْا رءوسهم، وصعروا خدودهم وأمالوا أعناقهم؛ حتى كأنَّ كل رأس فى التواء عنقه من الأنفة والاستكبار يمثل علامة استفهام أقامتها الحياة فى وجه هذا المسكين أو يُقيم علامة إنكار...؟!

من هو الحى الذى تنكرتْ له الدنيا حتى أصبح فيها كأنه نوع شاذ من الخلق يقوى على كل شىء حتى الطبيعة، ولكنه يضعف عن شىء واحد وهو الغنى، فقضت عليه شرائع الاجتماع أن يُنفق من حياته أضعاف ما يكسب لحياته؛ فهو إذا كدَح فى العمل طِوال يومه، فقوت هذا اليوم عليه كثير، وإذا لم يجد ما يُطعمه الجوعَ فأطعمه من جسمه فذلك عليه يسير، وإذا سال فى الشمس وجمد فى البرد فهو عند الأغنياء ذو طبيعتين لأنه ليس مثلَهم ولأنه فقير...؟

ومن عسى أن يكون هذا القوى الذى يختصمه الاجتماع كله ويخشى

أن يرتفع فيكونَ "قاضيًا" عليه، ويأخذه اليوم بالجناية وهو الذى أوحاها بالأمس إليه؟ ومن هذا الذى يرى المجتمع أنه إذا قدّر للشريعة أن تُلحَدَ فى قبر فلن تدفن إلا فى هاوية من مطامعه، وإذا حَكم الله على عصر من عصور الجبابرة بالشنق فلا تكون المشنقة بجذعيها وحبالها إلا من ذراعيه وأصابعه...؟"[1].

من هو الذى يجف ريقُ الأرض لو جفَّ عرقه من ترك العمل، ويخيبُ أمله مع ذلك فى كل غنى وهو نفسه للأغنياء أكبرُ أسبابِ الأمل؛ يُدلون عليه بالغنى ولولا أن فى فضتهم عنصرًا من دمعه القيم لما وجدوا لها قيمة، ولو لم يكن فى ذهبهم روحُ من دمه الكريم لما عُدَّ أفضلَ المعادن الكريمة؟

قال "الشيخ على": ذلك يا بنىّ هو المدْرَج فى أكفان النسيان، الذى ليس له فى الناس إلا "منكر ونكير"؛ ذلك هو البائسُ فى بنى الإنسان الذى يكثر عليه القليلُ ويقلُّ منه الكثير؛ ذلك هو المتناقضُ فى نفسه حتى لا يصغر أن يقال فيه صغير ولا يكبر أن يقالَ فيه كبير؛ ذلك هو الذى يشبه أن يكون عمله حركة فلكية فى الأرض لآلة الغنى- ذلك كله هو الفقير!

وبالله! ما تحمل الأرضُ إنسانا واحدًا لا يخشى عاديةَ الفقر، ولا يتعوّذ بالله منه ولا يرى يومه فى هذه الأرض كأنه الآخرة قبل الآخرة، يقوم الفقير بين حسابها وعذابها، ويستعيذ برحيمها، من جحيمها، ويفر من أمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، وفصيلته التى تؤويه؛ ويضعُ فى ميزانها المنصوب آماله، فلا يزنُ إلا أعماله، ويستصرخ كل من يمرَّ به فلا يسمع إلا قائلا يقول نفسى نفسى... فينظر فاذا هو فى الناس ضائع

---

(1) كذلك وقع فى روسيا البلشفية وسيقع فى غيرها، ومتى لم يؤمن الغنى كفر الفقير.

حتى لا يعرف له محلا، ومنفرد حتى لا يجد بينهم لشخصه ظلا، وإذا هو بالسماء وقد التهبت بأقدارها حتى كأنها فى عينه جَمرة من البرق الخاطف؛ وإذا الأرضُ قد ثارت بأهلها كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف؛ فان أقبل على الناس فروا من أماكنهم كأنه زلزلة تمشى، وإن استصرخهم نفروا كأن فى صوته فزعَ الرعدِ القاصف.

ياالله! ما تحملَ الأرضُ إلا من يعرف هذا كله من الفقر بل أشدَّ منه، ثم يبقى الفقير- ويالهفَ أرضى وسمائى عليه!- كأنه، مسألة فى حساب الناس لا همَّ لهم فيها إلا كثرةُ الطرح والضرب ثم الغلط فى النتيجة... وتنحاز طبائع الناس كلها فى جهة والفقر وحده فى جهة حتى لا يرى هذا المسكين فى العالم على سعته غير اثنين: هو واستبداد الغِنى؟

ترى أين تكونُ شرائع الآداب إذن؟ هل هى فى ضمائرنا، أم هى فى كتبها، أم هى فى تاريخها الميت القديم؛ أم صار الحق كله إنسانيا بحتا: لى عليك ولك على وليس لله علينا شىء، وفصلنا أنفسنا من السماء وقطعنا الروابط التى كانت تربطنا بها ونبذناها فرثت ثم رثت فإذا هى على أجسام الفقراء تلك الأسماكُ البالية؟

إن هذه الحقوقَ متى أصبحت إنسانية محضة ليس فيها لله شىء فكل درهم يوضعُ فى يد الإنسان يجعل فيها عقلا يحكم على عقله، وكل رغيف يستقر فى مَعِدته يخلق فيها ضميرًا يستبدَّ بضميره، فينفصل الإنسان من الله ويبتعد عنه بمقدار ما يقرب من الغِنى، وحسبه يومئذ فى اعتباره بعيدًا جدًا عن الله ورحمته أن يقال إن بينه وبين ربه مسافةَ ألف دينار... ذلك بأن عدلَ الله يقضى أن يكون للفقير قِسمهُ من الثروة، وإنما الجزء المهم من هذه الثروة هو الإحساسُ فى ضمائر الأغنياء.

والأدلة على هذه القضية- قضية الحقوق الإنسانية- كثيرة تفوتُ الحصر لأن كل صاحب ربا قد جمع مال السُّحتِ من استئكال الناس إنما هو فى نفسه دليل عليها؛ ولعمرى إنه ليس أحد أخيب رجاءً ولا أحق بأن يخيب، ممن يسأل المتهالك على الربا- الذى يستنبَت دراهمَه بين الأحزان والدموع- إحسانا لوجه الله، فإن هذا الذى لا يعرف الله فما يأخذ كيف يعرف اللّهَ فيما يعطى[1]؟

قال "الشيخ على": ولماذا نرى يا بنى جُفاة الأغنياء يخشون من الفقر على أنفسهم وأهليهم فقط ولا يخشون منه على الفقير؟

أظنهم يقولون إن فى الأرض شيئين بمعنى واحد: قبور الأمواتِ فى بطنها، وأكواخُ الفقراء على ظهرها، وليس من فرق بينهما فى النسيان لأنه يشملُهما جميعا، وإنما الفرق بينهما فى حاليهما المتناقضتين، هذا قبرٌ ميِّت وهذا قبر حىّ نعم صَدقوا ابَرّوا وقالوا حقًّا، أليسوا جُفاة القلوب غِلاظ الأكباد؟ وإلا فما الفرق بين موت مَنْسِىّ كموت الغريب، وحياةٍ منسيةٍ كحياة الفقير، إلا على الفرق الذى لا يبالى به هؤلاء الأغنياء حين يكون لأحدهم ظاهرٌ حىّ وضمير ميِّت؟

وأحسَبُ أولئك الطغاةَ يقولون؛ إننا نرى الفقيرَ لا يملك من الأرض شيئًا محدودًا بل هو يملك أرض الله كلَّها بحدودها الأربعة... ففقرُ فلان التاجر الغنىّ مثلا ليس هو فى الحقيقة أن لا يُصيبَ القوتَ ولا يجدَ المأوى كغيره من الفقراء، وإنما هو المتاجرةُ فى الآمال، بعد الأموال، وقبْضُ

---

(1) لسنا نرى فى الربا خيرًا اجتماعيا خالصا ولا نفعًا إنسانيا صحيحا على الإطلاق وما هو إلا محق الله للإنسان ومحق الإنسان لنفسه، ولكن كثيرًا من الرذائل الإنسانية كالربا وغيره أصبح من دخوله فى شرائع الاجتماع الفاسد كأنه بعض الشرائع، فاستكان إليه ضعفاء الناس وأقبلوا يخربون بيوتهم بأيديهم... ولعل حكمة تحريم الربا فى الإسلام أنه فى الأكثر أكل لبقية الفقير وانتفاع باضطراره وإرهاق له بمضاعفة الحاجة عليه، وهى كلها أدوات قتل اجتماعي!

الريح... بعد قبض الربح، واستقبال الأبواب والجدران، وبعد استقبال الأصحاب والجيران، وهلّم من هذا الباب الذى يُفتح من جهة الغنى على سائر الجهات الثلاث للحياة البائسة: وهى الفقر، والمذلة، والألم، وإنما هو رجل ككل رجال المال متى خرج المال من يد أحدهم خرج اسمه من أفواه الناس وخرج حبه من قلوبهم، ويكون من أهل السعادة لو خرج هو أيضًا من الدنيا...

قتِل الإنسانُ ما أكفره! لو أنّ غنيًّا فقد جبلا من الذهب وأصاب رغيفا يتبلّغُ به لكان ذلك أيسرَ فى مذهب الإنسانية من أن يذهبَ البائسُ المُعْدِم فيتكففَ الأبواب ويَستكِف الناس[1] ثم لا يتخلص منهم رغيفا يُمسِكُ به الرَّمق على نفسه ويُقيم منه بابا حاجزا يمنع الجوعَ أن يُدِخلَ إليه الموتَ وأن يُخرج منه الروح؛ ولكن مصيبة الإنسانية فى أهلها أن الله لم يخلق إلا صنفا واحدا من الناس، على أن كلَّ إنسان يظن أنه ذلك الصنف الواحد... فالغنىُ إذا تصوَّر الفقر وهو لا يزال فى غناه؛ لا يتوهَّم إلا اختلاف نظام الأقدار، واضطراب حركتى الليل والنهار، بعد أن يهوىَ كوكبُ سعده الذى يُسَلكُ من كل ذَّرةٍ فى أشعته دينار... وهو لا يرى بهذا الفقر إلا أن نقمة هابطة من السماء ولعنةً صاعدة من الأرض قد التقتا عند رأسه الشامخ فى جوّ كبريائه فاصطدمتا به فإذا هو مُكب لليدين وللفم عند أقدام الناس وإذا هوفقير!

هذا هو الفقر فى أوهامهم؛ ولكن لا تنسَ أنه فقرهم فقط... فقرُ المال المترابطِ فى مكانه إو الذاهب فى حلوق الأرض[2] وبين أضلاعها، أما سائر الناس فهم عند هؤلاء أهلُ باطل ودعوى، يُزَنُّون بكل ريبَة؛ ويُقرَفون بكل

(١) استكف: مد كفه للسؤال، وتكفف الأبواب: إذا وقف بها سائلا.

(٢) أى مضايقها ومجاريها وأوديتها، والكناية بالأضلاع عما بقى من مسالك الأمم.

تهمة[1]، إذ ينتحلون الفقرَ ويَّدعونه ليُعادوا نعمةَ الغنى بالحسد فالجوع فقر، والمرض فقر، والتعب فقر، والضجر فقر؛ واشتهاءُ ما ليس لهم فقر، وقلةُ الأصحاب فقر، وحتى ولو أن أحدهمَ سخِطَتْهُ زوَجه لنسب ذلك إلى الفقر، وبالجملة فكونُهم ليسوا كالأغنياء هو الفقر.

فإذا كان الفقر كلَّ شيء عند هؤلاء الحمقى فما هو الشيء الذى يسمى الفقر؟

من أجل ذلك يا بنىّ ترى الأغنياءَ يخشون من الفقر على أنفسهم وهم أنفُسهُم لا يخشون منه على الفقير، لأن هذا الفقير فى رأيهم قد أصبح شخصا آخر لا صِلةَ لهم به ولا عَهدَ، فهو يكذبُ على الحوادثِ والحوادثُ تكذب عليه؛ وجزاءُ سيِّئة سيئةٌ مثلُها، فإذا انخدَعوا له فبمقدار ما يتعجبون من سخافته، وإذا أعطوه كان العطاءُ سخيفا بمقدار ما ينخدعون، وينظرون لأثر الله عليه ولكن لأثره على نفسه؛ إذ الحقوق عندهم حقوق إنسانية، فهيهاتَ يَختَلِجُ فى نفس أحدهم أنْ لو شاء الله لوضعه فى ثياب هذا الفقير ولوضع الفقيرَ فى ثيابه.

أتردُّ مثل هذا الغنىَّ الجِلفِ المتسكِّع إلى الدين؟ إنه هو فى نفسه دينٌ وشريعة أيضا... أتُبَصِّره بالإنسانية؟ فمن إذن ويلك إن لم يكن من صمم هذه الإنسانية وعينَ أهلها بل إنسانَ هذه العين! أما الحق فاذكر بربك أموالهَ تعلم أن "الحق فى يده"... هكذا هكذا يُعطى المالُ أهله حتى فضائلَ غيرهم، ويسلبُ الفقرُ أهلَه حتى محاسن أنفسهم؛ وهكذا لا تجدُ المال أبدا إلا نعمةً ناقصةً، ولن تتم هذه النعمةُ إلا رُزِقَ الإنسانُ مع الغنىِ أخلاقا تكفيه شرَّ الغنى؛ ومن أجل هذا كان من

---

(1) يزن ويقرف: بمعنى يرمى ويتهم

الأمور الطبيعية أن تجد العقل فى إنفاق المال أشدّ ارتباكا منه فى جمع المال"[1].

قال "الشيخ على": ولابد من صِلَة معنوية بين جميع الناس على ما يكونُ بين الإنسان والإنسانِ من التبائن والاختلاف فى كل شىء، حتى بين الأخوين تُلِدهما الأمُّ الواحدة؛ وهما مهما اتفقا فى الحياة ومظاهرها فإنهما لابد مفترقان افتراقَ الثَّدْيين اللذين ارتضعا منهما الحياة؛ فما عسى أن تكون هذه الصلةُ العامةُ بين الناس؟ تقول الشرائع إن الصلة التى تجمع الناس بعضَهم ببعض هى العدل! وتقول العلومُ إنها العقل، وتقول الآداب إنها شىء من العدل والعقل يُكوِّن الإنسانية فى الضمير، وتقول الحياة إنها سببُ الإنسانية وهو الرحمة؛ ثم يُرْعَدُ صوتٌ إلهى يَقْصِفُ من جهة السماء التى هى مصدرُ العقل والعدل والإنسانية والرحمة فيصيح بكل ما فى هذه الأشياء من القوّة ويقول: كلا! بل هو سببُ الرحمة ومظهرُ الإنسانية، وكمالُ العقل، وفضيلةُ العدل، وهو الفقر!

من الذى وُلِد وفى يده قطعة من الذهب؟ ومن الذى مات فى يده "تحويلٌ" على الآخـرة"[2]؟ لقد وَسِعَت الخرافاتُ كلَّ شىء إلا هذا؛ فما لنا نتحد فى البدءِ والنهاية ثم نختلفُ فى الوسط؟ ذلك لأن بدءنا من طريق الله ونهايتنا فى طريق الله، ولكن الوسط مَدْرَجةُ بيوتنا ومصانعنا وحوانيتنا، وبكلمةٍ واحدةٍ هو طريق بعضنا إلى بعض... وحينما التقى الإنسانُ بالإنسان فإما أن تلتقى المنفعةُ بالمنفعة وإلا فالمنفعةُ بالمضرة، فلا بد من انتفاع أحدهما أو كليهما؛ ومن ثَمَّ يقول البخلاء: ما الذى ننتفع به من رحمة الفقير؟ وماله يريد أن تَتَحَيَّفَنَا كأنه رُوحُ الجدبِ، وأن

(1) ولهذا صار مبدأ حكماء الأغنياء أن يحسنوا بكل أموالهم على الإنسانية ليخرجوا من الدنيا فقراء كما دخلوها.

(2) المعني كما هو ظاهر تحويل واجب الدفع...

يَتعَرَّفنا كأنه رُوحُ المرض؟[1] وماله يُريدنا على أن نُسىء من أجله المسّ فى أموالنا كأنه روح الافلاس؟ أو لا يكفيه أننا لا نَرْزَؤه شيئا، وأننا نُفْضلُ عليه فنعتدُّ الدرهم الذى نمسِكه عنه كأنه درهم أخذناه منه، وبذلك لا يضرنا ولا ننفعه بشىء، ومن الجهة الأخرى لهذا القياس يكون قد نفعنا ونفعناه بلا شىء...؟

قاتَل الله البخل وقَبحه، فما هو إلا حِرص على المنفعة يشبه عبادة الوثنيين لكل ما توهموا فيه المنفعة؛ وإن كان للحواس نوع من الكفر بالله فكفرُ اليدِ فى إمساكها؛ وإن الله لرحيم إذ لم يعاقب البخلاءَ بما يعاقبون به الناس، فليس بين كل بخيل وبين الهلاك إلا أن ينقل الله "الإمساك" من يده إلى جوفه!.. على أنّ البخل إذا لم يكن بقيةً من الوثنية القديمة بعينها فهو على كل حال نقص من الإيمان، لأن الله وعد المحسنين والمتصدّقين ثواب ما أنفقوا مكافأةً على فضيلة الاحسان التى هى فى الحقيقة فضيلةُ الاحساس، ثم أن يُخْلفَ عليهم ما أنفقوه أضعافا مضاعفة؛ إذ المحسن لا يجود بدراهمه على الله ولكنه يُقرِضه إياها قرضًا حسنًا متى وضعها فى يد الانسانية الفقيرة؛ فمن أمسك عن الاحسان بخلا فإنما يشكُّ فى وعد الله، وإلا ففى قدرة الله، وإلا ففى الله نفسِه؛ فأكبر البخل عند أكبر الكفر وأصغرهُ عنده أصغره، ويوم يخرج الايمان من قلوب الأغنياء تخرج أرواح الفقراء من أجسامهم فيموتون بالجوع وبالعُرْى وبالمرض وغيرها من أسباب الموت، وكلها مظاهر متعدّدة لسبب واحد هو فى الحقيقة كفر الأغنياء كفرًا فى الضمير لا كفرًا فى اللسان.

(1) تحيفتهم السنة: أي الجدب، إذا نقصتهم وجارت عليهم، وتعرق العظم إذا لم يبق عليه شيئا من اللحم.

ومن هنا يا بنى لا تجد الفقير فى أى عصر من العصور إلا جهة من الخلل فى نظام الاجتماع الانسانى، كما أنّ البخل جهة من الخلل فى نظام النفس الانسانية، والفراغ الذى يجده الفقير فى بيته إنما هو موضع النعمة الضرورية التى بخِل بها لغنى، وهو فى الحقيقة موضع التفكِك أو الكسرِ فى الآلة التى تديرها شريعة الاجتماع.

الإنسان إنماً خلق اجتماعيا، وهو بشخصه لا قيمةَ له ولا منفعةً إلا حيث يكون شخصُه جزءا من مجموع، لأنّ اليد الواحدة فى الجسم ولو كانت يَد مَلِكٍ وكان فيها زمام العالَم فإنها لا يفارُقها عيبُ أختها المقطوعة.

وكلُّ خلل فى النظام الاجتماعى فإنما مرَدُه إلى طغيان بعض الأفراد وجُنوحهم إلى أن تكون شخصية الواحد منهم من الكبرِ والعظمة بحيث توازن المجموع كلَّه أو أكثر المجموع: إنّ هذه الموازنة الفردية متى اتفقت كانت إخلالا بالموازنة الاجتماعية، لأنها تجعل كل حركة من هذا الفرد زلزلة فى المجموع، كالثقُل فى إحدى كفَّتى الميزان. إن خفَّ سقطت الكِفَّة الأخرى وإن ثقُل شالت، وهو السقوط إلى فوق!...

والموازنة الاجتماعية لا تتهيأ إلا إذا تطبعت قوى المجموع[1] فاندفقت فى تيار واحد إلى جهة معينة؛ ولكن الموازنة الفردية لا تستقيم إلا إذا جاءت من عكس هذه الجهة، فتصدُّ قوةَ المجموع وتبقى دائمًا ذات قوة على صدِّها من الغلَبة، فإن ضعف خصمه يعطيه منها أكثر مما تعطيه قوة نفسه، ولا يكون ضَعف المجموع إلا من حصر الشخص العظيم قوةَ عقله ونفسه وضميره فى هذا السبيل الفرديّ، لتكون منه الشخصية الهائلة التى تشبه ما كان فى تاريخ الوثنية من شخصيات الآلهة وأنصاف الآلهة.

وقد اضطُر الناس لذلك من عهد اجتماعهم فى نظام أو شريعة إلى

(١) من قولهم: تطبع النهر إذا اجتمع ماؤه وعلا فاندفق أو كاد

ابتداع الوسائل للتوفيق بين قوة الفرد وقوة المجموع، حتى لا يستشرىَ الداء[1] فى الموازنة الاجتماعية فيفسدها ويوقعَ الخلل فى نظامها، ولكيلا تكونَ خيراتُ المجموع كلها فى مَعِدَة واحدة، وحتى لا يبقى الناسُ أرقاما يعدُّهم الغنىُ المستبد كما يعد دراهمه لأنهم ثروته الحية!

غير أن هذه الوسائل على اختلافها لم تكن ولم تزل إلى عهدنا- عهد الاشتراكية العلمية[2]- إلا ثورات هى مهما كانت فإنها أشبهُ شىء بجموح الحيوان إذ يحمى أنفه فيحمح ثم يسترسل فى جماحه ثم يشتدّ حتى يعتزَّ صاحبه على راسه ويملك نفسه منه، ثم ماذا؟ ثم يسكن مُكرَها بعد أن جمح راضيا، فإن لم يسكنه الألم من صاحبه أسكنه التعب من نفسه؛ لأن التخلصَ من شىء فى فطرة الإنسان وانتزاعه من مغرزه فى نفسه؛ لا يكون بالتخلص من إنسان بعينه.

ومن هذا يا بنى ترى أن الإنسان لا يعيشُ فردا ولكنه حين يموت يموت فردا؛ فإذا رأيت فقيرا منبوذًا من الاجتماع منفردًا عنه، لا يساهمه فى عمله وعيشه، بل كأنه يعيش فى بقعة مجهولة من الحياة، فاعلم أن إهمال ذلك الفقير إنما هو نوع من القتل الاجتماعى.

ههنا قاتل ومقتول: لم يأخذ القاتل بحق من الحقوق ولا ثأر لنفسه ولا قتل بيده، أما المقتول فإنه لم يُقتَل فى إثم اجترحه ولا هو على جنى

---

(١) استشرى الداء: إذا سرى فى الجسم.

(٢) ليس فى الوسائل الاجتماعية كلها ما يعدل نظام الزكاة فى الإسلام، وفى هذا الدين الإسلامى العظيم أصول إنسانية عامة لابد أن تتنبه لها الأمم فتكون سببا فى إقبالها عليه وظهوره على الدين كله، ومن هذه الأصول الزكاة، فلو أنه أخذ ربع العشر اثنان ونصف فى المائة، من ثروة العالم بأجمعه كل سنة وجعل فى مصالح الفقراء لأصلح الفقر والغنى معا، ولكن الاشتراكية تحاول محق الربا بمحق رأس المال وتعمى عن نظام الزكاة وهذا من شرها.

نفسه الضعف الذى أرهقه وبلغ منه حتى جعل إهمالَ القوى إياه كأنهُ حكمٌ عليه بالقتل، فتُرى على من تكون هذه التبِعة، وهى بالتحقيق ليست على القويّ لقوته ولا على الضعيف لضعفه؟

هناك اثنان رجل فى الماء وآخر على الشاطىء؛ فأما الذى فى الماء فليس بينه وبين الموت غرقا إلا نفس واحدٌ مبتل يَنسل بالماء من حلقه إلى رئتيه وهو يرى بعينه الموتَ دائبًا فى حفر قبره المائى، فليس الموُج الذى يَتكفأ به ويتناثر من حوليهِ إلا ما تُثيرُه يدُ جبار الموت من غبار ذلك القبر وتحثوه فى وجهه بنزف وغضب، بعيدٌ عن الأحياء حتى بَعد عن أن يكون له قبر بينهم ولا صلةَ بينه وبين الحياة الأرضية إلا نظراتُ ذلك الرجلِ القوى الذى يتراءى فى عين الغريق كأنه صخرة راسية على الشاطىء لها قوة وليس لها إرادة؛ ولكن هذا الذى يشعر بصلابة الأرض تحت قدميه ويُحسُّ القوةَ من يده وعضلاته، يشعر أيضا بمعنى من الصلابة فى قلبه وقد جاء إلى الشاطىء ليتنفس من تلك النسمات التى يتنهَّد بها صدُر السماء فتكون أرواحا للأمواج تبعث فيها حركة الحياة. ماله ولهذا المنظر؟ سواد يطفوا على الماء كأنهِ هِنة من المتاع الخَلَق أو حذاء قديم أو ريش تحسر عن طائره[1]، أو رأسُ رجل يغرق؛ وما دفعه بيده إلى الماء فيكونَ حقا عليه أن يستنقِذَّه، ولا كان الغوُص من صناعته فيعتمِلَ فى إخراجه ليُخرج معه أجر عمله، وهو قوى ولكنه قوى لنفسه لا للضعفاء، وقد جاء ليُروِّحَ عن نفسه، وإنقاذُ الغريق عمل آخر وربما أنشبَه فى حلق الموت... أخَذَ فيما جاء له ومازالَ يموتُ فى جلده ويتنفَّسُ ملءَ صدرِه من الهواء ومن زَفرات الإنسانية التى تنشق لها غيظا، ومن لعنات ذلك الغريق الذى بَدَأت حياتُه تذوبُ كما يَنْمَاثُ فى الماء[2] حتى آنَ له أن

(١) أى سقط وتناثر.

(٢) إنماث الملح فى الماء. ذاب.

ينصرفَ وترك الرجلَ يغرق وهو يقول: لا بأس أن ينقصَ عددُ أهل الأرض واحدا فهم كثيرا...

تُرى على من تكون هذه التَّبِعةُ أيضا؟

إذا أردتم أيها الناس أن تعرفوا فإنكم تستطيعون أن تُحقّقوه بدون أن تكونوا شُرَطة[1] أو قضاة أو أهل قانون أورجالَ فلسفة، ولكن بأن تكونوا من ذوى الإنسانية فقط؛ فإن الإنسانية لا ترى فى الأرض إلا الضمائر وما هذه الأجسامُ إلا أدوات صناعية ركبت هذا التركيبَ لتُصلح لحياة الضمير؛ فالرجل قد مضى برىءَ اليد برىءَ القوه؛ برىءَ العقل؛ إذ هو لم يقتل، ولم يجن على القتيل، ولم يَحتلْ لقتله؛ ولكن الإنسانيةَ حين تنادى الضمائر بأوصافها فتقول: أيُّها الطيبُ، وأيها الكريمُ. وأيها الشقى السافلُ، تصيح بضمير هذا الرجل قائلة: أيها القاتل:

إذا لم يُقرَّ الأغنياء لأنفسهم بالضمائر ولمْ يلحقوا بها التَّبِعاتِ التى تناسبها فهل هم فى ذلك إلا كالمجانين لا تُقِرُّ لهم الشرائعُ بالعقول وتُخْليهم من تبعَةِ ما يَجْنون على العقلاء لأنهم مجانين؟... وكيف ترى ذلك الغنىَّ الّفظَّ الذى يَهِرّ فى وجوه الفقراء ويُزمْجِرُ عليهم كأنه ينبحهم بلغةٍ من لغة الكلاب... ولا يفتأ يقذفُهم بالألفاظ الجاسية المؤلمةِ كما يقذف المجنون بالحجارة... وإذا أعطاهم فإنما يُغطيهم بقضية فارغة... وهو لا يُوَفر أبدا إلا مَن فوقه كأنه لا يرى فى الدنيا كلها أسفلَ من نفسه... ولا يبالى إلا بمن يطمعُ فيه كأنه جالسٌ فى (مكتب أحد المخدِّمين)... وقد تساوى فى الدناءة والكلف بالدنيا وقذارة الطباع ظاهرُهُ وباطنُه كأن ضميره لبِسَهِ مقلوبًا... وصار أمرُ رضاه وغضبِهِ وإحساسِهِ وحَيائه موقوفا على ما يكون من

---

(1) هم رجال البوليس، والواحد شرطى.

أمر المعاملات، كأن أخلاقه ليست فى نفسه ولكنها فى أيدى الناس، أفليس مثل الغنى الدنىء رجلا عاقلا؟

بلى، وإنه لأعقلُ من كل من يمدحه ويُزَكيه ولو كان هذا المُثنِى عليه أكبر علماء الاقتصاد؛ ولكنه على ذلك مجنون الضمير بحيث لا يَعْقِل إلا بحواسِّه!

ولو أنصفت القوانينُ لما لبست مثل هذه الحرية الإنسانية على رذيلتها ولجعلت من نصوصها القاطعة ما يَكفُح مثلَ هذا الغنى[1] ويَتلقاهُ بلجامه، لأنه فى الحقيقة ليس رجلا ولكنه دابَّة اجتماعية!

قال "الشيخ على". ومن بديع حكمة الله أنه وضع للإنسانية أصلا من أصول نظامها فى ضمير الإنسان فترك له أن يقترفَ ما شاء من الإثم والمنكر ولكنه جعله من الإحساس بطبيعة الخير والشر بحيث يكون له من الذنب نفسه العقابُ على الذنب؛ حتى إن شرَّ المجرمين ليَسْتعينُ على مُقارَفة جُرْمه فإقناع الضمير بَدِيًّا[2] وأخذِه بالحجة من هواهُ، فيُخطِر فى نفسه ما يَنزُو بها، كالشجاعة والنَّخوَة؛ أو ما يتوهَّجُ بروح الغضب فى دمه، كالانتقام ونحوه؛ وما يطمئنُ له الضمير فى معنى الجناية، كمُدافعة الضرر وما إليه!

وبالجملة فإن أول ظلمه أن يعتقدَ ظلمَه عدلا أو شبيها بالعدل، حتى لا يلتوىَ عليه أمرُ نفسه إذا خذَله ضميره، فإن اضطراب هذا الضمير يتصل اتصال الكهرباءِ بأيدى المجرمين فإذا هو فيها شلل، وبأرجلهم فإذا هو زَلل وبنظامهم العصبىِّ فإذا هو خَلل، وبعقولهم فإذا هو المس والخبل، وإذا لم يفلح الجانى فى إقناع ضميره أو التلبيسِ

(١) كفح الدابة: إذا تلقى فاها باللجام.

(٢) فى بدء الأمر.

عليه تخلّص منه ففصل بينه وبين العقل بالسكْر وما هو فى حكمه حتى لا يَشهدَ من أمره شيئا.

أفلا تجد فى تخدير أكثر المجرمين لضمائرهم ساعة الجناية دليلا على أن الضمير الذى يشهدُ الذنبَ إنما يتلقى العقابَ عليه؟ ولماذا تَدفع الجريمة إلى الجريمة غالبا؟ أليس ذلك لأنها إنما تقتضى عقابها الطبيعى؟

ثم ماذا يكون بعد أن تضرب الشقىُّ تلك الحاسَّةَ الروحية التى نسميها الضمير ويرميها بالشلل- إنه ينحطُّ درجة واحدة، ولكنها درجة الضمير التى لوجازها الحيوان لصار إنسانًا، ولو نزل عنها الإنسان لعاد حيوانًا، فلا يبقى فيه من ثَمَّ إلا الفطرة الحيوانيةُ التى تجعل عقلَ الحيوان مرة فى القوة ومرة فى الضَّعف، فإن أحسَّ القوةَ على خصمه كان العقل فى الظلم بكل ضُروبه وأشكالِه، وأبَى هذا العقل الحيوانىُّ أن يَترخصَ فى شىء[1] هو من حقه بالقوة،وإن أحس من نفسه العجزَ والضعفَ وراى أن لا قبل له بخصمه فكفى باتقاء الظلم عقلا...

يا بنىَّ! إن أفقر الفقراء ليس هو الذى لا يجد غذاءَ بطنه، ولكنه الذى لا يستطيع أن يجد غذاء شعوره فلا تحسبن أن مع جنون الضمير وجفوته ومرضه سعادةً وراحة، لأن لذة المال لا تتجاوز الحواسَّ الظاهرة فهو يبتاع لها كل شىء مما تشتهى ولكنه لا يستطيع أن يُنيل القلبَ شيئا إلا إذا جاءه بالخير والفضيلة.

والغنىّ الذى يمنع الفقراءَ ما له يزيد فيه ولوْ حكما بمقدار ما يمنع، بضعةَ دراهم، أو بضعة دنانير، ولكنه يزيد ضميرَه جفاءَ بالقسوة والغلظة ونسيان الفضيلة؛ ولا يزال على ذلك حتى يمرّ به يوم يفقدُ فيه ضميره كل شعور بالخير فيفقد معه كلَّ شعور بلذة النفس التى هى أقربُ المعانى إلى معنى السعادة...

---

(1) ترخص فى حقه: إذا أخذ ما طف له ولم يستقص.

... ويومئذ لو اشترى كلٌّ لذات الدنيا بمالِه ما زادته إلا ألما من الضجر وضجرا من الألم، لأنه فقد قوةً من ضميره تقابل القوةَ التى يفقدها المريضُ من مَعِدته.

فلينظر الفقيرُ الجائعُ وقد أخذه كلبُ الجوع وسطع فى عينيه وَهجُه ودارت به مَعِدتُه ذات اليمين وذات الشمال- إلى رجل غنى ممعود[1] فى كفه معنى الحياة وفى جوفه معنى الموت؛ وقد ابتاع مما تشتهيه معدة خياله التى لا تشبع لأنها لا تنالُ شيئا، وأسرف بالمال فى ذلك حتى استجمع الكثير الطيب، ثم انقلب إلى داره بعين من ذلك الذئب تكاد أشعتُها تُنْضِج الغذاءَ من حَرِّ نظراتها إليه.

... سلوا صاحبنا الفقير يَقُل لكم أىُّ لذة ياقوم تكون فى غير هذا الطعام يُقتل به داءُ البطن[2] وتنفتق عليه الخواصرُ شبعًا وسِمْنة. وهل هذه إلا رؤح مائدة من موائد الجنة فيها ما تشتهى الأنفس وتَقَرُّ الأعين؟ ثم سَلو المعمود المسكين يقل لكم وهو صادق صِدقا يتمنى بما ملكت يداه من الدنيا لو أنه كذِب، يقل لكم: تالله ما أجدُ فى هذا كله ولا فى بعضِه من لذة ولا سعادة، ولو أبَحْتُه جوفى لكان الموت بعينه!

إذن فلابد فى كل شىء إنسانى من حقيقة باطنة فى نفس الإنسان تعطيه بصحتها أو مرضها قوة اللذة أو الألم؛ وبهذا يقضى العدل الإلهىُّ كل ذى حق حقه بالنَّصَفة والسوِيَّة، لا فرق بين الغنىّ فى غناه وبين الفقير فى فقره، فلكل منهما لذة وألم؛ ولعلنا لو سألنا أغنى الناس عما هى لذة الغنى لرأيناه فى حقيقة التعاسة النفسية كأفقر الناس إذا أجابنا عما هو أَلَم الفقر.

---

(١) مريض المعدة.

(٢) داء البطن هو الجوع.

وقد فُطر أكثر الخلق- لطبيعة الخوف المتمكنة منهم- على أن يتسعوا فى فهم الآفات وحدها، حتى صار الوهم الخيالى أكبر الآفات الحقيقية، فالفقير الذى لا يفهم حقيقة الفقر يتألم بإدراك ووهم وفلسفه، إذ يقيس حاضره على ماضيه وعلى ماضى غيره من الفقراء، ويقيس مستقبله على حاضر الأغنياء ومن فى حكمهم فقط، وبهذا يكون ألمه عملا عقليًا فى شىء موهوم، فما دام يتمنى أكثرَ مما يستحق فهو يتألم بأكثر مما يستحق؛ ولو تأمل الناس لرأوا أن نصفَ الفقر فقر كاذب؛ فآه لو كان مع ضعف الفقر قوة الإرادة! إذن لوجد الحكماء فى الأرض شيئًا حقيقيًا يسمونه الغنى.

أيها الناس، إن الفصل بين الغنى والفقر من الأمور التى تتعلق بالضمير وحده ورُبَّ غِنى يزيد أهله بالحرص والدناءة فقرا، فانظروا فيهما فأفكار إلهية لا تطلب إلا الفضيلة التى يمكن أن تكون بلا ثمن، ولا يمكن أن يكون شىء ثمنًا لها، انظروا إلى بعض الأغنياء الذين تموت فى قلوبهم كلُّ موعظة إنسانية أو إلهية فلا تُثمر شيئًا حتى إذا ماتوا نَبتت كلها من تراب قبورهم فأثمرت لنفوس المساكين والفقراء عزاء وسَلوة وموعظة من زوال الدنيا، انظروا! بعين الحقيقة التى تعطى هذه الطبيعة النظر فتعطيها محاسنُ الطبيعة الفكر.

انظروا فى باطن الإنسان بالفضيلة التى هى نور الله، وبالحقيقة التى هى من نور الطبيعة، فإنكم لا ترون حقيقة الغنى تبتعد عن حقيقة الفقر إلا بمقدار شبر واحد، هو مِلءُ هذه المعدة!

مِسكينة! مِسكينة!

قال "الشيخ على" واسمع الآن يا بنيّ ما أقص عليك، فإنى محدّثك بخبر ليتنى ما علمته بل ليتنى إذ علمتُه ما وعيته، وليتنى إذ وعيته ما أثبته ولا نفذت فيه كما نفذ فيّ.

ولكن الحياة كما تقضى علينا أن نشهد أموات الأحياء ونحملهم إلى أبواب الآخرة من تلك الحفر، تقضى علينا كذلك أن نشهد أحياءَ الأموات من أهل الرذائل ونحمل من أخبار ضمائرها الميتة إلى أبواب السماء فى أنفسنا!

فواها لكِ أيتها الحياة الدنيا! تقتلين بالشر وتجرحين بأخباره ولا تُؤتين عسل الحكمة إلا بعد لسع كثير... وقد علمنا أن كل شىء يسير فإنما هو يذهب فى طريق يتهدّى أو يعتسف[1] وكأن الأسفَ على أهل الشر لم يجد له طريقًا فى هذه الحياة إلا من ضمائر أهل الخير، وبهذا يضرب الشرُّ أهله وغير أهله.

كانت لنا يا بنيّ فى هذه القرية النضرة فتاة بائسة ضاق بها العريض من هذا البَر فجرجت إلى بعض المدن تستطعم الحياةَ، فحدثتنى أنها استضاقت حتى كأنما كانت تنفذ إلى رزقها من شِق فى صخرة فى غار فى جبل، ثم استضاقت فكأنما ولِجَت هذا الغار فانحدرت تلك الصخرة فسدّت عليها فلا وراء ولا أمام وأعجزها حتى المعاش الملفق[2].

---

(١) على هدى أو غير هدى.

(٢) الذى يكون تلفيقا من هنا وهنا فلا يستقيم ولا يطرد.

وخرجت يوما على الناس وكأنها لقذارتها قطعة من الحياة البالية مدرجة فى بعض الأطمار، أو روح من الهواء تمشى ساكنة فى أردية من الغبار، وما تحصى العين تلك البقعَ المنتشرةَ فى ثيابها، كأنها أرقام للفقر يعدُّ بها ليالىَ عذابها، وهى عَلمَ اللّه بقع، أشأَم منها أنها فى رُقع، وقد اغبرَّ شعرها الفاحم وتلبد، فكأنه بعض ما وقع على رأسها من حظها الأسود، ولاح من تحته وجه كالدينار الزائف فى صُفرته وردَّه، وكالقمر الممحوقِ فى استطالته تحت الظلامِ ومدّة: وهى فتاة عليلة قد أخذ السقام من حجمها كما أطفأت الأقدار من نجمها، وخفَى من المرض فى صدرها، أكثر مما خفى بين الناس من قدرها وما تعرف من أسماء الأموات والأحياء غير أسماء أهلها ولا تملك من الأرض كلّها أكثرَ من غبار نعلها، وقد خرجت تتحامل فكلما خافتت فى مشيها قليلا خافتِ العِثار، فاستندت إلى جدار، فإذا رابت ثم رأيت صورةَ البؤس ولكن فى غير إطار[1].

وإنها لتمشى وكأن ليس فيها دم ينتهى إلى قدميها فهى تجرهما جرا وتقتلِعهما بين الخطوة والخطوة وما تدرى من الألم أهما على الأرض أم فى الأرض تسوخان؟ وقد تزابلت أعضاؤها فما تُحسُّ أن فيها حياة متماسكة وهى ما فتئت تحسب أن جسمها قد خُلق نعشا لقلبها فلا هذا القلب يحيا كما تحيا القلوب ولا ذلك فى الجسم ينمو كما ينمو الأجسام!

وفى رأسها عقل زاد فضلُ اللّه ورحمتُه فى جهة منه ونقصَ عنفُ الناس وقسوتهم من جهة أخرى، فبينا هى على ذلك تحمد اللّه، إذا هى مع ذلك تلعن الناس؛ وهى مرة تنظر إلى الحياة فترى كل شىء فى الحياة إلا نفسها، ومرة تنظر إلى الموت فلا ترى فى الموت شيئًا إلا نفسها، ولم يكن

---

(1) هو ما يحيط بالصورة توضع فيه، ويسميه العامة «البرواز».

يُمسك روَحها بين الاثنين إلا خَيطان : أحدهما من السماء وهو الأملُ فى رحمة الله والآخرُ من الأرض وهو إشفاقُها على جثتها التى كانت تكدح منذ الصغرِ لقوتها، تلك الجدة الفانية التى كَبِرت وبلغت من الكبِر حتى حسبْتها الفتاةُ قد كبرت سن الموت[1].

أما الآن فقد تبين لها الخيط الأبيضُ من الخيط الأسود، وانصدعت حفرة جدتها المسكينة ولم يبق لها إلا رحمة الله.

قال "الشيخ على": وكان خروج هذه البائسة أصيلَ يوم من أيام الصيف ذهبت فيه طاوية على الجوع كما تغدو الطيورُ من وكناتِها[2] وملءُ بطونها هواء، غير أن الطيورَ تهزأ بالناس جميعًا وهى على ضَعفها أقوى من الشرائع والقوانين، إذ تنبعثُ وكأن كل طائر منها إرادة متجسمة تَقذِفُ بها السماءُ فما تبالى على أى أرض تقع ومن أىّ حَبّ تلتقط، ولا تعرف إلا أن هذا الإنسان يعمل على السُّخْرة ليُخرجَ لها من الأرض رزقَها رَغدا...

... أما الفتاة فكل الناس يهزأ بها، وهى ترى كلَّ إنسان على مِلكه كأنه قانون وُضع لعقابها إذا حدّثتْها النفس حديثا، فقد بلغت من الضعف والمرض والفاقة إلى حالٍ لا تجعل يديها تصلحان لعمل غيرِ الأخذ؛ فإن اختلست قيل سارقة فعوقبت، وإن سألت قيل متشردة فكذلك؛ ويأليت فى قلب هذا الإنسان من معانى الصفح بعض ما فى لسانه من ألفاظ القِصاص، ولكنه حيوان متكلم فتنصرفُ فطرتُه الحيوانية أكثر ما تنصرف إلى لسانه كما تتمثلُ هذه الفطرة من سائر الحيوانات فى حواسِّها التى تبطُشُ بها، وكِلا النوعين سواء فى الافتراس والكَلَب والتوحش، فما

(١) كبر(بضم الباء): عظم(وبكسرها): طعن فى السن.

(٢) الوكنة كالوكن (بسكون الكاف): عش الطائر.

اللسان إلا حاسة البطش العاقلة... وقلّما يؤذى الإنسان قبل أن يؤذىَ بهذا اللسان.

ولم ترَ المسكينة أزْوَحَ لنفسها المكدودة من الانتحار، وكأنما يُخالُ لها أن فى الموت عيشا، فجرجت تمشى بين الناس إلى قبرها كأنها فيهم جنازة وهم يشيِّعونها؛ ولئن كانت لم تُسَرَّ بالحياة فلقد سرها أن ترى تشييع جنازتها وهى حية تموت، ولا أقول وهى حية تُرزق؛ فإن العلة النازلة بها قد أخذت عليها مذاهبَ الرزق حتى لم تترك لها فى الناس "وجها"، وقبضتْ عنها الأيدى إلا تلك اليدَ الواحدة التى تأخذ دائما ولا تعطى أبدا وهى يد الموت!

وإنها لتنفتِل وتلتوى على أحشائها من رجفةِ الجوع، وما تأخذ عينُها من الناس إلا من يَحمِلُ بطنَه حملا من شِبع وريّ؛ فكان نظرُها إلى الناس أمضَّ عليها من الفكر فى نفسها، وكأنها تُقَتَلُ من جهتين.

وكذلك أخذتْ سمْتَها إلى طرق النهر، وأمْضت نيتها على الموت غرَقا، لتموتَ نظيفة، وتكون لنفسها غاسلة، وتُرسلَ روحها المتألمة إلى السماء فى دموع السماء!

ومشت تتساقط كأن الجوعَ والمرضَ يهدمان منها فى كل عَثرةٍ رُكنا؛ أو كأنه كتِب على كل بائس أن يموتَ فى طريقه إلى الموت؛ وهى تَنتهضُ من كل عثرة إلى أشدْ منها كما تتخطى العنكبوتُ فى نسجها من خيط واهن يكاد ينقطع إلى خيط أوهنَ منه؛ وقد اجتمعت روُحها فى عينيها فهى تسيلُ على نظَراتها الشاردة، وكلما امتدَّ بها المسيرُ قصُرَتْ مسافة النظر حتى توهمتْ أن الموت باديء من عينيها؛ وإنها لكذلك إذ لمَحَها طفلٌ قرويٌ قد انقلب من المدينة إلى الضاحية التى غادر فيها أمه العمياءَ،

وكانَ يعتملُ طِوَال يومه فى بعض من المصانع أو هو يحملُ طعامها الذى لم ينله إلاَّ ببيع نفسه يوما كاملا، على أن المسكين لا يُحسُّ من الذل أنه اشترى نفسهُ بمقدار ما يُحس من العِزَّة أنه ابتاع إداما ورغيفين وقطعة من الحلوى.

قال الشيخ على: وبَصُرَ هذا الطفلُ بالفتاة، وأدرك أن روحَها تخطو فى أنفاسها، وأنه الجوعُ لا غيرُ وهو من أبنائِه، طالما شَدّ عليهِ حتى انطوى، ولانَ لغَمَزاتِه حتى التوى، وما يعرفُ أنهُ ابنُ أبيه وأمه، أكثر مما يعرف أنه ابن فقرهِ وهمه، فابتدر[1] إلى المسكينة، وكانت حركة الحياة فيها أسرع من حركة أضراسها فى طعامهِ، ثم ذهب لا يعرفُ ما صَنَعَ، لأنه طفل؟ أو لأنه فقير؟ لا أدرى!

غير أنى أعرفُ أنه لا يَسْلَم من لؤم النفسِ فى صنعة المعروف وتطويل المن به وتعريض الحديث فيه إلاَّ الأطفالُ وإلا الفقراءُ، أولئك لأنهم لا يستكثرون الخيرَ، وهؤلاء لأن الخير منهم غيرُ كثير.

وانطلق الطفلُ وهو يلوى رأسهُ ويفكر فى أىّ خدّيه تقعُ عليهِ اللطمة الأولى من أمّه، لأنها لا محالة مُتَوَعِّرةٌ به[2]، ستحسبُهُ اقترفَ إثما فطُرِدَ من علمه، وانقطعت به طريقُ أمله وإلى أن يأتىَ اللّه بالصبا الذى يُنير بُرَهانه، ويُثبتُ لها إحسانَه، يكوت هذا الليل، قد صبَّ عليه الويَل، وهكذا جعل يُشهد على ما سيلقاهُ فى سبيل الخير، بدلاً من أن يُشهد الناس على ما لقى غيرهُ منه فى هذا السبيل من إحسانهِ وإيثارهِ، لأنه طفل؟ أو لأنه فقير؟ لا أدرى!

---

(١) أى عجل إليها.

(٢) أى متشددة فى معاملته كما يقولون.

أما الفتاةُ فأرسلت فى أثره حية ولم تجْزِهِ غيرها، بل جعلت جزاءَ عملهِ من عملهِ نفسِه، لأن ثرثرةَ الفقراء فى الشكر على المعروف كهَذيَان الأغنياء فى التَّبسُّط على المنّ به: كلاهما لا يكونُ إلا من خُبْث أولؤم، هى فتاةٌ أقدمتْ على الموت ولم تُقْدِم على السرقة، وإنها لتَعلم أن من أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعًا، ولكنها رأت الطفل غيرَ أهل لأن يعرفَ موقعَ إحسانهِ من نفسها، لأنه طفل؟ أو لأنه فقير؟ لا أدرى!

ولما أمسكتْ عليها النفسَ وراجَعَت الحياةَ بدالها فيما اعتزَمته من الانتحار، فترددتْ وجعلت تُساوِرُها الظنونُ، وخُلق لها من مَعِدتها عقلٌ جديد يُبصِّرها فرقَ ما بين الجوع والشِّبع، وكذلك تَعْرِضُ لبعض الناس حالات من الحرص يعقلون فيها ببطونهم، حتى إن أحدهم لو تحَسَّسَ رأسه وهو يفكرٌ لحسبه بطنا صغيرًا من العظم... فأنشأتِ الفتاةُ تستقيم على طريقها وهى تُؤَامرُ نفسها على الحياة والموت، وقد بدأت تهضم فى معدتها الطعامَ والعزيمة جميعا، ومات الذى كان بينها وبين الموت!

وبينا هى تسير نظرت فى عَرِض الطريق سيدة لو لبس معنى الغنى لفظًا ما لبسَ غيرَ اسمها، ولو كان للكبرياء رسم ما رأيته غير رسمها، وقد أورثها الغنى ذلك الغرور بنفسها، حتى توهمت أنها فى الأرض أختُ شمسها وبلغت فى النعمة من الحق والبطر، بحيث جعلت نفسها كالسماء متى تعبسَ وجهها استهلت لعناتها كالمطر، وهى من أولئك اللواتى يخرج الغنى معهن فى الطريق لا حارسا ولا منعما ولكن للكيدِ والفتنة، فتنةِ المساكين وكيدِ الحاسدين، فخرجت فى زينتها وكأنها حانوت جوهرى... وهى نصف[1] من النساء ولكنها تتصابى، فكأن فى وسامتها وابتسامتها

(1) هى المرأة بين الحدثة والمسنة، أو التى بلغت خمسا وأربعين أو خمسين سنة.

شَبابَ عشرِ فتياتٍ جميلات!.. وقد ذهبتْ فى أوضاع جسمها مذاهب هندسية بين المستديرِ والمستقيم والمنحنى... حتى ظهرت كأن نصفها من الله ونصفها من الخيَّاطة.. وإذا رأيت جملتها رأيتَ روضة الجمال بألوانها وأزهارها ولكن... مصورة، فإذا انتهيت إلى وجهها رأيتَ للحسن هناك شهادة على الله ولكن... مُزَورة...؛ وعلى الجملة فقد جعلها حسنها المالى فى رأى نفسها كالشرائع: لا جدال فيها إلا من زنديق...

ورأتها الفتاةُ كما تنظر المرأة إلى المرأة بعين جامدة ليس فيها لغة ولا فلسفة ولا شعر، فقالت: يالها سعادة أن تكون هذه "العجوز" لا تتقدم فى عمرها إلى الإمام ولكنها ترجع إلى الوراء، وان تظهرَ بين الناس حسناء وإن كانت من القبح بحيث ذهب نصفُ نهارها فى التحسن، وأن لا تجد من هموم الدنيا أكثر من همّ الألفاظ إن قال الناس غير حسناء أو قالوا غيرُها أحسن منها؛ وياله من شقاء أن تكون هى كما هى وأكون انا كما أنا!

ثم رمتْ بعينيها إلى السماء وانحرفتْ تُواجهُ تلك السيدة، فما تبيَّنتها هذه وألمَّتْ بما فى نفسها حتى انقبضتْ كأنما أثارت الأرضَ فى وجهها دابةٌ جامحة، وجعلت تنَحاماها وتلوُ ذهنها هنا وههنا وتَحْتَثُّ قدميها كأنها لِقاءَ خطر شديد؛ غير أن الفتاة ملأت عليها الطريقَ بحركاتها فكانت وجهها[1] كيفما أمَّتْ أو انحرفت يَمْنَة أو يَسرة وكأنما تُطاردُها مطاردة!

فلما عَيِتْ السيدةُ بأمرها وغاظ الفقر نعمتها وهاج فُضولُ الفتاة حَنَقها وكبرياءَها، وقفت لها وقفةَ القضاء عابسة الوجه شامخةَ الأنف

(١) أى أمامها، وكيفما أمت: أى استقامت.

يكاد يَستينفضُ الناسَ طَرَفها[1] وتكادُ تميِّزُ من الغيظ، وتدل هيئةُ وجهها على أن وراء شفتيها المرتجفتين كلماتٍ أحدَّ من أنياب الوحش!

فلم تبال الفتاة وبقيت رئتاها واسعتين للهواء[2]؛ إذ ليس بعد الفقر خوفٌ، ودَلَفَتْ إليها باسطة اليد وهى تكاد تُزلقُها ببصرها، حتى إذا وقفت بإزائها خفضت رأسها وقالت:

- سيدتى! أدام اللّه نعمته عليك وهنأكِ هذه النعمة بدوامها!

- هى دائمة، وما أنت والنعمة؟

- سيدتى! وقاك اللّه ما أنا فيه من بأساء الحياة ولا كتب عليك أن تعرفى ما هى!

- فلماذا أنتِ وأمثالكِ فى الحياة إذن أيتها الحمقاء؟ وهل يُكتبُ تاريخ البؤس إلا فى صفحة من مثل هذا الوجه؟

- سيدتى! ألا مَهلا مهلا وانظرى إلىّ ينظر اللّه إليك!

- قد نظر اللّه إليك من قبلى!

- سيدتى! هبينى خادما أحسنتِ إليها!

- فلتكونى خادما طردتُها إن بلغتِ أن تكونى خادما لمثلنا!

- ياويلتا! ألا رحمة فى قلبك فتجودى علىّ بما لا بأس عليك منه؟

- ولماذا أفضلكِ على سائر الفقراء؟ ينبغى أن أجود عليهم جميعًا إذا أنا جُدتُ عليك، ولو فعلتُ لطلبتُ بعد ذلك من يجود علىّ!

---

(١) إذا رأوها أرعدوا من هيبتها.

(٢) إذا اشتدت الهيبة على إنسان ضاق نفسه، ولذلك يقال: ارتفعت رئتاه إلى حلقه: كناية عن الهيبة.

- سيدتى! ألا فاجعلينى من نصيبك فى الإحسان وغيرى من الفقراء له غيرك من الأغنياء، على المُوسع قدَرُه وعلى المقتر قدُره!

- إذًا فكونى أنت من نصيب غيرى ودعى غيرك لى!

- سيدتى! ليس فقرى عن خطأٍ منى وليس غناكِ عن صواب منك، وما الرزقُ يا سيدتى من فضل الحيلة!

- وهل أنا أريد أن أعاقبك فتنتفى من الخطأ؟

- رُحماكِ واتقى الله فى الإنسانية، فلعل فى قصرك الباذخ كلبة جعلتِها أحسنَ حالا منى!

- حينما تصيرين مثلَها فتعالى إلينا ويومئذ تعرفين كيف تطردُ الكلاب!..

قال "الشيخ على": فكبُر ذلك على الفتاة وانتبهت فى نفسها فضيلةُ الفقر وحكمتُه، فرأت أنها تنظر من ضمير تلك السيدة فى مرآة مقلوبة من مَرائى الإنسانية؛ مهما جَهَدت أن تستقيم لها لم تزدها إلاّ مسخا، هنالك غلبتها عيناها وانطلقت وراء دموعها ولم تجد لها عزما.

أما السيدةُ الكريمة- كما يقال- فابتلعت ما بقى فمها من تلك الفلسفة؛ وافتر ثغرتها قليلا عن ابتسامة السخرية، وسرَّها أن يكون فى لسانها كل هذا المنطق... ثم أنغضت رأسها بكبرياء وقالت: "مِسكينة! مِسكينة!" ومرت بعد ذلك لا تلوى وما يخطرُلها إلا أنها نفضت نَعلها...

وسمع الله قولها إذ تجادلُ الفتاة وقد ربَت فى ثيابها من الغيظ وتنفشت كالإسفنج، فأطلق عليها دموعَ البائسة؛ وإن هذه لتأنسُ راحة فى البكاء لم تعهدها من قبلُ فانزوت إلى جانب من طريق وجعلت تبكى، ثم تبكى؛ ثم تبكى؛ حتى لو جُمعت دموعها لغُمرت منها، وقد جمعها الله

وأرصدها من أقداره لتلك الإسفنجة وقضى ربك ألا تُعصرَ بعد اليوم إلا دموعا[1].

كانت للسيدة فتاةٌ كطلعة البدر فى الرابعة عشرة، لا نصفها إلا مرآتها، وهى الدنيا مجموعة فى قصرها، وكأنها فى النعمة مستقبل نفسها وماضى أمها؛ وكانت فى هذه السيدةُ عقيما ولكن شذت معها الطبيعة لأمر أراده الله فوُلدت لها الفتاة وكأنما انشقَّ لها القمر، ولم تذكرها فى نفسها إذ كانت تحاورُ تلك المسكينة بل ذكرت خادمتها وأنفت لهذه الذكرى. ومن شؤم الغنى على أهله أن لا يذكِّرهم فى الشر إلا بأنفسهم، ولا يُنْسيَهم فى الخير إلا أنفسَهم، فلا يعلمون أنّ الفقر أنواع كثيرة. وأنّ الغنى نفسه نوعٌ من الفقر إلى الله، وبذلك ينظرون إلى المساكين تلك النظرة التى لا تخلو من بعض معانى القضاء والقدر. كأن الألوهية درجات جعلهم الغنى فى واحدة منها؛ فما ظنُّكم أيها الأغنياءُ برب العالمين؟

وانكفأت السيدةُ إلى قصرها فإذا فتاتُها تنتفضُ من وعْكةِ الحمَّى، وهى فى سريرها كقلب أمّها فى اضطرابِه والتهابِه، وما تعلم من أين اتصلت بها الحمَّى ولكن الله يعلم؛ ولئن كان البعوُض مما يُعدُّ فى أسباب هذا المرض فلقد كان كلامُها للفتاة يَنْفرُ منها كما ينفر البعوُض من مستنقع.. فخرجت المرأة عن رشدها وضاقت عليها الأرضُ بما رَحُبتْ، ولقد تكون المصيبة جنونًا وإن لم يكن من أسمائها الجنون؛ على أنها لم تزَ مَلجأ من الله إلا إليه فابتدرت تدعوه؛ وضرب الذهولُ بينهما وبين اللغة

---

(1) يحسب المبخلون من الأغنياء أنهم حين يهينون فقيرًا لا يهينون إلا فقيرًا ولا يدرون أن الله يمتحن بمن يحمل حكمة من يحمل نعمته، ولو عرفوها لصلح هؤلاء وهؤلاء فإن الحكمة الإلهية فى الفقراء نعمة فى بعض أشكالها، والنعمة الإلهية فى الاغنياء حكمة فى بعض أشكالها.

ومُسِحت من وعيها فلا تردَّد غير هذه الكلمات. يارب! يارب! ابنتى ماذا جَنت؟ "مِسكينة مِسكينة!"؛ "مِسكينة! مِسكينة!".

وجاء الطبيب كأنما أطلِق فى قنبلةِ مِدْفع ضخم... فأسرعت إليه وهى تقول؛ ابنتى ابنتى أيها الطبيب "مِسكينة! مِسكينة!" ثم مرت أيام وبنتُها مريضة وهى مريضة ببنتها، فكانت كلما نظرت إليها ملتهبة ذاوية تتخايل الموتَ فيها لم يُجرِ الله على لسانها غيرَ هذه الكلمات: آه يا ابنتى! "مِسكينة! مِسكينة!".

قال "الشيخ على" وضرَب الدهرُ من ضرباته وخرجت الفتاة البائسة ذات يوم وكانت قد أصابت عملا فتردّم جانب من حالها؛ وبيناهى تمشى مطمئنة رفَع لها شَبح أسوَد فى عُرض الطريق، فجعلت تُدانيه حتى حاذته، فإذا هى بسيدة الأمس وقد حال لونُها، واستحال كونُها، وعادت من الهمِّ كأنها ظل منتصب فى سواد، وظهرت من الحزن كأنها تمثالُ منصوب للحداد، وهى تلوح من الذلة والانكسار كأنما مات بعضُها وبقى بعضها، وكأنما كانت حياتُها من الأزهار فذهب ربيعُها وروضها، وبقى جِذْرها وأرُضها!

فما تبيَّنتها الفتاة ورأت ما نزل بها حتى نفرت دموعها حزنًا، ثم رفعت عينيها إلى السماء وقالت:

يارباه! "مِسكينة! مِسكينة!"...

كذا يضَع الإنسان الكلمة لمعانى الله فيكذِّبُه بمعانيها، ويارُبَّ كلمة ملفوظة وفيها لله كلمة غيرُ ملفوظة!

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

لؤم المال ووهم التعاسة

قال "الشيخ على":

وأنت يا بنيّ ما إن تزال تَصِف الدنيا بلون لا أرى كيف أسميه، فلا هو من وجوه أهل الحسد فأقولَ أصفر، ولا من قلوب أهل البغض فأقولَ أسود، ولا من صدور أهل الدم[1] فأقولَ أحمر، ولا من شيء أعرفه لأنه ليس شيئا يُسمَّى، وعلمَ الله أن من يَهوى فى جهنم سبعين خريفا وعيناه تَدُوران فى رأسه، لا يُبصر من حيث ابتدأ إلى حيث ينتهى شرًّا من وجه دنياك!

إنك يا بنيّ تُصوِّر الأرضَ لا أرضا ولا ماءً بل قلوبًا ودموعا، وتعرفها لا دُوَلاً ولا أمما بل آلاما وحوادث؛ فكأن هذه الأرض العظيمةَ تحتاج إلى وقَدتين من قلبك ومن الشمس، وإلى نعجتين من خَيالك ومن الفضاء، قدَرَين من حزنك ومن الأبد؛ ومن ثمَّ فلا عَجبَ يا بنى إن كان مركزُ الثقل فيها على وهمين: على مِحْورها[2] وعلى ظهرك...

هَيْهات لقد أسرفت على نفسك الضعيفة وجعلتَ هذه الحَصَاةَ الهيِّنة تحت مطْرَقةِ الزمن فما تَزالُ رِخْوا مُنْبعثا مُسْترْسِلا فى اندفاق ولين، كانك رجُل من العَجِين، وكم تقول لى: «فلان» وجاهُهُ العريض. ودهرُهُ المريض...

---

(١) أى الثأر.

(٢) محور الأرض خط متوهم.

... وانظر إلى (فلان) كيف جعله الكِبر يذكُرُ مِنا ويَنسى، وكيف أصبحَ من الغنى وأمسى..

... (وفلان) كيف تَمرُّ من فُرَج أصابعهُ سفنُ الآمال، فى تيّار المال، كأن يده قنطرة على نهر الأقدار، أو جِسْر تعبرُهُ حظوظُ السماء إلى أهل هذه الدار..

(فلان) قبحه الله! كيف صار شيطانه في لسانه، وطول عمره في لسانه، وكثرة ماله في قلة إحسانه..

... (فلان) أخزاه الله فما بَرَّ ولا نَفَع، بل تفرَّق بالحرص ما جمع وطَمعَ فى كل شىء حتى فى الطمع..

...(فلان) الذى جمع وعَدَّد[1] وخلقه الله واحدا وهو فى الرذائل يتعدد، وقد انتفخ كأنه شدق إسرافيل "وامتد كأنه يَد عزرائيل، واستكبر كأنه فرِعونُ على النيل..

.. (وفلان) وما أدرك ما فلان؟ جبل شامخ والناس فى سَفْحِه رِمال ومجد باذخ ولا مجدَ لمن ليس له مال، وهو فى أهل الغنى الأَلِفُ والباء، وإن قيل فى غيره (ابنُ نعمة) فهو فى أهل النعمة أبو الآباء؛ على رأسِ عظيم كأنه ركنُ الكعبة الذى يتوجَّهُ عُبَّادُ الغنى إليه، وقامة بائنة[2] كأنها لجاه صاحبها قطعة من المحور الذى تدور هذه الأرضُ عليه؛ وهناك أنف أما فى السماء فله منزلة، وأما فى الأرض فعطسته زلزلة، يَنفُضُ الناس من رهبته نفضًا، ويفرش الوجوهَ من هيبتِهِ أرضا، وكأنه فى تلك الكبرياء ميزان معلق يرفع من ناحية ويخفض من ناحية بل كأنه فى ذلك الوجه القفرِ جُحر للنحس تختبىء فيه الداهية!

قال "الشيخ على": وما أنت يا بنىَّ وهذه (الفلانات) وأمثالها؟ إن

---

(١) أى جمع المال وعدده.

(٢) ظاهرة بطولها او جلالها أو نحو ذلك مما تبين به سواها.

هؤلاء الناس بعضُ أعمال الله فى أرضه، فهو يخلقهم وينشئهم ويديرهم لتعلق طائفة من الأقدار بنتائج أعمالهم طردا وعكسًا فما أشبههم بدابة الطاحون تلزم دائرتها ولا تفتأ تدور إلى غير انحراف، ثم هى لعلها حين تسمع ذلك الهزيز وتلك الجعجعة تحسبها من نشيد الاحتفال بها...

فهم قوم مسخرون فرشَّهم الله أمرًا من أمره[1]. ويسرهم لما خلقوا له، فضربهم بالحرص والطمع ضربة جبار لو نالت السموات والأرض والجبالَ لأشفقن منها، وجاءهم الحرص بهذا المال، أما الطمع فجاءهم بماذا؟ جاءهم يا بنى؟ لو قلت بصدأ القلب، وهرم النفس ودناءةِ الطبع، ولو قلتُ بكل ما فى الحشرات من القذر، وبكل ما فى السباع من الضراوة، وبكل ما فى الدبابات من السموم- لكنت عسى أن أقارب الوصف؛ وكلن المعنى الذى يتلجلجُ فى نفسى أكبر من ذلك كله.

غيرَ أنى أقول لك يا هذا: إن ثلاثة من المتجاورات يفسر بعضها بعضًا: الحرص مع الطمع؛ ثم المالُ ورذائله، ثم ما فى المعدة وما فى الأمعاء...

أتحسب أن هذا العالم يحفل برجل من الأغنياء قد أجحَف[2] به الدهر وطحنته النوائبُ بأرحائها، وجاءه بعد الدنيا المونِّثة يومه المذكر،[3] وتركته الأقدار أسودَ الحظ لا بيضاء ولا صفراء[4]؟ فلم لا يعدو الغنى شيئًا دون المال ويحسبونه كلَّ شىء مع المال؟ لعل الحقيقة أيضًا ذات وجهين فى الناس...!

هو المال، المالُ وحده لا غير؛ فنحن نحتاج إلى الغنىّ صاحب المال

---

(١) أوسعهم إياه ومكنهم من التقلب فيه.

(٢) أجحف بهم الدهر واجتحفهم استأصلهم، والمراد هنا استئصال النعم.

(٣) يقال يوم مذكر: أى شديد صعب، وقدزدنا عليه الدنيا المؤنثة: أى اللينة المواتية المقبلة السهلة

(٤) لا درهم ولا دينار أو فضة وذهب.

كما نحتاج إلى بائع الملح... وما أشبهنا فى إطرائه وفى الزلفى إليه بأطفال القرية إذ يتزلفون إلى بائع الحلواء التى تلفُّ بالعصا، وإذ هو واقف بينهم بعصاه وحَلوائه كأنه الهُبلُ الأعلى[1]؛ هو- مَنْ تعلم- دَسمُ الثوب ترب اليد قذِرُ التفصيل والجملة، يصلح أن يكتب على وجهه "متحف الميكروبات المصرى"؛ ولو رآه طبيب لجعل عصا الحلواء على رأسه تفاريقَ، ولكن أين لا أين الطبيب فى هذه الاجتماع؟

كل أطباء الاجتماع ألسنة وأفلام ومحابر؛ أما اليد التى تزيل المنكر أو تغيره فلا أراها تمتد إلا من جانب الأفق ولا تعمل إلا بعون من الله وملائكته وقد انقضى عصر الأنبياء!

قال "الشيخ على". فإن لم يكن الغنى إنسانه من الناس يواسيهم ويسعدهم ويتخذُ من المال سبيلاًإلى أفئدتهم بالإحسان والمساعفة، ويأخذ لنفسه بقدر ما لها ويُعطى من نفسه بقدر ما عليها؛ وإن لم يكن وجهُه مرآة الفقراءُ يبصرون فيها ابتسامَ الدهر على وجوههم العابسة، ولم يكن ذهبُه عند دموع البائسين وعند أنفاس المحزونين، ولم يكن اسمُه فى دَعوات المحتاجين وفى ألسنة الشاكرين- فقد أصبح عندى كأنه لا شخص له، بل هو شخص له لعنة من لعنات الله والملائكة والناسُ نُفخت فيها الروح، وهى اللعنة أىّ مُنْقلَب تَنقلِب.

ما أشبه المالَ أن يكونَ آله من آلات القتلِ، فإنهُ يميتُ أكثرَ أصحابه موتًا شرًا من الموت- إلا من عَصَم الله- موتاً يجعل أسماءهم كأنها قائمة على ألواح من العظام النَّخرَة، ويُرسلها كل يوم إلى السماء فى لعنات لا عداد لها، ثم يُثبتها فى التاريخ آخرًا لا بأعيانها ولكن بعددها، أو كما تثبت

(1) صنم كان فى الكعبة.

الحكومة فى كل سنة عدد البهائم التى نفقت بالطاعون... فهذا الشخص الميتُ وهو بعدُ فى الأحياء لا يبلغُ فى قدر نفسه على الحقيقة أكثرَ من مقدار حجمه من... من... من جيفةَ حمار!...

يا بنى! ربما كان الرجلُ نباتَ نعمةِ الله لأنه سيكونُ حَصادَ نِقمته، فهذه، منزلة من البؤس و الخِذلانِ يُستعاذ بالله منها، وكم رأينا من أناس تُخصِبُ أبدانهم حتى ليضيقُ بهم الجلدُ كِدنة وسمَنًا ويكاد أحدهم ينشقُّ مرحا ونشاطًا، ثم لا يكون هذا الخصبُ الذى استمتعوا به شطرًا من العمر إلا سببًا فى أمراض مهلكة تستوفى الشطرَ الآخر ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

وإن خطأ كبيرًا أن تقضىَ لفلان من (فلاناتك) بمتاع الدنيا، فإنك لا تدرى أشر أريد به أم الخير، وكيف تحكم ويلك على غناه بفقرك، وعلى آماله بيأسك، وعلى شخصه بظلك، وعلى نهاره بليلك، وعلى عمره كله وهو بعدُ حى يُوَفَّ عمره ولا تدرى ما عسى أن يكون له فيما بقى؟

ألا دَعهُ حتى يستنفدَ أيامه المكتوبة ويستوفىَ أنفاسَه المقدَّرة، فلعل مصيبته قادمة فى الغيب وكأن غناه مقدماتها؛ وعلى قوة المقدمة تقاس قوةُ النتيجة؛ فإذا مات الغنىُ ولم تعرف فى جملة عمره هما ولا غما يَعدِلُ بؤسَ الفقرِ مهما اشتدَّ الفقر، فكفى حينئذ بالموت من تلك الجملة! وإنما الحياة مدة ستنقضى، فسواء انقطع الخيط من أوله أو من وسطه أو من آخره، فقد انقطع[1]!

تقول إن لهم متاعَ الحياة! ولو أنصفتَ لقلتَ إن لهم بؤسها الممتع!

---

(1) إذا مات الغنى وطوته الأرض، فأفقر من على ظهر الأرض أغنى منه؛ فهذه جهة من غنى الفقراء لا يساويها غنى ومع ذلك لا ينتبهون إليها.

فإنهم يجمعون المال من طرق لا تؤتيه إلا نكدًا ثم يرسلونه فى طرق أخرى ليجمعوه، وهلم كما تدور دابة الطاحونة، وهَب أنهم لا يألمون كما تألم فإن يد الله غمزتهم من مكان قريب غمزة مؤلمة، وما أحسبُ الضجر من اللذات قد خلق إلا للأغنياء وحدهم، وناهيك من بلاء يغمر النفس بالنعم صنوفا وألوانا حتى يتنكر لها معنى النعمة فتراها وقد ثابرَ عليها الضجر متكرهة ولكن لا تريد الكراهية، ومتسخطة ولا ترغب فى السخط، ومتألمة ولا تعرف ممَّ ألمها، ولا تبرح دائبة تلتمس نعمة لم يخلقها الله، لتحدثَ منها لذة لم يعرفها الناس.

ولولا هذا البلاءُ وأنه ما وصفتُ لك، لما أصبت على الأرض غنيًّاً كهؤلاء الوارثين: تَضربُ به كلَّ لذة وجهَ أختها فتسِلمهُ الواحدة إلى الأخرى ويجذِبْنه بكل حروف الجرّ، مِن وإلى وفى وعلى، وبين الخمر والقمار والفسق وما لا يَحُسن أن يسمَّى، حتى تُسلِمُه اللذةُ الأخيرة إلى الفقر أو القبر!

ولو أنّ (ضجر اللذات) يصنع بكل الأغنياء هذا الصنيع لفسد الكونُ، بيد أنّ الله أرادُ عمرانه فجعل فى طباع أكثر الأغنياء لؤما خاصًا، لؤمًا ذهبيا يَكسِرُ من سورة هذا الضجر، كما يفثأ الماءُ الباردُ من الماء الحارِّ حين يمتزجان[1].

فالقومُ إما كريم يضجر فيُسْرِف، وإما لئيم يضجر فيمسك؛ وكلاهما يحد لذته ويضجرُ من لذته، فهم كما هم ونحن كما نحن وكلنا سواءٌ كما ترىٰ وكأن أمَّ المصيبة حين ولدتْ وضعت بنتين: المصيبةُ التى تُؤلم، والنعمةُ التى لا تَلذ...

(١) كلهم بين اثنين: لؤم النعمة فى أولئك، ولؤم المال فى هؤلاء.

وليس أشقى ممن مُنِع السعادةَ وأعطىَ الرغبة فيها إلا الذى أعطى السعادة ومُنع اللذةَ منها!

فلا تقل يا بنىّ إن العصا لظهور الفقراء وحدهم، فإن هناك السوطَ أيضا، وهو رتبة عالية فوق رتبة العصا؛ ولذلك خُصَّ بشرفها... الأغنياء!

وانظر ويلك: هل ترى الفرقَ بعيدًا بين الضجر من شىء لأنه موجود، وبين الضجر من ذلك الشىء لأنه غيرُ موجود؛ بين عدم الشعور باللذة، وبين الشعور بعدَم اللذة؛ بين ألم الغنىّ الذى لا تجده أبدًا إلا على شكٍ فى أنه سعيد، وبين ألم الفقير الذى لا تجده أبدا يشك فى أنه تعِس؟

قال "الشيخ على" وتسألنى عن التعاسة: ما هى؟ وكيف هى؟ وتريدُنى على أن أبتغىَ لك مما بين ظاهرها وحقيقتها؛ ألا فاعلم يا بنىّ أن هذه الكلمة حقيقة بأن تُنسِى نفسها، وما أدّعى أحد معرفتها إلا لأنه لا يجد أحدا يعرفُها، وكل شىءٍ مجهول فما أسهله أن يكون من علم كل جاهل، وما اصعبه أن يكون من جهل كل عالم، وإنى لأرى الناس يأتون فى وصف التعاسة بِكلام كثير، وما أهونَها إذنْ لو أن كل إنسان يُحسِنُ من وصفها بهذه السهولة.

لقد ألفَ هذا الإنسان من عهد القبائل فى الاجتماع الأول أن يطوىَ العالمَ كلَّه فى قبيلته، ويجمعَ القبيلة كلَّها فى نفسه، فيزعم أن "كل الناس" يعرفون كذا، "وكل الخلق" يقولون كذا وأن "الدنيا كلها" و" كل العالم"...

وعلِمَ الله ما فى الدنيا ولا فى العالم من يعرف أن يقول غيرُه أو هو مع غيره من ذِوى جماعته إلا اثنين أو ثلاثة أو جماعة منهم، ثم بقِى ذلك ميراثًا فى أخبار الجهلاء وأوصافهم وفى كلام أهل المجُازفة إلى اليوم!

ولكن إن شئت أن تعرف التعاسة- ولا أقول ما هى (حَرَسَك اللّه) ولكن ما عِلمُها- وإن شئت أن تسمعَ لها وصفًا آنيًا من جانب السماء، فالتمسْ فى دار الهموم من لم يبق له هَم يحملُه إذ يكونُ قد احتمل كلَّ هم، فإن مثل هذا المخلوق- الذى لا تعرف أهو حى فى ثيابه مَّيتٌ فيما وراءها أم هو ميَّت فى ثيابه حى فيما بعدها- متى استفرغَ دمعَ أجفانه ومات البكاءُ فى عينيه، خلق اللّه لسانه ألفاظا كالدمع ولغةً كالبكاء ومعانىَ هى فى جملتها أوصافُ التعاسة على الحقيقة؛

وأين تحسبكُ واجدا هذا المخلوقَ الملْهمَ المسخْرَ الذى كأنما ينضغُط بين الأرض والسماء لشدة ما يجد من حطْمةِ هذه الدنيا- حتى تكتبَ من تاريخه فصلا فى ذلك المعنى، وحتى تُخرِج من لغة الأقدار ما يصحِّحُ لفظا واحدا من لغة الناس؟

ألا إن الأرض لا تشهدُ كلَّ يوم نبيا مثل أيوبَ يَمتِحنُ اللّه صبرةَ امتحانَ الألوهية للنبوَّة، وإذا لم تكن المصيبةُ- رعاك اللّه- كأنها فى باب النقمة تاريخ غيرُ إنسانىّ؛ فإن بينهما وبين معنى التعاسة الذى يَضجُّ الناسُ منه كالفرق بين رؤية السيف مسلولاً على العنُق وبين رؤيته فى العنُق[1].

ولقد أعرفُ رجلاً من أهل الفقر النظيف أعطى ابنته قطعة فيها، عشرة قروش، وأرسلها تبتغى بها رزقا من الطعام، فأضاعتها فكأنما أضاعت عقلها، ضاقت عليها الدنيا، وخَيَّل إليها أن ليس على الأرض ما يَسعُ طفلة... فلم تجد لها غِوَاثا إلا فى الموت يَحولُ بينها وبين أبيها، فجرعَت

---

(1) فرق الإرهاب يخيف ولا يقتل وبين القتل يخيف ويمحق، والغرض من التاريخ غير الإنسان: ذاك الذى لا مكان فيه لرحمة اللّه؛ وهو تاريخ يتوهم ولكنه لم يقع ولن يقع.

من "الفنيك" جرعةً كانت فيها نَفسُها، وابتعدت عن أبيها ولكن بُعد ما بين الدنيا والآخرة!

فهذا مثالٌ مما يجلبُ الضعفاءُ على أنفسهم من التعاسة: تموتُ الفتاة، وتسيرُ الجنازةُ، ويفتح القبرُ، لعشرة قروش...

ويحدثُ فى العالم هذا الفراغ، وتُخْرِجُ الدنيا إحدى عجائب التعاسة، ويَشهدُ الناسُ ذلك المنظر القاتل؛ وكل هذا لعشرة قروش...

ويقعُ للفتاة أمران أهونهما الموتُ، وأصعبُهما الذى لا يُحتمل ضياع عشرة قروش...!

وما عشرةُ قروش يا بنىّ؟ إنها قوتُ حمار فى يوم أو يومين، ونَشْوة سكِّير فى ساعة أو ساعتين، ولذةُ فاسق فى لحظة أو لحظتين، ولعنةُ الله على غنى لئيم فى نَفس من حياته أو نَفسين!

ولكن يعلم الله كيف كانت فى نفس تلك المسكينة من غلْظة أبيها وقسوته وما خَشيَت من بادِرته وما حسبت من اضْطِغانه عليها، وكيف استحالت هذه القطعةُ تاريخا طويلا من الوساوس والأوهام حين أضاعتها، فالناسُ ناسٌ لولا الوهَم، وكان الوهم وهما لولا الناس!

ولَعَمْرِى ما الذى يجعل المرءَ جبانا فى لقاء الحوادث حتى يخاف الحياة فيَعُوذَ بالموت؛ ويضرِب ما أقبل من دنيا بالذى هو مُدْبِر؛ أو يخشى الموتَ فيتعذبَ بالحياة ما أدبر منها وما أقبل؟

أما إنَّ ذلك ليس من فقر ولا غنى؛ ولكنه حِرْصٌ على الحياة يخُالط بعضَ الأنفس ويستمكنُ منها حالةً بعد حالةٍ، فإذا هو قد انقلب فى آخرة الأمر خوفا من الموت، ثم لا يزال يَحُورُ ويَنْمِى وهو ذلك يَخلعُ القلب من

الإيمان الذى يَرْبِطُ عليه[1] واليقين الذى يثبّتُ به، حتى يبلغ بعد حين أن يكون خوفا من الحياة نفسها؛ ومتى كان الحرصُ على الحياة قد صار خوفا من الموت، ورجع الخوفُ من الموت مع ذلك البلاء خوفا من الحياة، فهذه- أصلحك الله- حالةٌ من الجنون تستلِبُ العقل، وسواءٌ مَن أصيب بها ومن خُولط فى عقله، وليس معها لهؤلاء الضعفاء كما يشهدون على أنفسهم إلا موتُ الجُبن الذى يسمى انتحارا، أو حياةُ الجبن التى تسمى ذلاً ولخير للمرء أن يكون حمارا من صنعة الله وتعرفه الحَمير، ومن أن يكون حمارا من صنعة نفسهِ وتنكره الناس...

إن لنا على هذه الأرض حياة واحدة علم أهلُ العلم أنه حقيقة مسرعة بين أوهام، فهى ما تبرح تجاهد كل شىء ولا تثبت أطولَ من مدة جهادها إلى أمد غايتُه أرذل العمُر[2]؛ وعرف أهلُ الجهل أنها تتقدم إلى الموت وأن الموت يتقدم إليها فهما لا بد ملتقيان. لا العلمُ ولا الجهلُ يرتابُ أو يشك فى الموت. ولا الفقرُ ولا الغنى، ولا الصحةُ ولا المرضُ ولا شىء عن خصائص الأحياء؛ لأنه ليس على الأرض حى قديم...

ولكن العالم والجاهلَ، والفقيرَ والغنىَّ، والصحيحَ والمريض، وكلُّ هؤلاء يخافون الموتَ ويحرصون على الحياة إلا قليلا منهم، فليتهم علموا أن النفس روحية وأنها تألم لهذا الخوف ولا تَقارُّ عليه؛ إذ هى لا تعرفُ الموتَ لأنها خالدة، ولكنها تعرفُ الألم لأنها فى غير دار خلود؛ ومعنى ذلك أن الإنسان يخافُ الموت، فيصلُ الخوف بالنفس، فتردّه إلى

(١) ربط الله على قلبه: ألهمه الصبر وقواه.

(٢) الهرم وارتفاع السن.

حوادث الحياة فتُخيفُه هذه الحوادثُ فيذلّه هذا الخوف، ويأتيه الموت من كل ماكن وما هو بميِّت[1].

ونحن إنما نَنِصبُ الحبالةَ[2] ثم نرتبكُ فيها ونضطربُ فكأننا لا نصيدُ إلا من أنفسنا، إذ لسنا نجهلُ ان للنفس حظا ليس للجسد، وأن الفارسَ لا يُربَط فى الإصطبل وإن كان جواده فيه، غير أننا مع ذلك نحاول أن نغذوَ النفس من اللذة الجسيمة، وأن نعلِفَ الفرس والفارس من طعام واحد... فهذا التناقضُ الذى نُسيءُ به إلى أنفسنا هو الذى يجعلُ النفس خائفةً من الحياة إذ لا تجدُ فيها غيرَ ألم التعبُّد للأهواء والشهوات، ولا يصيب من الحياة إلا ما تستذِمُّ[3] به الحياةُ إليها؛ فلا يكون من ذلك إلا أن تُسيء إلينا هذه النفوس بتناقضٍ آخر، فربما كان الرجلُ فى النعمةِ السابغة قد أينعت خضراؤها ثم لا يشعر منها إلا ما يشعر من المصيبة الماحقة؛ ومتى فَزعت النفس من الحياة كما عرفتَ فلا هناءة على ذلك الفزع، ولا تكون الحياةُ من ثم إلا موتا مستمرا أو خوفا من الموت لا ينقطع[4].

قال "الشيخ على": يا بنىّ إن الحرصَ جبن، والجبنَ ذل، والذَّل استعباد، وما يدخل من هذه الأبواب إلا الشر، فكن حرًّا من الأهواء كما خُلقتَ وكما

---

(١) إذا خفت عاقبة طريق أنت سائر فيه قطعت الطريق كله مضطربا خائفا وإن كنت موقنا أن ما يخيفك لم يأت بعد، ولكن علمك أنه آت هو سبب ما أنت فيه؛ فإذا مشيت فى نور روحك وفضائلها لم يخفك شىء، وإذا مشيت فى ظلمة شهواتك خفت من كل شىء: طبع لا تدرى سببه، وسببه فى نظام الروح ونظام الجسم ونظام الكون.

(٢) الحبالة: شبكة الصيد، وارتباك الطير فيها. اضطرابه حتى يقع.

(٣) أى تدعو به إلى ذمها

(٤) المخ فى الإنسان هو المسلط على أعصابه، والروح هى المسلطة على المخ؛ فإذا سخرته الروح فى أعمالها استقامت الحياة، إذا سخرته الأعصاب انعكست الآية، وهذا هو الواقع، ودليله حسى لا مكابرة فيه، فالصالح ضعيف الشهوات هادىء مستريح، والسافل بالعكس، وكأنه من تعب الحياة يمشى فى الأرض على رأسه لا على رجليه.

خُلقت الحريةُ التى لا قيد لها من رذائل الدنيا، فإنك لن تُرَاع ولن تعرف مما يسميه الناس تعاسةً أكثر مما تعرف مما يسمونه سعادة، ولن تجد فى مصائب الحياة ما يموت دونه الصبر الجميل؛ فإن عمرَ هذا الصبر أطولُ أبدا من عمر الصابرين!

لذلك لا يغضب الفيلسوف ولا يخاف الشجاع، ولا يبخل الكريم، ولا يَذلُّ الأنوف، ولا يُنافِق الرجل الحر، ولا يَكذب الرجل الشريف؛ وإنما هذه مظاهر محدودة من حرية النفس، فكيف بالنفس إذا كانت حرة من كل أقطارها؟

وقديمًا عَلم الناس أنّ من لا يُبالى بشهوات جسمه هو الذى يستريح وادعا ويَتَعب التعب فى البحث عنه، وما علمت ولا علم الحكماءُ والأطباء غذاءً تَسمن عليه المصائب والأحزان إلا الحرصَ على الشهوات!

وليت شعرى ما هى هذه الشهوات؟ أما إنها فى الحقيقة نزعاتٌ طبيعية لا بدّ منها بمقدار، لأن الطبيعة الإنسانية تعالج نفسَها بما يُعينُها على البقاء[1]، وما يجعلها صالحةً له على الوجه الأفضل، فهى تُغرى الإنسان مرة وتؤلمه مرة، وكلُّ ذلك ليجلب لها أو يدفع عنها. فما تسميه لذة من لذات الجسم إنما هوعلاج طبيعى من ألم طبيعى لا أكثرَ ولا أقل... كالأكل مثلا: فما كانت الطبيعة لتُغرىَ به هذا الإغراءِ حتى فات عند أكثر الناس حدّ اللذة. لولا أن الجوع إنحلال فى الجسم، فإن هو أسرَف عليه أو استمرَّ به أوقع فيه الفسادَ ورَكبَه بالضعف عِلة بعد عِلة.

---

(1) ولما كان البقاء محدودًا بمدة، فالشهوات يجب أن تكون كذلك محدودة بمقدار؛ لتقع الملاءمة فى موقعها ويحمل شىء شيئًا وتنتفع النفس بمدتها الحياة، فإذا خرج المرء عن طبيعة نظامه زاغت طبيعته، فلا يزيدها ولكنها تنقصه ولا يصلحها ولكنها تفسده ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

غير أن الإنسان بما فيه من شَبه البهيمة ينجذبُ إلى طبع البهيمة غالبا، ونسىَ أن للبهائم وازعا طبيعيًا وهو فضيلتها الخاصة بها، فأقبل يَرْتعُ ما شاء، وجد به الحرصُ بمقدار ما يطمع فيه، وغلبه الطمع على بصيرته، فلا يكون فى إنسانيته إلا بهيمة تتخيل وتتفنن ما لا يتفنن إنسان ولا بهيمة، وما تجدُ من مستهتَر بالشهوات إلا وجدتَه من أجل ذلك راضيًا مغتبطًا يتمنى لو أنه فى هذه الشهوات بهيمةُ البهائم كافة!...

أف لهذه الدنيا! يحبها من يخاف عليها، ومتى خاف عليها خاف منها، فهو يشقى بها ويشقى لها، ومثلُ هذا لا يكادُ يطالع وجه حادثة من حوادث الدهر إلا خُيِّل إليه أن التعاسة قد تركت الناس جميعًا وأقبلت عليه وحده، ولولا الخوفُ يزلزلُ قلبه لأدرك الفرق بين النِّسمة والعاصفة، وعلم أن اللفظة لا يلزم منها أن تخْلُقَ معناها، وأنْ ليس كل ما نسميه تعاسة يكون فى حقيقته من التعاسة.

وترى الواحدَ من هؤلاء لا يزال يلُوكُ لسانَه[1] فى كلمات من التأميل والسخط والألم والنَّفْرة وغيرها مما هو من لغة الحرص على الحياة، فهو على الأرض وكأنه يعيش فى سحابة تجرى بها الريح، ولعمْرِى كيف تَهْنأ الحياة مثل هذا إلا إذا كان أديمُ الأرض من ورق الزَّهر، وكانت مزابِلُ هذه الدنيا رياضًا غنَّاء، وعُدّت الطيور الجميلة من كلاب هذه المزابل...؟

كذلك لا يسعدُ أكثر الناس بالحياة ولكنهم يُشقوْنَ بالحياة والموت؛ ومن ثمَّ ظلموا التعاسةَ فجعلوها أصغر مما هى، كما ظلموا السعادةَ فتوهموها أكبر مما تكون.

قال "الشيخ على": واعلم يا بنىَّ أن القدرَ وإن كان من السماء ولكن

---

(١) يحرك لسانه.

تاريخه ثابت فى الأرض؛ وما كانت المصائبُ جديدة فى الحياة وهذه المحابرُ التى كِتب منها تاريخُ الإنسان لا تزال كما كانت من قبلُ تشرَقُّ بالدماء وبالدموع، ولا يزالُ الدهرُ يمد منها ولا يزال يكتبُ من هذا المِداد: فممَّ يخاف هذا الإنسان الجديد وليس فيما ينزل به إلا ما نزل بمن قبله، وما هو بخالد ولا هو بمتروك لما يحاوله؛ ولقد علم يقينا أن الله لم يخلق مِقْراضا يُقلمُ أظفارَ الموت؟ يريدُ مِن قدَر الله زلالا صافيًا كأنه ماءٌ مُرشح يصب من حياته فى كأس من البلور..! ويبتغى أن يكون فى الأرض تاريخًا جديدًا سَلِسًا مُنَقحًا ليس فيه شىء من تلك الألفاظ الجافيةِ فى نُبوِّها وخُشونتها ألفاظِ التخريبِ والتدميرِ والتقتيل والجوعِ والمرض والأحزان والهموم ونحوها.

فأما أن يكون من ذلك التاريخ القديم الذى تُمليه قدرةُ الله على الطبيعة، ثم لا يكونُ إلا كالطبيعة نفسها فى النظم والنسق ولايجىء الإنسانُ الجديد فيه إلا طباقا أو ناسخا أو منسوخا- فهذا موضعُ النَّفرة ومكانُ الأذَاةِ ومنه مثَارُ الهمِّ وإليه مَسْرَبُ الدمع، وذلك والله معنى إن لم تنشأ منه تعاسة الإنسان فهو على كل من تعاسته.

الإنسان كلّه يا بنى مُنْطَو فى رأسه، وما هذا الجسم إلا أداة، منها ما يحمل الرأس، ومنها ما يحملُ إليه ومنها ما يحمل عنه، فالجسم دابّة من الدوابِّ لا أكثر ولا أقل؛ والرءوسُ لا يمكن أن تُوزَن بميزان حتى يُعلم فرقُ ما بين رأس ورأس آخر، فالإنسان مختبىءٌ مُحَجَّب، وكأنه لا يزال منه جزء عند الله فما ينفك يجد من نفسه ما يبعثه على النُّزُوع إلى الغيب والفكر فى المستقبل لأن هذا المستقبل تمام له، ولا يبرُح يشعر بالحياة شعورَ المتألم أو المتعَب أو المكدود أو المغيظِ أو المفَزَّع أو أىٍّ ما

يكون من أشباهها، لأن هذا الحاضر غير تامّ به ولا كامل معه؛ وليس ذلك بعجيب، ولا من العجيب أن يألم الإنسان لحياته؛ ألا يرى أنه فى جسم لا راحة للروح إلا بعد تحطيمه؟

ومن ههنا تَفاوتَ الناس؛ فمنهم من تراه كأنه يحاول أن يكشف عن جزئه الذى فى الغيب ويَصل بينه وبين حاضره، فيتوهم فى الحياة ما ليس فيها ويُسخِّرها لأوهامه باطلا، ومنهم من يقبل على شأنه ويأخذ الحاضرَ بما فيه ويعرف أنه حى ولكن على شروط لابد منها للحياة.

فأما الجاهل الأحمق المخدوع فكأنما يرى فى مرآه خَياله الغيب كلَّه، أو ما يظنه الغيبَ كلَّه، فلا يعدو أن يَسترسِلَ فى ظنونه وأوهامه استرسالا أشبة بالأبد الذى لا حدَّ له، ومن ثم لا يرضيه شىء ما دام فى هذه الحياة شىء لا يرضيه، لا يُقْنِعه شىءٌ ما دام فى الدنيا شىء لا يناله، وكلُّ مصيبة يخشاها أو يَتَوقعها فكأنما هى نازلة به أو قد نزلت، وعنده أن كل ما يمكن أن يكون فينبغى أن يكون، وما هو جائز فليس ما يمنع أن يكون واجبا، وما قيل إنه غير جائز فهو غير مستحيل، وما الذى يمنع أن يخسف به الأرض أو تقعَ عليه السماء، أو ينحدرَ إليه رَجم من الشهب، أو يَنهتِكَ حجاب قلبه[1]، أو يَسلَّ البلاءُ خيطَ عِظامه أو يخالط جوفَه كلُّ داءٍ دوِى، ثم ما شئتَ من "أو" بعد "أو"... إلى أبعد حد مما انتهى إليه أهل الفقر فى الفقر وأهل الأمراض فى الأمراض وأهل الأحزان فى الأحزان وأهل المصائب فى المصائب، فيذهب العمر باطلا بالذى عليه، ويجنى هذا الإنسان على نفسه من أثر الخوف والطمع ما لا يستقبله أبد الدهر، فلا يهنأ بموجود. ولا يطمئنُّ إلى مَرجَو، ولا تكون آماله إلى

(١) كناية عن موت الفجاءة.

مخاوفَ مستبهمة لا مأتَى لها من الحقيقة، فيجد روحَ التعاسة فى أشياءَ كثيرة ولا يكاد يصيب العَزَاء فى شىء قليل!

وهنا يا بنىَّ الحفرة التى يقبر فيها بعض الأحياء ليعيشوا عيشة وهمية، أو ليموتوا موتًا وهميًا، تلك الحفرة التى يقضى الأحمق شطرًا من عمره واثبا فى الأوهام بين شاطىء الدنيا والآخرةِ حتى إذا انتهى إليها تردَّى فيها وكان الرأى لو ادَّخر لها بعض تلك الوثبات...

وأما الحكيم الذى يعرف الحياة كما يمكن أن تكون، ويعرف أن كل حى من الناس فإنما هو حى على شروط لواهب الحياة، ثم للحياة نفسها، ثم لأهل الحياة- فهو أدرى بالمصائب من ذلك الأحمق، ولكنه لا يثيرها ولا يبحث عنها ولا يمتلق لها العلل[1] من نفسه ولا يعترضها فى غيره؛ وما نزل منها فإنه يفتح لها من قلبه سبيلا تمرُّ فيه بين العزيمة والجرأة، وإلا فبين الثبات والصبر، وإلا فبين التوكل والإيمان، وما أهون مصيبة تفتح لا نصرافها ثلاث طرق واسعة!

وهذا الحكيم يجد فى مِحنته لذة تشبه لذة الدرس لمن همُّه الحكمة واختبار الأشياء ومعاناة خواصها وأسرارها، كأنه من مصائبه فى "معمل" للتجربة والاختراع، فإنما هو يتلقى عن الله ما لا يصيبه به إلا هو، وما لا يصرفه عنه إلا هو، وإنما يستعمل رأسَه للفهم لا الوهم، وهو يعرف أن علم الله أزَلِي يَسع الأزلَ كله، وأن الأقدار من علم الله فهى مقسومة على الدهر كله، وأنه هو فى جانب الدهر لا يبلغ أن يناله ما تنال الشرارة من ماء البحر إذا هى انطفأت فى البحر.

هذا الحكيم يعرف أن الحياة ليست هى الانتهاء إلى الموت على

---

(1) يخترع ويستنبط.

أى وجه، ولا هى بالهرب من الموت فى كل وجه، فهو لا يبالى الموت ولا يخافه، ولا يعبأ بالحياة ولا يرجوها، ولكنه يمشى على صِراط من فضائله، وعلى نور من ربه فما دامت فضيلته لا تنكره، وما دام قلبه مطمئنًا بالإيمان، فكل ما بين الأرض والسماء بين الآخرة والأولى هو مادة العزيمة فى نفسه، ومادة القوة فى روحه، ومادة الابتسام على شفتيه!

فإن نزل به هُم وأدركه خَوَر الطبيعة وضعف الإنسانية فلم يستطع أن يَخلُص منه، صرفه إلى جهة غير جهته، واستخرج منه معنى غيرَ معناه؛ وقابل بين راحة الرضا به وتعب السخط عليه، ونظر فى مبلغ شرِّه وما عسى أن يكون حاله لو نزل به ما هو شر منه، وجمع بين الدعاء لله أن يصرفَ عنه ما وقع؛ وبين الحمد لله على وقايته مما كان يمكن أن يقع، ثم لا يزال يعالج الهمَّ مستأنيا رَبيطًا جَأشه تثوب إليه القدرة على نفسه فتسكن إليه النفس من نفرتها وحتى يرى هذا الهمَّ كأنه مما لا بد منه فى رياضة أخلاقه، وتنزيه شمائله، وكأنّ صدعَ الجانِب الذى بينه وبين الناس أوبينه وبين نفسه إنما كان لتقوية الجانب الذى بينه وبين الله.

وأشقى الناس من يتوقع الشقاء وهو لا يعلم من حاضره ما الله صانع به، ولا من مستقبله ما الله قاض فيه، وكأنه يَتظنى بالله فيرى أنه تعالى قد وكله إلى نفسه وأيأسه من رحمته وصرفَ عنه تيار الغيبِ المتدفِّع بالحوادث والأقدار بين شاطىء الليل والنهار، فلا يدفع إليه جديدا ولا يصرف عنه قديما وكأن الزمن كله يتحرك وهو ثابتٌ قار قد حصره الهمُّ من هذا الفلك فى زاوية؛ ووضعه الدهر من بيت الأحزان موضع القافية، والمصيبة فى مثل هذا أكبر من كل شىء لأنها لا شىءَ... ولا ينفع المرءَ أنه من الناس إذا لم يكن من نفسه، وهذا لا نفسَ له أو كأنه لا نفسَ له، إذ لا ثِقة به ولا قوة فيه، ولو كان وجهه جلدةً مما بين عينى الأسد لما ظهر

إلا جبانًا، ولو اختلط الحاضر بالمستقبل على شيء لما اجتمع منهما ما يجتمع من غضون جبهته فى تعاسته التى يظن أنه خص بها فهو يتوهم؛ الخوفَ، ثم يخاف مما يتوهم، ثم يخاف أن يكون الأمر أكبرَ مما توهم، ثم يخيفه أن تخذلَه الأقدار فلا يقوى على ذلك، ثم يكون أشدّ خوفه من يستمرّ له ذلك فمن خوف إلى خوف، وهو تتابعٌ يصور الرِّعدة التى تعتريه لجبنه كما يصور ضحك القهقهة من هذا الجبن[1].

وذلك يا بنىّ ضَرب من ضروب استحالة النفس، كأنها ليست فى صاحبها أو ليست له، فهو يمر على الحقائق فزعًا كما يمر الطائر على الأخيلة التى تنصب له على الثمر، ويجزع منها كما يجزع الطفل من أرواح المردةِ والشياطين التى تسكن ألفاظ التهويل ونحوها يُفزَّع به، ثم هو من المصيبة الواحدة فى مصيبتين: أما الأولى فشدة الخوف التى تفقده لذة ما يكون فيه من النعم- والنعم لا حصرَ لها- فلا يشتهيها، ولا يجد لها مَسَاغا بعد أن لبسه مرض الهمّ؛ وأما الثانية فقوة اليأس التى تضعف قدرته على الحيلة للخلاص مما نزل به، فكأنما شُدَّ عزمه وثاقا، ثم لا يكون من اجتماع المصائب الثلاث[2] معا إلا أن يورثنه الذلَّ وسقوط الهمة وتخلخل الفؤاد واضطراب النفس، حتى كأنه من هذه الوساوس بين جدران وثيقة محكمةٍ لا نافذة منها على فضاء الغيب، والغيب ملءُ الأبد، فيصبح جلدًا بلا جلادة، وعظما أوهنت منه البلادة، ورجلًا لو أطاعته كلُّ قوة فى الدنيا لما أطاعته الإرادة وصنمًا من أصنام الحياة يعرفه العاقل للتحطيم ويحسبه الجاهل للعبادة..

---

(١) من المقرر أن الأفكار تتداعى، فالخوف لا يجلب على الفكر إلا ما يشبهه إن استمر به، فتكون المصيبة واحدة ولكن الخوف يكون بها وبما تتصل به وبما يمكن فى العقل أن تتصل به؛ فكأن النفس قدر ركبتها رعدة.

(٢) هو نفسه مصيبة ثالثة..

وهم الحياة والسعادة

قال "الشيخ على": ولقد عرفنا الحياةَ ما هى، لأننا نحن أمْثِلة عليها، ولكن البحثَ فى معنى هذه الحياة لم يَنْتَه بعدُ، لأن هذا المعنى لا يزال كما كان فوقَ السموات، ولو استطاع الكاتبون من أهل العلم أن يَخُطُّوا فى كتُبهم بمداد من أضواء النجوم التى يَسكبُها الخُلودُ كلَّ ليلة على الأرض ملءَ محْبرة الليل، لكان عسى أن تستنير مباحثُهم فى ظلمات الحياة، وأنى لهم ذلك وليس وراء النفس الإنسانية إلا الذى هو وراء السماء، ولا وراء السماء إلا الذى هو وراء النفس؟

إلا فاعلم يا بنى أنه ما دام هؤلاء العلماءُ يتعاقُبون على تفسير المعانى الإلهية ولم ينتهوا بعدُ، فمعنى ذلك عندنا نحن الجهلاءَ أنهم لم يبدءوا بعدُ...

وما هي الحياة؟ أما إنها ليست طريقا مَسافتُه كذا، ولا قياسا ذرْعُهُ كذا، ولا وزنا مبلغُه كذا، ولا شيئا من هذه المعانى التى تضربُ الأقلامُ والألسنةُ فى مَفاصلها، بل هى فيما وراء ذلك من عال إلى بعيد إلى غامض إلى مُبهَم، حتى تنتهىَ إلى منبع النور الذى تلتطم على ساحِله مَوجْةُ الأبد.

وإن أبيْتَ إلا ما هو دون ذلك وُضُوحا وانكشافا وبْسطا فى التأويل فقل إنها فى كلمة واحدة: فتحُ السماء بفكر واحدة[1].

---

(1) يكاد يكون المخ مادة سماوية أو دعنها السماء هذا الإنسان تصل روحه - بها وتصله هو بروحه، فلو وقف على سر الحياة لفتح السماء، ولكنه يتقدم أبدا ليكشف عن الروح من ورائه.. فهيهات.

ولْتدْعنى يا بنىّ من لغة هذه الكتب، فإنها متى انتهت إلى السماء رأيتها أكثرَ ما تراها ألفاظا لا معنى لها، إذ ليس هناك من جلال الله إلا ما يشبه أن يكونَ معنى لا ألفاظ له.

ودعنى أحدِّثْكَ عن الحياةِ بما أفهمه- أنا الرجلَ الطبيعىّ- مِن فَلَقِ الصبح ومن رَوْعة الشمس، ومن إقبال الليل وإدباره، وبما أعرفه من هذه اللغة التى تُنزل بها السماءُ ما يتصل بنا من معانيها، لغةِ القضاءِ حين يَسألُ ولغةِ القدَر حين يُجيب، وبما اسْتَوْحِيه من معانى هذه الإشارات التى تتحركُ بها جوارُح الطبيعة، وهى مزيجٌ من لغة البقاء الأرضى الذى يريد أن ينتهى ولغة الخلود السماىّ الذى يريد أن لا يَفنى، فالحياةُ يا شاعرى العزيزَ لا تخرُج من الدواة ولا تَقْطُر من القلم، بل أنا أحسبُ هذا المدادَ الكثير الذى أراقه عليها الناسُ هو الذى جعلها كما يقول الناسُ سوداء...

ولا يكفى أن يعلم الرجلُ كيف يسوُق المقدّمات وكيف يُحْسنُ القياسَ وكيف يُخرجُ معنى من معنى حتى تكونَ النتيجة على توّهم والحقيقة على ما يقيسُ والصواب كما يستخرج. وفى علم الحياة خاصة- وهو العلم الذى لا مادة له إلا من الحوادث- أن بناءَ من المنطق لا يتخذه بيتًا إلا ساكنٌ من الخيالات...

ولستُ أعرفُ الناسَ قد غالوْا بشىء قط مغالاتهم فى قيمة هذه الحياة، فقد والله استجمعوا لها كلَّ ما فى الرغبة من الحرص، وكلَّ ما فى الخوف من الحذَر وكل ما فى الأمل من الترقب، وكلَّ ما فى الحب من الخيال؛ واستجمعوا فوق ذلك تلك المعانىَ التى لا قرار لها فى الأرض ولا فى السماء: معانى النظرات الوهمية التى يرسلها المخلوق من أرضه إلى عرش الله، كأنه لا يَجرؤ على أن يشكَّ فى نهاية الحياة إذ هى تنتهى

على أعين الناس، ولا أن يجزمَ بهذه النهاية إذ هو لا يريد الموت وكأنَ الحياة لا تكفيه.

وما دام للحياة غدٌ يرتقب وهو الذى يسمونه المستقبل، فكلٌ وهم يَسهل على الحقيقة أن تهلِكه أو تمرِضَه أو تضْعِفَ منه، إلا تلك المغالاة الممقوتة، فإنها أبدًا فى خِصْب وعافية ما بَقى لها غذاءٌ من ذلك المستقبل المحبوب.

قال "الشيخ على": وأنت إذا سألت رجلا عن مسئلة فسدّد الجوابَ وأحكم الصواب، قلت: هذا جوابٌ يَحْسُن السكوت عليه، ولكنك إذا سألتنى أنا: ما هى الحياة كما يفهم الناس؟ قلت لك: هذا سؤالٌ يحسن السكوت عليه... لأنّ للغة هى هى التى أسمتها (الحياة) واستخرجت لهذا الاسم العذْب معانيَه من أوهام الأحياء، وكم فيما وراء السماء من معانى تملأ الأبدَ ولعلها لا تملأ سطرا أو سطرين فى معاجم اللغة!

ولكن دع هذا وسلنى: ما هو الذى يقضيه الإنسان من يوم يولد فلا يقدر أن يَرفض هذه الدنيا إلى يوم يموت فلا تستطيع هذه الدنيا إلا أن ترفضَه؟ وما هو هذا المَهْد الذى يكثر شيئًا فشيئًا حتى يصيرَ فى الآخر قبرًا؟ وما هو هذا العمر الذى يمتلىء قليلًا قليلًا حتى ينتهىَ إلى الفراغ فيغيبَ فيه؟ وما هى هذه الحوادث التى تزلزل الناس[1] فى طريق القدر حتى يَخِروا على وجوهم فتتحول أجسامُهم فى الأرض إلى تراب فى طريق المنفعة، ويتحول تاريخهم ترابا على طريق الموعظة؟...

... سلنى كذلك يابنىَ أجِبْك: هذا الفناءُ المحترم، وهذا الشقاءُ المفِضىُ، وهذا الأمل الباطل، وهذا النَّصَب الضائع، وهذا العمل الذى لا يراد لنفسه

---

(١) تسوقهم بعنف، يقال: جاء بالإبل يزلزلها.

ولكن لما بعدة- كلّ ذلك هو الحياة؛ أفلا ترانا نخادع أنفسنا إذا سألنا عن الحقيقة التى يسوءُنا أن نعرفها فنُحرِف السؤال إلى جهة بعيدة لكيلا نرى الجوابَ الصحيح مُقبِلا علينا ولكن مُدْبِرًا عنا؟

فما عسى أن تكون هذه الآمال، وهذه المنافسات، وهذا النزاع، وهذا الصراع، وهذه الأفراح، وهذه الأتراح، وكلُّ ما إلى ذلك مما هو من مدلول الحياة- إلا باطلا نستمتع به قليلا ثم يظهر أنه متاع الغرور؟

ما عسى أن تكون الحياة بكل ما فيها إلا مدة محدودة على ظهر الأرض تجعلها أوهام الإنسان ومطامعُه وحماقتة وجهله وكبرياؤه كأنها الأبد كله؛ فيكدُّ ويكيد؛ ويعمل ويدّخِر، ويهنأ ويحزن، ويطمع ويحرص؛ على نسبة من ذلك لا من نفسه، أىْ نسبة أبدية لا إنسانية.

ألا إنما مَثل هذا الإنسانِ المغرورِ مَثل رجل جمع الله عليه المصيبتين فى باصرَته وبصيرتِه؛ فضلَّ فى مكان، فهو يُقبِل ويُدْبِرْ فى دائرة من فضاء الأرض لا يهتدى إلى الوجه ولا يذهب على السَّمْتِ، فيتوهم أن الطريق لا ينتهى وأنه وقع فى صحراءَ لم تَدرُسْها عكّازته... وليست من عِلم رجليه فى جغرافية هذه المسكونة... وكما لا تكون الطرق عند هذا الأعمى إلا عن عِلم رجليه، فأكثر طرق الحياة عند هؤلاء المغفلين الذين يَطمِس الله على بصائرهم هى من علم بطونهم، وما أدراك ما علمُ بطونهم..! وما رأت الحكماءُ أحدا قط جهل حقيقةَ معنى الحياة إلا وجدوا هذه الحقيقة فى بطنه... ولذلك قالوا: من كانتِ هَّمته ما يدخلُ جوفه كانت قيمتهُ ما يخرج منه...: وإنما البطنُ جوع فشبع وشِبع فجوعٍ؛ وعلى هذا القياس لا تكون حياة هؤلاء إلا جوعا فى الشهوات والآمال؛ فلا يُطفئه إلا ما يُسعِّره، ولا يجلب الراحة فيه إلا ما لابد أن يُرجِع التعب به، جوعٌ فى الشهوات والآمال بالعقل لا بالبطن، لأن علمَ الحياة عندهم علمٌ

بالبطن لا بالعقل، وكلاهما مُثلة بهذا الإنسان[1]، ويالله كيف يريد الإنسان أن يحيا كما يحبُّ ثم يحب مالا يتفق مع سنن الحياة؟

من أجل ذلك شَقى أكثرُ الناس بالعقل، إذ يقبلون به الأمورَ، ويحتالون منه الحيلَ، ويُكرِهونه أن يعمل على السُّخرة فى لذة الجسم، ويُحضرونه من همِّ الشهوات الحيوانية مالا قبل لهذا الروح الإلهى أن يَستكلب فيه[2]، وإذ يخضعونه بدلا من أن يَخضعوا له، ويسيرون به بدلا من أن يسيرَ بهم، فكان من ذلكَ طغيان الحواس وطمسها على الروح، وتعفيتها على آثارها الإنسانية، ولا جَرَم كان من وراء ذلك طغيان هذه الفوضى المترامية فى الاجتماع وانبثاقها بالشر من كل ناحية، وتداخلت حدودُ المطامع بعضها فى بعض فصار الناس كالأمواج: لا تقوم القائمة إلا من سقوط الساقطة.

وكان الناسُ يتعلمون كيف يَسبحون فى بحر الدموع ليأمنوا الغرق فيه وليستنقذوا الغرقى منه[3]، فجدّت بهم الحوادث حتى تعلموا القتال عليه وصار من لم يستطع أنْ ينقذ نفسهُ يجتهدُ أن يُغرق غيره.

الإنسان حيوان لولا العقلُ، فلما أخضع لشهواته العقل صار إنسانا لا حدَ له فى الحيوانية، فهو من هذه الجهة لا إنسان ولا حيوان وإن كان الشيطان مطرودًا من رحمة الله فخير ما يقال فى هذا الإنسان إنه شيطان فيه موضع للرحمة!...

---

(١) المثلة التنكيل.

(٢) أى يظهر من الحدة الحيوانية كأنما أصابه الكلب- بفتح اللام- وهو جنون الكلاب.

(٣) كناية عن المواساة فى الأحداث والمصائب والأحزان ومساعفة بعضهم بعضا، وهى من شروط الإيمان.

ولقد خلق الله هذه الحواس ولا ضابط لها إلا العقلُ يُحكم تحديدها ويتولىَ تسديدها، ويستعين فى أمرها بكلٍّ على كلّ" ومن ثمَّ يستقيم من هذا الإنسان شىء معقول، ويُصبح قد ضُربت عليه الحدودُ لايتعداها، ورُسمت له دائرة فى الإنسانية لا يجاوزها، فيقَرُّ كلُّ امرِىء فى حيِّزه وقد صار عنده من الناس وعند الناس منه وثائقُ من العقل وبينات من الحق إذا هو حاكمَ إليهم ضلالةَ منهم أو حاكموا إليه ضلالةً منه[1] وهنالك يرى كل عمل طيب ثواب نَفسه، لأنه هو من فضائله كأنه شريعةٌ لنفسه؛ ومتى كان العمل الطيبُ مما يجزئُ فى ثوابه عند الرجل من الناس أنه عمل طيب، فقد أصبح ولا غروَ من سعادته؛ إذ لو لم يجد به سعادة لما لقى منه ثوابا، وبذلك- وحده من دون كل الوسائل الأخرى- تصبح السعادةُ عملا من الأعمال يمكن أنه يُمارسه الإنسانُ فيسعدَ ما شاء الله أن يَسعد، ثم تكون الحياة على ذلك واجبات يقضيها، فإن تحققت أو لم تتحقق فإما دخلت على نفسه بسرورها وإما خرج منها بعذره وقد أبلى عُذرا.

ومتى صارت حياة رجل من الناس إلى أن تكون واجبات يَتنجزُها ويَستقضيها من نفسه، فما لشهوات البدن موضع إلا كموضع النار من يَدى

---

(1) متى لم يكن إنسان فى حيّزه وطغت به شهواته وأسرفت عليه حواسه، وانقطعت الصلة بينه وبين الناس من جهة أو من جهات، وحينئذ لا يجد فى الرذيلة معناها، إذ هي رذيلة فى تحديد الناس وفيما تواضعوا عليه من معناها وحدها، فيضع هو لها تعريفًا جديدا تكون الرذيلة فيه كل مالا يوافق هواه ولا يساعف أغراضه، ويصبح كأنه وحده هو دنياو كأن الناس دنيا أخرى، فكل ما اعترضه أو صادمه من مصالحهم ومرائد أمورهم عده عند نفسه رذيلة..

ومن ههنا ترى بعض «فلاسفة الشهوات» فى التمدن الأوربى الفاسد يعدون- حياء المرأة المحصنة- ضعفا، وعفافها مرضا من أمراض النفاق، ووفاءها لزوجها أثرًا من العبودية، ثم يرون الأديان كلها أوهاما يقيد بها الإنسان نفسه، ويتتابعون بمثل هذه الآراء فى كل ما اصطلح الناس على أنه فضيلة أو إنسانية، ولوهم حققوا ورجعوا إلى مأتى ذلك فى أنفسهم لرأوه أثرا من أعصابهم المريضة ولرأوا أنفسهم فى جنون الشهوات صورة أخرى من مجانين العقول..

المصطلى: لا يراد منها إلا حَرها، ولا يُطلب من حرها إلا قدر معلوم، ولا يبتغى هذا القدر إلا مدة بعينها، ولا تكون هذه المدة إلا بمقدار ما يصلح أو يَدفع الأذى، لا سرَف فى كل ذلك ولا هوانَ ولا مضيعة.

قال "الشيخ على": ولكن كل شر العالم يابنى فى لفظ واحد: هو طغيانُ الحواس؛ وبمعنى واحد: هو إذلالُ العقل؛ ولغرض واحد: هو هذا الموت الأدبى الذى يسميه المغفلون سعادة الحياة.

منذ طغت الحواس أصبحت الحدودُ بين مطالب الإنسان من فضائله إلى رذائله ولا أثر لها، لأن الشاطىء لا يُعرف تحت السيل إذ طم عليه[1] فما أنت ولا أنا ولا أحد يدرى ما هو حد الكفاية فى رَغبات هذا الإنسانِ وأهوائه؛ بل صارت هذه الكفاية وما ينطوى تحتها من ألفاظ القصد والقناعة والرضا وما إليها- ألفاظا خيالية يسايرُ ظلها ظل الإنسان، فلا حدّ لها ما دام هو لا يُثبت لنفسه حدا، ولا تتأخرُ ما دام هو يتقدم، وأصبح أكثر الناس فى رَغباتهم الخياليةِ وما يعملون لها مدةَ الحياة

---

(1) كل الشر فى هذه الدنيا أوما نعتبره شرا يرجع إليه نكد الإنسان وبلاؤه إنما يأتى من زيغ الحاسة فى فرد من الناس فتكون الطاقة محدودة بحدود كثيرة من قوة صاحبها ومن أحوال الناس ومصالحهم، ولكن الرغبة تجرى مطلقة متخطية كل هذه الحدود؟ ومن ثم يقع الاختلال بين مقدار القوة وغاية القوة، وبين الحقيقة الواقعة التى لا تتغيرو الحقيقة المتوهمة التى لا تتحقق، ولا يبالى الناس من ذلك شيئًا، لأن الحدود قائمة بينهم برسومها، والحقائق مقدرة بمقاديرها فلا يحل ضرر ذلك إلا بصاحبه لا بعدوه، وهذه مادة السخط والهم والنكد والتعاسة فى أكثر الناس حين لا يتحقق لصاحب الدرهم من قوة الملك فى درهمه ما يتحقق لصاحب الدينار من دينارة؛ ومتى ما طغت الحاسة، وفاتت مقدار الجهد والطاقة، وترامت إلى البعيد البعيد منهما كان هذا البعد هو بعينه مسافة انحراف الفضيلة عن نهجها وسبيلها فتخلفها الرذيلة على مكانها؛ وهنا عمل الإيمان وفائدته فهو تحديد الشهوات والرغبات والتخلية بين كل إنسان وحدوده التى بلغت إليها فضائله ومواهبه: فلسفة الإيمان والسعادة والفضيلة تجدها كلها فى قوله تعالى ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

كرجل ائتلى[1] أن يخط دائرة مركزُها ليس فى محيطها؛ فكلما رسم دائرة رأى المركز فى داخلها، فيجتاز به وراءَ المحيط ثم يُدير يَده، فإذا واحدة أخرى تقاطع الأولى ولم يصنع شيئا صحيحا مما يحاوله؛ ويمضى على ذلك ما شاء الله ولا يصنع شيئا، فلا هو يُخطىء رأيه، ولا هو يَرى من عمله شيئا صحيحا، وما بقى من الأرض فضاءٌ لم يخط عليه بعدُ فهناك.. هناك يرى الأحمقُ الدائرةَ المتوهمة التى يخرج مركزها عن محيطها..

من هذا ونحوه أصبحت السعادة وهما من الأوهام؛ إذ لم تَعد فى إشباع العواطف وتغذية الشعور، وليست فى موضعها الذى هو بين الضمير والعقل ولكنها فى إشباعَ جسد لا يشبعُ ما دام حيا، وفى تغذية حاسة لا يَزيدها الغذاءُ إلا شرها وضراوة؛ فلن تكتفىَ إلا إذا بَطلت، وفى موضع مجهول بين هذه الحواس لا حدّ له إلا كالحد بين ما يجدُ المعدِمُ وما يتمنى، فالسعادة على ذلك هى دائمًا فى الاستعداد للسعادة.. وكفى بهذا عبثا.

ولعمرى ماذا تكون الحياةُ، بل كيف تكون؟ أليس يعلم الإنسان أنه سائر إلى الموت، ويعلم كذلك أنه طالب ما لا يموت؟ فلا جَرَم كان شعوره بهذا التناقض مؤلما، وكان هذا الألم هو منشأة الهموم التى لا تدُعه لنفسه ولا تدع نفسه له، وكانت حقيقةُ هذه الهموم التى يجمعها كلها هى شعور الإنسان- شعورًا فطريًا جرى منه مجرى العادة- بالمنازعة بين ما يطلبه هو فى الحياة وبين الحقيقة التى تطلبه هو من الحياة، أى الموت، ومن ثم يضطربُ كيانه العقلى. فيؤثر كل شىء فى نفس هذا الإنسان تأثيرًا أكبرَ من حقيقته، لأن حقيقة هذا الإنسان لم تعد فى نفسه، بل فى مطامعه،

(1) حلف وألى.

فهو يا بنى كالوعاء المثقوبِ: تصب فيه البحرَ ولا يزالُ فارغا؛ والحياة عنده هى طلبُ الحياة، وكفى بهذا عبثا!

ولا تحسبن أنه لا يبالى بما مضى من عمره، بل هو يَستشعرُ فوق ذلك الخوفَ من أن يكون الذى مضى هو أكثرُ العمر وأطيبه؛ ولذلك لا يبرح شقيا بما يُحاول، إذْ يحاولُ أن يجمع طيباتِ الحياة ويستحوذ عليها فى القليل من عمره، ليستمتعَ بها فيما وراء ذلك؛ كأن الحياة التى قِوامُها من الغذاءِ لا تفارق الإنسان ما دام الغذاءُ فى بيته، وكأن اللّٰه يبيعُ المستقبل لمن اجتمع له من الدنيا ما يتوهم أنه يقوُم ثمنا للمستقبل.

لا يبرح هذا الإنسانُ شقيًّا، وهو ابدا من الهم والغيظ والتوقد واشتعال الأمل والاضطرابِ فى أسباب الحياة كالسكةِ المحماة[1]: يحسبُ ذلك من نفسه قوة وفضلا وسَعة فى الحيلة، ولا يدرى أن هذه النار المشبوبة فى صدره تقطع منه أكثر مما تقطع به: وأنها كما تعطيه قوةَ المضى فى هناتِ الحياة وهَيناتِها، تعطى الأقدارَ الصلبة مثل هذه القوة عليه، فلا تكاد تصدِمه من أى أقطاره[2] حتى يَتثلم ويتفلَّل.

وهل تحسبُ مثل يكون عِدادُه فى أهل السعادة، وهو من الحرص على الحياة يكاد يشمُّ ترابَ قبره فى كل حادثة تلمُّ به، ولا يزالُ يُصلب على كل باب من أبواب الأيام حين يفتحها الصباح وحينَ يُغلقها الليل، ويُرمى بالنبل المسموم من فُضوح الدنيا وشهوات النفس الدنيئة، ويُقتل ضميره كل يوم قِتلة الكذب والغدرِ والإثم، لأن ذلك من وسائل الحياة التى تبسط عليه الدنيا؟

---

(١) نصل يحمى فى النار فيكون ذلك أشد لمضائه.

(٢) أى من أى جهاته فى الحياة. كالصحة والغنى والأمن ونحوها.

وما ظنك بسعادة أولها حب النفس وآخرها بغضُ الناس، ومن مقدماتها منازَعة الفردِ للمجموع، ومن نتائجها منازعة المجموع للفرد، ومن مبدئها درس الشر علما، ومن غايتها مزاولةُ الخبثِ عملا، ولها اسم السعادة وفيها معنى الشقاء، ومن شروطها على صاحبها أنها لا تمتعه إلا بما يَمله، ولا تتبرج له إلا فيما لا يناله، ولا تُظهر للناس أبدا إلا ليروْا فيه رذيلة من الرذائل؛ ثم لا تكون مع ذلك موضعها إلا كالفقر فى موضعه: هذا يوازن بين نعم السماء التى تنزل على الضمير وبين هموم الأرض، وتلك توازن بين هموم السماء التى تنزل على الضمير وبين نعم الأرض، وآخر أمرها أن لا يعرفها صاحبها إلا على الضدّ مما يعرفها الناس: فهم يسمعون لها الأصوات العالية من الأمر والنهى والجاه وما إليها، وهو يعلم أن هذه الأصوات لم تخرج منها إلا لأنها كبيرة فارغة...

قال (الشيخ على): وبذلك يا بنى خسر الناس لذة الحياة، فلا أدرى أهم بشرٌ أم آلهة، لأنى أرى كلَّ حى كأنما يريد أن يَرمَّ صَدعا فى الكون، وأن يُصلحَ من هذه الدنيا ونظامها ما لم يَصلح له، ولماذا؟... لأن الدينار الواحدَ نواةٌ ذهبية، ولكن هذه النواةُ لا تخرج إنسان نخلة من الذهب...

ولماذا أيضا؟... ولأن أكل هذه النخلةِ حين تُؤتى أكلها لا يكون إلا مُرًّا!

ولكن أليس فى الأرض غيرَ المال ما يمكن أن يُستلذَّ وأن يسمى نعمة؟ وأين هى تلك السوق التى تعرض فيها النعم الهنيئة ويقف على جانبيها ملائكة الله يبيعون بالدرهم والدينار، يبيعون للمريض من أولئك الأغنياء عافية، والضعيف قوّة، والحزين مسرة، والخائف آمنا، والفزِعَ اطمئنانًا، والهرمَ شبابًا، والمهزول جسمًا رويًا؛ والميت رجعة أخرى...؟

ألا فليعلم الإنسان أن هذا العالم لا يصلح على غير ما هو عليه وما لابد منه لنظام الحياة، فسيأتى إن خيرًا وإن شرًا، فكلنا يسمى الصعاب التى تَعرض له فى طريق الحياة عقبات. لأننا لا نبصر ما وراءها ولا نعرف فى أى موضع تقرُّ من نظام الحاضر أو نظام المستقبل، وهى لو تعلمون وسائل لما بعدها، فما تراد لنفسها أكثر مما تراد لغيرها، وهى بأن تكون مقيدة بهذا أحرى من أن تكون مقيدة بذاك؛ ورب صخرةٍ حالت فى طريقك لتلفتَكَ إلى هاوية من ورائها، أو تتقىَ بها عدوًّا يدلف إليك من ورائك!

والأعرج الذى يتأبَّطُ سناده[1] ويتخذ منه رجلا تبدأ من الكِتف لا يكاد يعرجُ بضعَ سنين حتى يستفيض صدره ويكتنز عضله ويتفتل ويصبح لحيما بادنا كأنما جمع فى زنده حجمَ يده إلى حجم رجله التى رُمِى فيها، وكان مرهفا دقيقًا متهدّم الصدر بارز الأضلاع خاوى العروق مسموحا فى جملته، ثم أنت لا تراه إلا ساخطا متبرّما يكاد يتحطم غيظا ويلعن سِنادَه وما حمل... واليوم الذى حمله فيه، والسببَ الذى حمله به، ويرى كأن العرَج هو الذى قطعه عن شأوِ المعالى وكان سبَّاقا... ويظن عند نفسه أن هذا العرج قد جعله فى مشيته الممثل المضحكَ على مسرح الحياة!

ولا كلَّ هذا يا رجل، فهل نسيتَ ويحك أن الشُّعال كان ينفضكَ نفضةَ الموت، وأن البرد كان قد اتخذ من أضلاعك سقفا يأوى إليه، وأن الأمراض لم تبرح ترميك آونة بعد أخرى كأنها تلين عظامك القاسية للضجعة الأخيرة، وأنك كنت لا محالة هالكا تنفثُ رئتيك من شفتيك،

---

(١) وضعناها لهذه الحمالة التى يعرج عليها من أصيب فى رجله، لأنها تسانده

وتبصق روحك تحت رجليك، وأنه لولا الداءُ الذى يسمى العرج، لهلكت بالداء الذى يسمى السل[1]؟

هذه واحدة يا بنى، وما من واحدة إلا هى أختها، وحكمة الله لا تختلف، بل هى هى فى كل شىء وإن كنا لا نعلم، وما خُلق شىء عبثا، فتعالى اللهُ الملكُ الحق، ولقد أعرف أن ما لم يُقضَ لى فهو مقضى لغيرى، وأنه لابد أن أذهبَ فى هذه الحياة بقسط من مصائبها، لأنه جزءٌ من نظامها يتوقف على وجودى ويتوقف وجودى عليه؛ وهل أنا بَدن يملأ الأرضَ ورأسٌ طبَّق السماء، فيكون الفلكُ عِمامتى، والقضاء غَمامتى، وكل خير لهامتى؟. إنْ أنا يا بنىّ من هذا الناس فى أقدار الحياة المكتوبة إلا كالجندىّ فى العسكر نصبته الحرب آلة حية تحرِّكها ألفاظ وإشاراتُ من حيث تأتى؛ فهو يندفع إلى الموت ويَشوِى من لحمه على النار متى أرادت خِطة الحرب أن تنبعث وتتحرك، وإنما هو بجسمه وروحه وعقله نقطة صغيرة فى خط صغير من خُطط كثيرة مثلِه رسُمَت بها فكرة أمير الجيش على صفحة الميدان؛ فليس للجندىّ أن يسأل عند الحركة: لماذا...؟ إذ هو لا يجدُ عندئذ من يقول له :لأنّ...؛ ولكن متى أزفَت الآزِفة وُحقت النهاية بالنصر أو الهزيمة، رأى العملَ الذى وراءَه كأنما انقلب أحرفًا وكلمات يستوضِح منها فكرة القائد كما رسمها!

قال "الشيخ على": ومن الأسئلة فى هذه الحياة ما يولَد حين يموت جوابُه كما رأيت[2]، فهو حُمق من السائل ومضَيعة، لأنه لا جوابَ عليه، وربما اعتدّه الأحمق مُعضِلة من المعضلات وكَّد ذهنَه فيه وقصر هَمه

(١) انتهى الطب اليوم إلى معالجة الشلل بأحداث الملاريا.

(٢) أى فى مثل الجندى وسؤاله "لماذا؟" عندما يؤمر بالحركة الحربية.

عليه وجعل يلقى به الناسَ ويَفتَح له الأحاديث، وذلك سُخف لا يوجَد به الجواب الصحيح ولكن يضيع فيه السائل، إذ يستنفدُ من وُسْعِه وعمله وحيلتِه، ثم لا يرد عليه من كل ذلك سوى الخيبة؛ وهذا- أعزك الله- سر من أسرار ضيق الناس بالحياة وتَبرُّمِهم بأقدارها، لأن أكثر أعمالهم وآمالهم من جنس ذلك السؤال، فما أقلَّ من ينتهز مِن يومِه قبل أن يذهب يَوْمه، وما أكثر من يريد غدًا قبل غد...

ولكأنى بهذا الإنسانِ يود لو أسرع الفلَكُ فى دَورتَه وجعل يَرْتمى به المرامىَ البعيدة لينهب ما فى الغيب نَهْبًا ولينال الممكنَ كلَّه وشيئًا من المستحيل أيضًا... فيحيا بعد ذلك حياة طيبة عذراءَ لا تلد لياليها من مواليد الغيب قليلا ولا كثيرًا...

دونك آمال الناس فانظر هل تجد فى هؤلاء الحمْقَى من يَصُبُّ آماله إلا فى قالَب يسَعُ ضِعفيْها على الأقل، وهو يحسب أنه بتوسيعه لها يُخفى جانب الاستحالة فيها ولا يدرى أنه يُخفى جانب الممكنِ المعقول أيضا... يصبُّها فى قالَب التمنى، وما موضع التمنى فى عالَم الحِسِّ وفى هذه الحياة الأرضية التى لا تزال تضرب جِيلا بجيل، وتدفِنُ قَبيلا بأيدى قبيل، ويُهمِلُها الإنسان فى الكثير وهى لا تهْمله فى القليل؟ وهل التمنى أن تكون حوادث الحياة ما أريد أنا وما تريد أنت وما يريد فلان، إلا كما يتمنى كلُّ إنسان من هؤلاء أن تكون غيرَ نفسه، وكما يتمنى الطفل حين يُجيب معلمه خطأ ويعلم أنه أخطأ- أن يكون الجواب حقيقة كما أخطأ...؟

وقد يقال إنه ليس فى العلماء أحمق ممن يكد ذهنه فى ابتكار جواب غريب لمسئلة لا تقع لإنسان ولا يحتاج أحد إلى جوابها، فكذلك لم أر فى الجهلاء أحمقَ ممن يسأل الحياةَ سؤالا لا جوابَ

عليه أو لا يفهم الجوابَ عليه، كل ذلك حمق، وكل ذلك سخف، وكل ذلك عبثٌ وباطل، ولكن يا أسفا على الناس! كل ذلك أيضًا من مذاهب الحياة، وكلٌّ ذلك من الواقع!

فالناسِ من بين طامع جرىءٍ إن نفعته الجراءة ذهب بمنفعتها الطمع، وقانع ساكن إن أفادته القناعة ذهب بفائدتها السكون، ومتحيل على الغيب يستجمع له والواقع قد نفذَ فيه؛ ومتبرم بحاضره يبنى على السماء والأرضُ تهدم منه، وقليل من الناس المؤمن الوثيق الذى يشعر بقوة الله فى كل ضيق، فإن لم ينصره الله على الحياة لا يخذُ له فيها، وتراه لا يشك فيما يعرف ولا يريد أن يعرف ما يشك فيه، وهو يعلم أنه ليس شىء من المصائب والنعم يمكن أن ينزلّ فى غير موضعه المهيأ له، إذ ليس فى هندسة الله مكان مختل[1]، وإنَّ النعمة الصحيحة ليست فى لذات الإنسان الحىّ ولكن فى حياة هذا الإنسان؛ إذ الحياة الصحيحة هى التى توجِد اللذة، وأن القوة التى تسمو بالحياة حتى تسخر لها الطبيعة تسخيرًا إنما هى قوة العقل، فإن وهن العقل صارت الحياة طبيعة حيوانية لا لذة فيها مما خُص به الإنسان دون الحيوان من رَوح الله، بل تكون اللذة كل اللذة هى فقدان الألم أو إطفاءه إن تسعر[2].

---

(١) لو ان الله تعالى مد فى نظر الإنسان فاحترق الكون كله وأصبح إن يرم بعينيه يبصر كل ما وسعته الأرض. ثم بسط من سمعه مثل ذلك فعادت الأذن الانسانية وعاء لكل صوت يتكلم به متكلم أو يصبح به صائح فى كل ما وسعت الأرض. لو كان ذلك لما عاش الانسان لحظة واحدة. ولو عاش لكان من كثرة ما يرى ويسمح لا يرى ولا يسمع فكذلك هو فى الشهوات: يحدها الله بحدود من رحمته - فيما يوسع أو يضيق.. وما يعطى وما يمنع. ويأبى الانسان لحماقته وجهله إلا أن يمدها ويبسط منها أنواعا وفنونا وما يدرى أنه بذلك يزحزح الحجر الذى هو أساس بنائه شيئا فشيئا فيهنك نفسه ويفقد سعادته ويضيع إنسانيته ويخر على أسفله

(٢) من سنن الطبيعة أنها تجعل اللذة شرطا فى كل عمل لا يقوم الكيان إلا به، فإذا لم يحدث هذا العمل ضربت الآلام على الجسم. فالطعام ضرورة من ضرورات الحياة إذا فقد كانت آلام الجوع. وإذا =

وتالله لو أفرغت طيبات الدنيا فى جوف هذا الحيوان الإنسانى الذى وصفتُ لك ممن يسمونهم الأغنياء والمستمتعين وأهل الحظ والهناءة، ما زادت فى لذته على ما يكون من إفراغ حَقْل من البرسيم فى جوف حمار..؟

قال "الشيخ على": وكما يفقدُ أكثر الناسِ السعادة فى كثرة الاستعداد لها والإغراقِ فى وسائلها، يجدُها بعضهم فى إهمالها حين لا يبحث عنها ويذهب باحثًا عن حقيقة الحياة.

ويا عجبًا للناس! كأنهم ملكوا الأعمار، وضَمِنوا لأنفسهم دولتى الليل والنهار، فقلما يفكر أحدهم إلا فى زادِ الدهر البعيد والحياةِ المتطاولة والأمدِ الواسع، وهو لا يرتابُ فى أنه لا يعيش غير عمر واحدٍ محدود، ولكنه لا يدرى أنه يحمل على نفسه من تلك الأطماع شقاءَ بضعةِ أعمارٍ طويلة عالية السن ويسوقها بين يديه طالِعة عرجاء تطلبُ السعادة فى طريق لا آخرة له، فهى تسير لأن بين يديها غرضا ما ينفك مِاثلا على بعد منها، ثم تنبعثُ لأن الطريقَ لا تنتهى، ثم تقف عاجزة لأن الحياة قد كلت، ثم تقعُ وما بها حركة لأنها انتهت إلى الحفرة المجهولة التى تنشقُّ تحت قدمى كل إنسان فى الساعة التى هو رهن بها ولو كان طريقه فى النعم واللذات على وادى الجنة بين الشمس والقمر!

كل شىء ما شئتَ أن تتوهم، ولكن الحياةَ هى الحياة: هى الحقيقة التى تريد أن تعرفَ، والمدة التى تعمل على أن تنقضى، والمعنى الذى يطير حوله الأقدارُ وتقع لتلفتَ الناسَ إليه، هى الحياةُ التى لا تتسعُ لأكثر

= تيسر كانت لذة الأكل، فكأن هذه اللذة ليست فى حقيقتها شيئا غير انطفاء الألم. وقس على ذلك.

من قضاء الواجبات، ولا تحملُ جسدها إلا ريثما تبليه، واسمها الحياةُ ومعناها النجاح؛ وهى الحياةُ لا المالُ، والحياةُ لا الشهواتُ، والحياة لا المطامع، وإنما قيمةُ الحياة فيما فيه نذهب لا فيما يذهب بها، فكل لذة لا تجد لروحك أثرا فيها لذة ميتة، وحقيق بك عناها أن تحسب أن شيئًا من عقلك أو من فضليتك قد مات فيها[1].

ولقد نقلوا فى أساطير الأولين عن "ميداس" أنه بلغ من فرطِ الغنى أن لا يلمس بيده شيئًا إلا استحال ذهبا، فأرادت آلهةُ الخرافات أن لا ينخدع الناسُ فيه ولا يَسحرَ أعينهم أو يسترهبهم، وأن يعلموا أنه إنسان، وأن فرطَ الغنى مُثلة به، فسمخ "أيولون" أذنيه فكانتا... أذنى حِمار... ولعل فرط الغنى يا بنىّ لا يكون فى الأعمِّ الأغلب إلا مع هذه الآذان،... وما أملحها نادرة وأبدعها إشارة وأحكمها مُلحة! فإن كل ما فى الحمار لا بد منه لتكوينه حمارًا سويًّا، إلا أذنيه الطويلتين[2]؛ فلو حملها إنسان كميداس رُزِقَ غنى الحيوانية فهما برهانان على أنه ليس بإنسان صحيح ولم يستطيع أن يكون شيئًا حتى ولا حِمارا من الحمير!

وأىُّ شىء هذا الغنىُّ يأكلُ ويتمتع ولا يرتعى من لذات الحياة إلا

---

(1) السعادة فى رأينا: هى كل ما استشعرت النفس أنها زادت به أو زادت فيه، وهذا التعرف يجمع كل انواعها لا يشذ منه شىء على ذلك تكون فى الأخذ وتكون فى العطاء ألا ترى الأصل الطبيعى فى الحب يجعل سعادة ما يناله المحب من حبيبه كسعادة ما يبذله له: حتى أنه ليبذل روحه فى ذلك إذا علم أن نفسه تزيد بها شأنا عند من يهواه؟

ومن هذا فالتعاسة فى كل ما استشعرت النفس أنها نقصت به أو نقضت فيه ومن ثم فكل فضيلة هى من السعادة وكل رذيلة هى من ضدها ولو كان الالم والحرمان فى الأولى وكانت اللذة والمنالة فى الثانية، وهكذا قال الشيخ على.

(2) يتنابز الناس بأذنى الحمار الطويلتين ويجعلون طولهما مسبة، ويقولون مثلا: فلان حمار بأربعة آذان؛ وماذا لو نقص الحمار طويل الاذنين؟ لا شىء إلا اعتبارًا أدبيا يخدع الناس فيوهمهم بأذنيه القصيرتين المرهفتين أنه يشبه الجواد الكريم فى حى هو لا يشبه إلا... إلا البغل العقيم...

الخضراءَ الناضرةَ، وقد سُلط على هلكةِ مالِهِ أو سُلط ماله على هلكته[1] فإن ذهبتَ تعتبره إنسانًا لم تر فيه من الإنسان إلا النصفَ الأسفل...

أهو حيوان؟ فأين عمله الطبيعيُّ إذن، فإنى لا أرى هذه الحيوانات[2] كلها إلا عاملة لنظام الطبيعة كما تعمل الطبيعة لها.

أم هو إنسان؟ فأين عمله الاجتماعيُّ الذى يُسْنى منزلته إذا أصبح الناس على منازلهم، وأين الحدُّ الإنسانيُّ الذى يصله بمجد الماضى أو يدل عليه فى عمل الحاضر أو يُلحقُه بأمل المستقبل؟

إن الطبيعةَ يا بنيَّ لا تُغفِلُ خطأ ولا تَنسى مُذنِبا ولا تصفحُ عن إساءة، ولكنها تضربُ بيدٍ ألطف مَسًّا من الهواء وأخفَّ موقعا من الضَّوءِ، على حين أن صفْعتها زِلزلةٌ لا يقوم لها بناءٌ حىّ؛ فلو أن مثلَ هذا الغنى قد أعطى مَعدَةَ حمار أو أعصابَ بغل أو قوةَ فيل أو نحو ذلك. لتمَّ تمامُه بالمال فوجد فى هذا المال مَسَدَّ حاجته كيف مَسَسْ، غير أنه أعطى شَرَهَ الحمار دون معدِته، وأعطى فى هذا الباب من البغل والفيل وغير البغل والفيل دون ما يَحمِلُ ذلك وما يبعثُ عليه، فكأنما مُسِخَ من باطنه مَسخًا على حينِ أن طبيعتَه الإنسانية لا تخلو على هذه الأبواب من هذه الشهوات[3] ولا تَصلح بها ولا تَطْعَمُ فيها من الحياة. وقد حدّثوا عن امرأة من ذوات النعمة الفاشية فى أمريكا اتخذت كلبا فوقع منها بموضع محبةٍ شديدةٍ، فاستصفتْه وتحَفَّتْ به وذهبتْ كلّ مذاهبها فى ترفيهه وفتحتْ عليه من دنياها العريضة، فتَصَّت له السرير؛ وفرشت له الحرير وأبدلته

---

(١) يريد أنه متلاف أو شحيح.

(٢) لم يعرف العرب الحيوان بالمعنى الذى نعرفه به ولم يجمعوه على حيوانات وإنما ذلك على قياس كلامهم فهو إذن من كلامهم.

(٣) أى لا تقوم عليها ولا تصح بها.

سماع الموسيقى من سماع الهرير ومنعته العظمَ يُعالجه ويَقرضُه، وحرَمته على الجوع يُقعِده ويُنهِضُه؛ وما زالت به ترأمُه وتحنو عليه. فإذا هو يَذوِى ثم يضعف ثم يمرض ثم هلك؛ وكانت المرأة كأنما تقتله بالنعمة شرَّ قِتلة. وتصبُّ عليه العذابَ صبًّا من ألوان ذلك النعيم؛ فكيف بصاحبنا الغنى حين تُبالغُ الطبيعة فى ترفيهه على ما يشاءُ له الهوى من سُنةِ الحمار والبغل والفيل وجماعِتها كما بالغت صاحبةُ الكلب فى ترفيه كلبها على سنةِ الإنسان؟

قال "الشيخ على": الحياة يا بنى مدةٌ، والمدةُ ضائعة لولا العمل، والعمل على مقدار المنفعة، والمنفعة بآثارها وهذه الآثار هى تاريخ الحياة، فالأحمقُ الشَّرِهُ الذى يعيش مقبورا فى باطنه، والغنىّ اللئيم الذى يعيش مقبورا فى خِزانته، والفاسقُ العاهر الذى يعيش مقبورا فى رذائله ومخازِيه، والدَّنىءُ السفْلةُ الذى يعيش مقبورا فى جرائمه وآثامه- كل أولئك لا تاريخ لحياتهم ولا حياةَ لتاريخهم؛ فهم أناس خلقوا بخصائصهم لتمثيل ألوان العذاب وأصنافِ العقاب؛ يقع ذلك عليهم من الله ثم يقع منهم على الناس، وإنما يُعان المخذول منهم على احتمال أمره بما هو فيه من الغرور وما يُطوِّعُ له؛ وما كان الغرور وصاحبُه فى عاقبة الحياة ورَجْعِ الأمر كرجلين من الحَمَقى ضمهما طريق فاصطحبا، ثم أفضى بهما السير إلى جبل قطعَ عليهما، فقال أحدهما لصاحبه، أنى أراك شديدَ الأسْر قوِىَّ البضعة، وما أرى إلا أن تحملَ هذا الجبلَ وتلقِيه بعيدا من هنا، فلا مذهبَ لنا إلا من ورائه... قال له صاحبه: أما إنى كما وصفت، وإن بى لقدرة على حمله، فما عليك انت إلا أنت تضعه على ظهرى[1]!...فلا الحامل

(1) سألنا بعضهم عن هذا المثل ومأخذه يظنه منقولا؛ فهو من كلام "الشيخ على" وقد وضعنا أمثالا فى كتابنا "المعركة".

أطاق فحمل ولا المعُينُ استطاع فأعان، وإنما هما كحمارى العِبادىّ الذى قيل له: أىُّ حماريك شر؟ فقال: هذا ثم هذا... وهكذا يُعين الغرور على طلب الدنيا ويُزِّين للمغرور فلا تراه أبدا إلا على زينة من أمره[1] حتى تذهب الحياةُ فى باطل كالحق أو حق كالباطل، فإذا حَسَمَ الموتَ عنه مادة غروره وجاءه باليقين الذى لا مِرْيةَ فيه؛ قال: ويحى! لو رجَعْتُ لعلى أعملُ صالحا فيما تركت؛ وآهِ لو عرفت حقيقةَ الحياة قبل الموت، أو عرفت حقيقة الموت وأنا بعدُ فى الحياة!

أيها المغرور! ما أراك إلا دائبا فى طلب الحياة حتى تفقدها من شدة الطلب فلا تكاد تستوضحُ ما هى؛ فإياك وإياها، لا تأخذ معنى الحياة من نفسك إن لنفسك أغراضا حية تريد أن تكونَ هى الحياة؛ ولا من الناس، إن فيهم أغراضَ نفسِك؛ ولا من مدة عمرك، فإنها لا تبلغُ طَرفة واحدة من عين التاريخ.

ولكن أعدْ نظرا على ما وراءك وخذ معنى الحياة من ستة آلاف سنة عُرفت من تاريخ الحياة نفسها[2]، ثم من عمر الأرض كلِّه، ثم من تاريخ الموتِ المجهول أوَّلهُ وآخره؛ خذ معنى الحياة من هذه الأفواه الصامته التى لا تكذب لأنها تحفظُ الحقيقةَ الإنسانية؛ من هذه القبور التى تملأ الرَّحبَ؛ من هذه الهاوية التى ينصَبُّ فيها فراغُ الحياة دائما دائما لأن تحتها مجرى التيار المتدفِّع من النهاية الأرضية المعروفة إلى الأبد الذى لا تُعرف له نهاية، خذها من هذه الكلمة التى وضعتها السماء للأرض، وهذه الكلمة الأزليةِ التى تحقق الإخاء والمساواةَ فى الناس جميعا بلا

---

(١) أى فرحا بما لديه.

(٢) الغرض: من التاريخ العمران، وهو فيما كشفوا لا يتجاوز هذا الدهر أمامدة ما قبل التاريخ فيقدرونها فى الحياة الإنسانية بنحو مئتى ألف سنة، أكل إنسانها التاريخ فيما أكل.

شُذُوذ ولا تأويل، الكلمةُ التى يكون القبرُ زاوية فى معناها، كلمة الله عز وجل فى قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

أيها المغرور. خذ الحياة حقيقةً لاوهما، وعملا لا علما؛ واسمع للحياة إن كنت تعرف لغتها، أو اسمع للموت الذى يعرف كل إنسان لغته، فإن كل ذلك يعلمك أن الرجلَ الحرّ لا يعرف على أى حالةٍ يعيش إلا إذا قرّر لنفسه على أىّ حالة يموت: وأن الحياة ليست فى الوجه الذى توجَد عليه من الغنى إلى الفقر، ولكن فى الوجه الذى تنتهى عليه من العمل الصالح إلى العمل السيىء؛ وليست فى ترفيه الحواسّ الغليظة، ولكن فى النفس والضمير: الضمير النقىّ، لثواب الدنيا وجمالِ الحياة ولذة الخير؛ والنفس الطاهرة، لثواب الآخرة ونضرةِ الخلود ورحمة الله.

قال "الشيخ على": فلا تسأل يا بنى ما هى الحياة؟ ولكن سل هؤلاء الأحياء: أيُّكم الحى؟...

سحق اللؤلؤة...

قال "الشيخ على": وإنى محدّثك الآن حديثًا يَشفى نفسك من الخبر، ويفتح عليك أبوابًا من العبرة والموعظة ويُحضرك طرفًا من الدنيا بأقداره وعلله ومذاهب حكمة الله فيه كأنما أنت شاهدُ أمره؛ فلتعلَمَن أن المالِ مشغلةٌ عما سوى المال، وأنّ الحرصَ عليه حقَّ الحرص لا يداخِلُ أمرًا من أمور الحياة فيعترضَ بين وردِه، وصَدَره الإساءَ أحدهُما أو كلاهما[1] وفسد الأمر فعسى أن يتصل بما هو أجلُّ منه خطرًا وأسنى منزلةً، فلا يكون ذلك الحرصُ إلا مَضيَعةً "ولا تكون الرغبة فيما يستخلف إلا سببًا فى ذَهاب ما لا يستخلف.

ولتعلمنَّ أنّ المال شىء غيرُ الحياةِ، وأنّ الحياةِ شىء غير المال، وأن ما يختدع الإنسان فيتلوَّن له من سَراب هذه السعادة إنما يكون أكثر ما هو كائن من بريق المال يَحسَبُه شيئًا حتى إذا جاءَه لم يجده شيئا؛ وعسى أن لا يكون فيما أقبل من نعيم الدنيا إلا ما يدبِر بصاحبها، وأن لا تصيب فيما زوِى عنك من حظها إلا ما يُقبل بخط نفسِك على نفسك.

ثم لتعلمّنَ أنه إن كانت للقدَر فترة عن رجل من الناس فقيرا أو غنيًا أو وبين ذلك، فما هى غفلة ولا مَعجزة؛ ولعل الرجل إنما يُمَدُّ له فى الغى مَدًّا طويلا حتى إذا جاء يومُه انفجرَ عليه بما لا يطيقُ له سدًا ولا يستطيع له ردًا- وأنه رُبَّ كلمةٍ تعارف الناس معناها وأجْرَوها على مذهبها فى كلامهم فإذا هى نزلت بعضَ منازلها من الحياة كان لها معنى آخرُ لا تفسره

(1) أى الورد والصدر، وهما كناية عن مبدإ الأمر وغايته.

إلا الحياة نفسُها، ثم لا تفسره إلا على ضدِّ مأخَذِهم ومقصدهم؛ فيقول الناسُ "فلان الأمير" ومعنى ذلك فيما نراه من حوادث الحياة وأقدارها فلان النَّذل؛ ويقولون "هذا الغنيُّ" ومذهبُ الحياة أنه الشقيُّ بغناه؛ وفلان أعزه الله وإنما هى أخزاه الله بعزه؛ ويحسدون فلانا إذ يرون أن الله عز وجل قد مكن له وآتاه من بُسطةِ المال والجاه فهو يستعدّ للحياة بأفضل عُدّتها ثم تقع الواقعة ويتغشى فلانًا هذا ما شاء اللّهُ من الحوادث والأقدار فإذا هو إنما كان يستعد للموت بأقبح عدته!..

ولتعلمَن كذلك أن الغايةَ من هذه الحياة كمالُ الحى فى جسمه ونفسه، فإن تم بالفقر فذلك غناه، وإن نقَص بالغنى فذلك فقرهُ، ولا شأنَ لاصطلاح الناس فيما هو خاص بين المرء وذات نفسه؛ وهذا معنى بسطتُه لك آنِفًا ولكنى متلقيك بمثاله من رجل وامرأة، ولا عليك أن لا تسمعّ حديثًا عن الباشا و"هانمه" أو أبى زيد وأم الخير، ولا على أن أحيئك بالمثالين على باخِرة[1] أجعلُ ذلك من صَرفْ الكلام وتزييِنه[2] وما بلادنا من هذه المخازى بمنتزح، ولكنى أردت إمتاعَكَ من لذة الحديث على مقدار إمتاعِك من حكمة الحادثة؛ والكلام عن رذائل الحياة فى بلادنا هذه كلام غَث يتجافى عن الرقة فى أكثر مَناحيه، وإذا وجهته إلى أكثر قومك فإنما أنت تشتمهم به أوهم يتلقونه من هذه الجهة، ولا مَناصَ أن تقعَ بك ظِنَّة السَّباب وإن كنت واعظا، ويقالَ عاق وإن كنتَ بَرًّا، وغاش وإن كنتَ من الناصحين.

(١) من خارج البلاد، لأن الرواية عن (فكتور ولويز)

(٢) صرف الكلام: أن يزاد فيه ويحسن.

الاجل البخيل

أما فلان هذا فهرِم بخيل لو مسخ حجرًا لتحطمت من غيظها الأحجار، ولو كان على بخله حديدًا لما لان الحديد فى النار، ولو صوره الله طِينا أجرف لما طن فى يدِ أحد على نَقْر، ولو خلقه مرة أخرى من تراب لما جمع هذا "التراب" إلا من ثياب أهل الفقر...

وهو نبئ أمة البخل؛ أما معجزته فهى قدرته على أن يستنبط غير المألوف مِن المألوف، ويستغل الصفر فيخرج منه ألفًا إلى ألوف وإنه على ذلك لآية، فما رآه المؤمنون إلا قالوا: اللهم غَفْرا، ولا رآه الجاحدون إلا زادوا عتوًا وكفرًا.

وكم تمنى وهو يتهالك حرصًا أن يكون كإبليسَ فى أنه لا يموت إلا متى هَرِمَ الدهر، ولا يذهب من الأرض إلا حين لا يبقى فى تاريخ الأرض ولا شهر، وإذا خَوفتَه الموتَ والحساب قال ويلك دعْ عنك، وإذا عَلم أنه سيعطى كتاب أعماله فى الآخرة قال ياليت صحفة من "ورق البنك"!

على أن دِرْهمه فى أيدى الناس هم واسمَه فى أفواههم سَمّ، وكم لأمواله من قتيل فمن (استلَفَ)؛ فقد ذهب به التلف؛ ومن اقترض؛ لقد انقرض!

وكم من بائس قشعَت غمامته، ثم غالت هامته[1]؛ وقضت دَيْنَه، ثم أبكت عينه، فو الذى نفسى بيده إنّ دراهم هذا الخبيث لتُعدّ من اللصوص، وإنها لَلئيمةٍ على العموم أما هو فلئيم على الخصوص؛ يرسل الدرهمَ فى يدِ المحتاج فيذهب فيه دينارُه، ويقدح فكرَه الملتهبَ فلا تقع إلا فى

(١) أى قتلته، والمعنى أنها تنفس كرب المحتاج حينا ثم تكون له كربًا لا نفس فيه، لأنها دراهم تأكل دنانير، ودنانير تأكل أرضا

بيوت الفقراء ناره، ولو كان مخلوقًا يوم عَرَضَ الله الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبَينَ أن يحمِلْنها، لحمل وحده الأمانة؛ وإذا كان مبلغ القول فى وصف كل غنى كريم أنه "صراف" فى خِزانة الله فجهد القولِ فى هذا اللئيم أنه لصّ الخِزانه[1]!

وهو على غِناه كأنه فى الناس بؤس المفْلس فى القِمار. وكأنه لحِقارته ذيل الحمار؛ إن طلع عليهم فطالع زحل، وإن غاب عنهم فوباءُ رَحل، ومتى ذكروه، فكأنهم نكروه، وإذا قضى عليهم أن يسموه فكأنما شتموه. وإذا وصفوه قالوا وجع الأظفار، وذنب بلا استغفار، اللهم قِنا عذاب النار!

أما وجهه فلو أنزل الله مرآة من السماء فنظر فيها لصَدِئت من قبح خيالِه، كصدأ ذلك المخزونِ من ماله؛ وأما روعته فلو خرج على الحسانِ لا بتلاهن بما يفجأ الظباءَ من رؤية الفهد، وامتلكهن بما يعترى المرضعَ إذا كشفت عن طفلها فأبصرت الثعبانَ فى المهد؛ وأما جهامته فلو نظر إليه البدر لغرَب، ولو اطلع عليه الفجر لهرب، أما روحه الخفيفة.. فلو بعثتْ خلق آخر لما كانت إلا بَقة صيف، فى رقبة ضيف، أو بعوضة تسلعُ العاشقَ المهجور فتوقظه وقد ظفر بالطيف، وحياتُه كالبلاء المحتوم، وغناه كالكنز المختوم، أما هو فكالقبر الكتوم.

وأحسب لو رسمه أمهر المصورين بأبدع خططه[2] وألوانه، وأنطقه من عينِه وعنوانه، وجعله آية فنه وافتِتانه، وترك من يراه لا يحسب إلا أنّ المصور قد سرقه، أو أن الله تعالى مسخه على ورقة لبقى مع ذلك فى

---

(١) الغنى الكريم الذى حق الغنى عليه إنما يعرف أنه مؤتمن على مال الله لانفاقه فى وجوه الخير على نفسه وعلى الناس، ولكن البخيل يدخر ولا ينفق، وقد ظن بعضهم أن الصراف عامية عربيتها "الصيرف" ولكنهما صحيحتان فصيحتان.

(٢) أى الخطوط.

رسمه مغمز لاتصلِحه إلا يد الشيطان الرجيم! ولا تلونه إلا شعلة من نار الجحيم.. ومن للمصور بشرارتين من الصاعقة ينزلهما فى الرسم لتظهر بهما عيناه[1]، ومن له برقبتى البخل والرذيلة يطبق عليهما يسراه ويمناه، ومن له بلونين من غضب الله ونقمته يظهر بهما فى الصورة معنى فقره وغناه؟

ولست أطيل فى القول، فما أنا ببالغ من القول بعض صفاته وهَيهاتَ أن يصفه على الحقيقة إلا من يعلم لغة الملائكة فينقلَ إلى لغة الناس كتابَ سيئاته. قال "الشيخ على": ذلكم هو "الكونت فيكتور" رجل أملق أموال الناس وزادها فى ماله، وجمع بين سوءِ حملِ الغنى وسوء حمل الجاه، وعرفَ النعمة ونسى المنِعم بها، فكأنما فتحَ الله عليه من هذه الدنيا ومكّن له فى أبوابها وافشى جاهَه ونعمته على ما ابتلاه به فى خاصة نفسه من المحق، ليجعله واحدا من أولئك الذين يُخرجُ للناس من تواريخهم قصصًا فى الأخلاق محكمَة السبكِ فى نسق التأليف الإلهى المعجز الذى يأتى بالحادثة فى موضعها حية وميتة، ويُنزلُ الكلمة فى مستقرها من الموعظة ولو أن فيها ذهابَ نفس وإدبارَ نعمة ويُديرُ المَثل والفلك بأسلوب واحد.

وقد أسند هذا الرجلُ فى حدودِ السبعين وكادت تحطمهُ السن، ولا يزال متأبِّدا[2]، ولم يستر سقفُ بيته امرأة؛ ولا ضحكت الشمس فيه على وجنة طفل يتبسم وقد نشأ على أن حب المال لا يستقيم إلا ببغض النساء، أنه أكثرَ ما يُجمعُ لهن وأكثرَ ما ينفقُ عليهن، ولا يرى المرأة إلا

---

(١) أى جعل خفيات نفسه ودخائل طباعه ظاهرة فى نظره ومعارف وجهه من الصورة. وعنوان الشىء: ما استدللت به مما يظهرك على حقيقة هذا الشىء

(٢) يقال: تأبد. إذا طالت عزبته وقل أربه فى النساء، ويقال: حطمته السن إذا أبلاه الهرم.

أنها "ثورة مالية" و"سوق فى البيت"، و "أزمة يحتالُ الرجل للخلاص منها بالوقوف فيها.. ويقول إنها منذ أكلت من الشجرة الملعونة فى السماء جعلت الرجل شجرتها الملعونة فى الأرض، فهو ما عاش ينبتُ وينمو وهى ما عاشت تحصُد وتأكل...، وقال مرة: إن الرجل لا يزال عاقلاً حتى يتزوج، فإذا هو فعل فقد صار من زوجهِ وأولاده سلسلة بطون... فقيل له: ولم لا يكونُ يومئذ من زوجه وأولاده سلسلة عقول؟ قال: إلى أن يصبح أطفاله القدماءُ رجالا يكون هو قد صار طفلهم القديم!...

وجاءه يوما سمسار يساومه في أرض له وجعل يراوغه ويترقى إلى خديعته بما أوتى السماسرة من خبث ودهاء، ويُقبِل به مرة يدبر به مرة، والكونت فى كل ذلكَ يعبث وينمى له[1]، ثم صرفه على طمع كاليأس، فلما ذهب مدبرًا قال: ويحى! لو أن هذا السمسار كان امرأة جميلة إذن لأدارني فى يده كما يرقص الدينار على الظُّفر، فالحمد لله إذ خلق النساء على نظام رحيم فجعل فى هذا الشر المحتوم موضعًا للهرب...

ولما بلغ الخمسين- بعافية من الله- قال أحسبنى لو كنت متزوجًا يوما فإن امرأتى فى هذه الساعة تلتقم ثديَ أمها... فسأنتظر حتى تصلحَ لى! فأجابه بعضهم: وحتى تصلح لها أيضًا!...

وتواصفوا عنده الجمالَ مرة وأفاضوا فى حديث النساء والنعمة بهن- وقد تعالم الناس ذلك البغضَ منه- فلما أضجروه قال: حسبكم يا قوم، ما أراكم إلا تخلقون إفكا إن هذه المرأة فى حقيقتها غير تلك المرأة فى وهم الرجل؛ فهى هى حتى يبعث عليها وهمه ويصبغها بألوان نفسه وتستضىء به فكأنها منه أمام الفانوس السحرى!... إن المرأة خصم عنيد

(١) يتركه فى قليل الخطأ حتى يبلغ أقصى الخطأ.

لا يقتل بالغضب ولكن يَقتل بالضحك، وشر ما فيها أنها لم إن لم يكن منها قتل فليس معها حياة[1].

تقولون إن الرجل محتاج إلى المرأة، فقد كان ذلك أيام كانت المرأة كأنها فى عملها للرجل رجل آخر... فتلك حاجة اليد إلى اليد، وحاجة الظهير إلى الظهير، ولَهِىَ مناقلة طبيعية فى الجنسين بين قوة تحتاج إلى ضعف يخفف من سَورتها، وبين ضعف يحتاج إلى قوة تشدُّ منه؛ فلو كان للعالم كله رجالا؛ إذن لطالت أنيابهم كثيرًا ولما وجِد على الأرض من يخترع مقصًا للأظافر.

أنا لست أنكر أن المرأة شىء طبيعى، وما هى بهولة من الهوَل[2] ولا مَسخ من المُسوخ، ولا أنا آسِفٌ على خروج آدم من الجنة بذنبها؛ فإنى رجل اقتصاديّ، ولقد كان من هذا الذنب رأس مال كبير، فإيا كم وإياىَ، لا تظنوا أنى أكابر أو أمارى، ولا تحسبونى جِلفًا يكره الجمال ويريد أن يكون للمرأة بديلا من رأسها النحيف المكلل رأس جاموسة... وبدلا من يدها الرخصة الناعمة ظِلف بقرة[3]... حسبكم ياقوم- حسبكم الله- لا أطيق هذا العبث بى، ولكنى أسمعكم تقولون المرأة وتصفون المرأة ولا أرى المرأة نفسها كما تحدِّثون وتصفون، بل أرى مخلوقة غريبة الأطوار فى هذه المدينة، وأرى خَرقاءَ إن لم يكن معها الإفلاس فلا أقل من أن يكون معها النَدَم أو الغيظ أو السخط، وربما كانت بلاءً ماحِقًا يُزَف إلى الرجل يوم زواجه باحتفال... يُخيّل إليها من الفكر فى المال أن الرجل هو مال

---

(١) يريد بالتى لم تكن منها قتل: المرأة لا تكون جميلة وفاتنة، فاذا هى لم تكن جميلة لم تطلب معها الحياة فى رأيه.

(٢) الهولة: كل ما يفرغ به الصبيان.

(٣) انظر كتابنا "السحاب الأحمر".

أيضًا، وتريد أن تتزوج، ولماذا؟ لأن المحراث لا يلتمع نَصله إلا بعد أن يجدوا له الثور..امرأة متأنفةٌ لا تريد أن تطلع الشمسُ كل يوم على زِيٍّ جميل ليكون لزوجها كل يوم همّ جميل، ثم هى أحسنَ ما تكون حين تخرج من بيتها كأن بيتهُا منخل لا يُمسكُ منها إلا الحُثالة!..

إننا ياقوم لقاء المرأة لا تلِقاءَ مُعجزة من معجزات الأنبياء فنحن نستطيع أن نقولَ هذا خطأ فيها وهذا صواب منها، ولكنها على أى أحوالها لا تريد أن نكون معها أبدا إلا على حالة واحدة؛ تريد أن تشبهَ نفسها، لأنها لا ترى أكملَ من نفسها؛ أما الرجل فهو إذا رأى فيها نقصًا فذلك عندها لأن عينه عين رجل وتكاد أهدابُها بها تكون من شَعر اللحى والشوارب[1]... فمن ههنا لا يرى الخبيثُ تلك الحسنات النسائية التى تترقرقُ من المرأة فى كل شىء صافية جميلة كنور القمر.

ترى هذه المرأة أن كل حَسن فى أعمالها لا يكون إلا أحسنَ شىء لأنها حسناء؛ ولكنها لا تقرُّ أبدا أن كل قبيح فى أعمالها ينبغى أن يكون أقبح شىء، ولماذا؟ لأنها حسناءُ أيضا!..

هذه المرأة الجميلة قد ظنت عند نفسها أنها شىء مقدّس، ولذلك لا تريد أن تعملَ عملًا، كبقرة البراهمة، فياليت الرجل كان شيئًا مقدسًا أيضًا كعجل المصريين القدماء!... ولكن البقره المقدسةَ فى المرأة لا تعرف العجل المقدس فى الرجل!...

يا هؤلاء، إنما الرجل مخلوق قوّى، ولكن معظم قوته منصرف إلى حواسه؛ فمن ثم كان فى يد المرأة ضعيفًا، لأنها على ضعفها ينصرف ما

(1) مبالغة، فى خشونة الرجال، لأن اللحي والشوارب من خصائصهم، فكأن العين التى هى من أسرار الجمال فى الجنسين هى فى الرجل أيضًا خشنة.

فيها من القوة إلى عواطفها، فلا يلتقى الخصمان إلا كانت الهزيمةُ على الرجل، وقد كان لولا سِفاهُ رأيه فى منظر عن هذا ومُستمع[1]، فما رأيتُ قط رجلاً يهوى امرأة إلا اعتد سلطانه فى أنه يشعر بسلطانها عليه، وكان رضاه فى أنها راضية عنه؛ فهكذا هكذا.

جعل الرجل حاجته الكبرى فى المرأة، وبالغ فى توهم هذه الحاجة، وافتن فى تصويرها ألوانًا وضروبًا، فجعلت المرأة حاجته إليها سببَ كل حاجة لها، وبالغت فى الطلب، واحتكمت فيما تطلب، وانصاعَ الرجل فى يدها كالبهيمة السائمة، وجعله التمدنُ الفاسدُ فى رأيها كآلة الساعة: علامةُ ضبطها وإتقانها "أن لا تقدم ولا تؤخر"!... وإن تعجب فعجب أن هذا الرجلَ نفسه إذا هو كبحها مرةً عن حاجة تطلبها، أرضاها بحاجة أخرى لم تطلبها، فكأن هذا المسكينَ إذا تعبدَ لها يأبى إلا أن يكونَ عبدًا بشهود وأدلة... وتحسب المرأةُ اليوم أنها غيرُ المرأة من قبل، وغيرُ ما كانت حالها، كأنها رُقى فى التاريخ، فقد غيرت نفسها بالفنون والعلوم والأزياء، وبهذا التحكم الباطل وبهذه الدعوى الفارغة. وأنا أول المؤمنين أنها غيرت نفسها ولكن هل غيرتها الطبيعة[2]؟

أيها السادة، إن كلمة "هات" كلمة "خذ" لولا كلتاهما لخربت الدنيا وتقاصرت الأمور والأحوال، وكل عمل عامل وكل عامل يتركبُ منهما، فالدنيا كلمتان: "هات، وخذ"، والحياة كلمتان: "هات، وخذ"؛ والمرأة التى تصفونها كلمتان أيضًا ولكنهما : "هات، وهات"...

قال "الشيخ على": ومرّ الكونت فى فلسفته يمضغها مضغَ الماء وربما

---

(١) المراد: بعيدا عنه.

(٢) أنظر فى كتاب (السحاب الأحمر) رأينا فى مثل هذا من مثل هذه.

أصاب شيئًا، ولكن ماذا تنفع كلمةُ الحق يرادُ بها الباطل؟ وهذا رجل يتكلم كأنه ابن شجرة لا ابن امرأة...! على أن من تعلق شيئا من أمور الحياة وكل إليه؛ وهو بَعدُ لم يعرف المال يجمعه ويدخره، وقد خلقه الله رجلا ماليا ويَسرةَ لما خلق له؛ وكثيرًا ما رأى وجهه فى المرآة فكان يعجبه من مَنخرَيه أنهما فى تفرطُحهما "كحافِرِى حصان الجنيه الإنجليزى"!...

ولما استوفى عمرَ السبعين وأصبح فى يُبسه وموته كأنه جِذْر قرن من الزمن، خرج فى عيد مولده إلى سواد المدينة[1] منحدرًا إلى قرية يملكها، وانطلق يَجتلى مناظر الطبيعة، فكان لا يرى فى السائمة والطير والنبات والأزهار إلا شبابًا وطفولة، وكان وحدة منظرَ الهرم المستميت فى هذه الطبيعة كلها، وأعجبته شجرة قائمة على مسيلِ الماء: وأعجبه أن يتفيأ ظلها وقد تحفى بروحه المُتعبة بَردُها ونسيمها، فانطرح يتثاءب هنيهه وأحبَّ أن يسافر إلى شبابه البعيد على مطيه النور، فكبسَ رأسه على ذراعه فإذا هو نائم كأنما جَرّع السم فخمده من فُوره...

ورأى فيما يرى النائم كأن الأرضَ ترقصه على أعشابها لتمسحَ عن أعضائه التعب، ثم أبصر السماء فى مثل تحاسِينِ الطاوس من ألوانها وأصباغها كأنما أشرف على الأرضَ فجرُ يوم من أيام الجنة، ثم نظرَ فإذا ضوءٌ رَطبٌ يتندى وقد ترقرق فأصاب شفتيه الذابلتين، ولمحَ على إثره وجهَ حسناءَ كأنها فِلقة القمر، فكان ذلك الضوءُ قُبلتها وابتسامتها، وكان على قلبه "بردًا وسلامًا" فنصب لها يديه يتناولها فإذا هى تتخطى الغمام هابطة إليه، وإذا هى على الأرض نحوه مقبلة، وإذا هى أمامه ضاحكة، وإذا هى ملءُ صدره وذراعيه، فارتحف جسمه رجفة شديدة كأن فيها

(١) ريفها وما حولها من القرى.

شوق سبعين سنة من الهجر، وما لبثت عُقدة أجفانه أن انحلت فنظر فإذا يدُ فتاة قروية ناعمة تهزه برفق!...

فانتهض الكونت كأنما نشط من عِقال ولما تصحُ عيناه من سكرة الحلم فكان يخيل إليه أنه يرى جمال السماء والأرض معًا فى طلعة هذه الفتاة وعلى غُرتها، ثم كشف لها عن رأس كفروة الأرنب البيضاء، وانحنى متأدبًا وقال بلطف: أشكرك يا سيدتى!

أما هى فابتسمت له وقام فى نفسها أنها هى ردّت عليه روحه؛ وأنها لو لم تنبهه لما انتبه آخرَ الدهر، كأنما حسبته ميتا وظهر هذا الفكر فى ابتسامتها فأكسبها شيئا من قوة روحها، وجعل لشفتيها الحمراوين جمال كجمال الشفق إذا افتر عن نور الفجر.

وتأملها الرجل بمبلغ ما فى نفسه من لذة الحكم وما فى صدره من ضجعةِ تلك الحورية التى تلوت عليه وتقلبت فيه،" وبعث عليها وهمه وصبغها بألوان نفسه واستضاءت به، فكأنما منه أمام الفانوس السحرى!...؟ وما خلق الله لذة أهنأ للنفس من لذة الأحلام، فكأنها ترى فيها النفس شيئا من تحقيق المستحيل، وأن فى أعقاب هذه اللذةِ بعد اليقظة ما يُشعر المرءَ بالأمانىّ كيف جاءت وكيف ذهبت، فكأنما كان فى حياة أخرى، وكأن نفسه تتمسك بهذه الحياة ولا تريد أن تُسلِمَها، فتكون ذكرى الحُلم أروح للنفس من الحُلم نفسه على الحقيقة، لأنها نتاجُ ما بين لذة لم تكن شيئا ولذة صارت شيئا.

وثبتت صورةُ الفتاة فى عينه على ما اشتهى، وكانت زهراءَ اللون، حوراءَ العينين، ساجية الطرف، أسيلةَ الخد، باسمة الثغرِ، حسنةَ التكوين كأنها ريحانةٌ ترِف رفيفًا، وتكاد من فرط رقتها تتكلم ابتسامًا

حتى لا يحسب من رآها أن الشمس طلعت يوما على أبدعِ من ثغرها واللؤلؤ، ولا أحسن من خدها والورد، وكأن الطبيعة يعتريها أحيانا من سوء الحرص وسوء الخوف وسوء الحيلة بعضُ ما يعترى الشحيحَ الذى يخبأ أنفس ذخائره فى أخس الأمكنة وأقبحها منظرا وفيما لا حفلَ به من الأداةِ والمتاع. فكانت "لويز" على ما وصفنا من الجمال والظَّرف ولم تكن مع ذلك إلا قروية!

وأما صاحبُها فما أشبهه بعُنُق النَّسر، شيخ مضعوف، كالعِرْق المنزوف والعظم الملفوف؛ ممسوحُ العضُدّين[1]، ناسل الفخدين، كأنما يَتوكأ منها على عَصَوْين... غير أَن له عينا يتوقدُ فصُّها ويستنِفض الناسَ طرفها[2] فلا يملك من تقع عليه أَن يضطربَ؛ وكذلك اضطربت الفتاة، وما كاد الرجلُ يلمح اضطرابها حتى طَبَع الله على بصيرته فحسب ذلك معنى من الغزل، وانطلق وراء خياله يمر به على آمال الشباب الفانية، وكان لحظ الفتاة ينساب فى عروقه دما يغلى؛ فحسب أن جسمه قد ثاب إليه[3]، وأنه بعث خَلقا جديدا لهذا الحب الجديد.

... ويبالغُ فى التظرف ويجلس قريبا منها يَستنبئها وهى تُطرّف له من أخبارها[4]؛ فعلم من روايتها أنها شريفة النسب خالصةُ العِرْق، وقد نابها المنزل وانحَّط الدهر على أهلها فهى ذاهبةٌ إلى المدينة تلتمس حياة التقوى فى دير العابدات... وعلمت هى من رؤيته أن فى هذا الموت الماثل أمامَها حياة، وأنه لا مذهب لها من ورائه إذا هى أفلتته إلا مذهب

(١) ليس عليهما لحم، وكذلك ما بعده.

(٢) إذا رأوها أرعدوا هيبة.

(٣) رجع إليه بعد الهزال مما أثر فى أعصابه ودمه.

(٤) تذكر له طرفا منها وتخفى عنه ما بقى مما لا تحب أن يظهر عليه.

القدرِ المجهول؛ ورأته كأنما يتشربُ لفظها ولا يسمعه، وأبصرت هواها فى حمالِيقِ عينيه، فجعلت حينا تبسمُ له وتلحظه وحينًا تلحظه وتبسمُ له، وما تلفظ من أنه فى بَث حزنها إلا أحس المسكينُ أنها نقرة على أوتار قلبه، ولعل الإنسان لا يمكنه أن يُحب إلا هيأت له الطبيعة مجلسَ الحس على ما يشتهى وعلى ما هو مذهب الحب فى نفسه!

وقد مَذعت له الفتاة من خبرها[1]، وكتمت عنه أنها طريدة منبوذة استزلها فتى من عشيرتها على أن يَتحللها وكان منها مقعد فؤادها زمنا، ثم طوّح بها عارهُ وغدرُهُ ولؤمه جميعًا، فخرجت هائمة على وجهها ولفظها قومُها كما تُطرحُ الثمرة إذا دب فيها الفساد من عبثِ الطير!

قال "الشيخ على": وإنقلب الاثنان كلاهما صيد وصائد: أما هى فأصابت رجلا مجنونًا بها يحبها حب الجد والأبِ والزوج والعشيق، فإن ثابَ إليه عقله من جهة بقى مجنونا من ثلاث جهات؛ وحسبتْ أن الموتَ مصَبِحُه أو مُمْسيه فهو همُّها عشيه أو ضحاها. ولقد كانت من الضائقة والعوَزِ وشدةِ الاختلالِ بحيث لو عُهِد إليها أن تغسلَ الزنجىَ حتى يبيضَّ لقاءَ درهمين لطمِعتْ فيهما...؟ وأما هو فقد ظفر فى زعمه بالمرأة الطبيعية التى نبتتْ مع الأزهار، وطلعت فى سماء الحياة مطلعَ ضوء النهار؛ وحسب أنّ هذه الفتاةَ التى تناهز العشرين إنما هى زيادة عشرين سنة فى عمره ينتهبها من القدر انتهابا ويقضى بها دْينَ الحب طفولة وشبابا ولست أدرى كيف عَزَبَ العقل عنه، ولا كيف خَذلَه رأيُه، ولا كيف وهَى ركنُ فلسفته وكان من قبل وثيقا وكيف أحبَّ منذ الساعةِ وقد

(١) ذكرت له قطعة منها دون سائرها.

كان يتصاوَنُ عن النساء ويحسب أن بغضهن عقد لا يحلّه إلا من يحل عقدةَ نفسه!..

ولكن الحب يا بنى لا يكون عجيباً بلا شىء يُعجَب منه، وكثيرًا ما يتملأ الرجل بغضا ليحب بعد ذلك بمقدار ما أبغض[1]، فمثله كمثَل من يبحث عن البرهان بطريقة من طرق المغالطة التى لا تؤدِّى إليه، فمتى أصابه كانت قوة البرهان بطريقة استخراجه العجيبة أشدَّ منها فى البرهان نفسه.

وهى الأرواحُ ما يزال بعضُها يتسلط على بعض، وما إن يزالُ فى كل روح معنى هو الوسيلة إلى هذا التسلط ومنه مَسَاغُه ومأتاه؛ فلو قلتُ إن فى مِسلاخ ذلك الرجلِ معنى الحمار لما كان فى الفتاة إلا معنى العصا؛ وكذلك انطلقت وهى تسوُقه فى طريق مصائبه، وعند العصا تفرغ حيلة الحمار ولو كان الحمار أبيًّا.

فى الحب

من هذه الهيفاءُ التى تستميل ولا تَميل، وقد استبدت بالجمال فلا يُرى فى غيرها شىءٌ جميل؛ طالعة كالضُّحى فكل نجمة من ضوئها كاسفة، لاهية كالنسيم وفى كل قلب من حبها عاصفة، وقد عبَدَها العشاق باطلا كما يعبد المجوس الشمس، وتمنَّوا فى دلالها المحالَ كما يتمنى المرءُ من أمس، وكتب عليهم هواها المحتوم :"جند ما هنالك مهزوم"!

وكم تمنوا لو أن لين أعطافِها، يتعدى إلى انعطافها؛ ولو أن بعض ابتسامِها؛ يُشرِقُ على ظلمات اليأس من غرامِها؛ وهى تقتل منهم برضاها

(١) انظر فلسفة الحب والبغض فى "رسائل الأحزان" و "السحاب الأحمر".

وغضبها على السواء كأن خبها الموت: متى قِضىَ جاء به الداءُ وجاء به الدواء؟

فى الحفلات

ومن هذه الطالعة فى غَلائلها، المعروفة فى الحسن بدلائلها؛ المشرقة كالبدر فى ظلمة الحلك، الضاحية كالشمس فى رقبة الفلك، تعترف بالهوى فى ألحاظِها، وتُنكره فى ألفاظها ويُقبل بعينها سائلة عما بين جَنبيْك، وتلتفت بجيدِها مائلة عن جوابِ عينيك؛ وقد حَسَرت عن زَنْدَيها، ووضعت رمزًا للحب تلك الوردة على نهدَيها، فلاحت للمحبين كأنها روح القُبلات من خدَيها؟

فى الرقص

ومَن هذه الزهراءُ كالنار المشبوبة، الحسناءُ كالدمْية[1] المنصوبة؛ المشرفة فى زينتها كغرّة الدينار، اللائحة فى ميناء الدموع كما يلوحُ المنار؛ وقد شفَّ قلبُها عن الجوى كما يشفُّ الزجاج، وتدافعت من طرَب الهوى كما تتدافعُ الأمواج؛ وهى ترقصُ على حركات القلوب فى الضلوع وتسترسل فى سهولة كأنهم جسمٌ خُلِق من الدموع، والأبصارُ قائمة على قوامِها، والنفوس حائمة منها على حِمامها، وما هى عين المحب إلا خطراتُ الطيف، أو رقةُ نسمات الصيف، ولا رقصها إلا معركة فى الحب قام فيها اللحْظ مقامَ السيف؟

---

(١) التمثال الجميل.

فى الموسيقى

ومَن هذه الباسمةُ كالأزهارُ، الساجعةُ كالأطيار، التاركةُ عشاقها كالشمس بين طرفى الليلِ والنهار، القائمةُ كالكأس فى اليد، الناعمةُ كالحمرة فى الخدّ. وهى تحيى بالصوت لأنه يخرج من صدرها، وتسكر باللفظ لأنه يمر من ثغرها ويكاد يخلّق من سحر القلبُ المفتون، ومن حركات أناملها العقل المجنون، وإذا صَدَحت فحمامة؛ وإذا رقصت فغمامة، وإذا أرسلت من يدها (صحيةً) الأوتار أقامت للطرب (القيامة)؟

تلك هى درة الصدفة المطروحةِ على ساحل الموت، وهى حمامة ذلك القفص البالى المصنوع من العظام، وهى خطيبة الكونت فيكتور..!

وتلك هى "لويز" القروية الساذجة، كانت نَبْتة فى الطين، فأصبحت زهرة فى وِعاء ثمين، ولأن تكون نبتة مهملة وتنمو، خير من أن تكون زهرة مرعية وتجف.

ولقد رأى الكونت- أخزاه الله- أنّ أحسنَ ما يكونُ الاستمتاع بالجمال حين يكونُ الجمالُ فنا وفتنة، فأما الفتنة ففى عينىْ لويز وجمالِ تكوينها، وأما الفنّ فلا سبيلَ إليه من هناك ولا من فلسفته، وليس إلا أن يبُسط يده كل البسط حتى تنبت له تلك الزهرةُ من أغضان الذهب والجوهر؛ فأنفق واتسع فى الإنفاق، وجعل آمالَ شيخوخته كلَّها مُقترحات فى زينة الفتاة؛ فبرعت البراعة كلها فى الرقص والموسيقى وأحسنت من الفنّ النسائى فى أساليبِ الظرف والجمال والزخرِف على جسمها، ما ترك هذا الهرم المتصابى المفتونَ يفاخرُ الناس كافة بأنها خارجة من قريحته.

وأعجبُ ما فى أمره أنه على كثير ما أنفق وطائلِ ما بذل، لم يكن يرى أنه أنفق على لويز ما لابد منه لمثل لويز..؛ وهو منذُ أصبحت فى كنفه،

استبدل من الحرص على المال بالحرص على الحياة، وعرف أنه لابد فى الحب من وسيلة، وأن قلب المرأة ليس فى يد أحد ولا فى يد المرأة نفسها، بل هو يحتكم فيما يختار، ويختار على ما يحتكم؛ وأنه ليس أشدّ عُنفا من هذا القلب، فهو إن لم يُحيِ قَتَل: يحبُّ المرأة عاشق غيرُ محبوب منها، ويريد مُراغمتها على حبه فيقتله قلبُها لوعة وضنى بما يطُوّعُ لها من صدّه أو بغضه؛ وتحبُّ المرأة ثم يمنعها قومُها ويُرغمونها على غير من تحب، فلا يقتلها إلا قلبُها!

وإن «فكتور» ليعرف أنه فارغ الخِلقة.. من وسائل الحب كلها، ويعرف أنه فى أحمض أنواع الهوى لا يعدل أكثرَ مما تعدل قشرة الليمونة المعتصرة، فكيف به فى الثمر الحلو، وكيف به فى حب لويز!

لم يبق إذن إلا أن "يخرج الوسيلة من يده"، والمال أضعف الوسائل فى الحب الصحيح وإن كان أقواها فى الحب المكذوب، على أنه لا يجعله قويا من ضعف إلا أن يَظلَّ يمد بعضه بعضا، فإذا أنفضت اليد أو أمسكت فلأن يقبضَ المحب على الريح أيسر من أن يضع يده على ظبية شاردة..

ومن أجل ذلك توسع الكونت البذل حتى كأنه كيس مخروق. ولم يعرف لها طلبًا إلا بلغ فيه رضاها وحسب أنّ فى رضاها محبتها. فكان يأتى بالحاجة التى تطلبها والحاجة التى لم تطلبها، ويجعل كل شىء شيئين، " وأبى إذ تعبَّد لها إلا أن يكون عبدا بشهود وأدلة"!

وبقيت "لويز" تتربص به الأجل، فكانت له كحرف التسويف؛ ولا تزال تدافعِه عن نفسها؛ وتروضه على الصبر، وتمنيه أنها تستتم فنون الجمال من أجله، وأن هذا القمر متى تم فسيدخل معه فى المحاقِ... لا محالة.

وتظن باطلا أنه لم يبق منه إلا كما بقى من ذَنَب الوزَغة[1] تضرب به يمينًا وشمالا ثم تموت؛ بيد أن الموت لم يستنقذها منه، وأن كان يرأف بها أحيانًا وتدُخلُه الرِّقّة عليها فينيب عنه (الروماتزم)[2] ليريحها بضعة أيام!...

وكان الرجل يخشى غضبها ويطمع فى رضاها فكان يستعين ببعضه على بعضه، ويعلم أنها ترى الصبر أحسن ما فيه فيترك أقبح ما فيه جانبًا ويصبر؛ فلما استوت فتنتها ولم يبق من باطلها ما تتعلل به أو تمتلق به عِلةً، ورآها قد أخذت زُخرُفها وازَّينت واهتزت ورَبث، صار منها كحرف الجرّ[3] لا يريد إلا أن يكون الجار والمجرور(متعلقين).. وفرَغ صبرهُ واستيقنَ أن له آخرِة وأن صاحبتَه لا تزال فى أول دَلالها، وكانت تحسب الدهرَ نائمًا عنها فإذا عينُه قد انتبهت فى أجفان هذا الشيخ فنظر إليها نظرةَ لا صواب فيها...

وباغتها الرجل فخيرها بين أمرين خيرُهما شر: إما طريق إلى صدره وإما طريقة من غَدره؛ ومع الأولى الوصية بالمال. ومع الأخرى أن تذهب فى الحال!

وكذلك غلبها على أمرها وانتصر فى معركة كان لابد أن يَخرَّ فيها أحدهما صريعا، وقد استحال أن يكون المغلوب غيرّها، وإن عثرة تنتهض منها بعد حين خيرُ من عثرة لا تستقيلُها؛ ورأت الظبية أن لا مَناص، فوقعت فى يد القَنَّاص...

---

(١) هى دويبة معروفة، وهى وسام أبرص جنس واحد، ولكن سام أبرص كباره، وهذا الأخير هو ما يسميه العامة "البرص" وإذا قتلت الوزغة حركت ذنبها قليلا ثم ماتت.

(٢) هو فى العربية الرثية (بفتح الراء وسكون الثاء) ولكنا آثرنا هذه اللفظه لموضعها.

(٣) سبق أنها كانت له كحرف التسويف...

ياليل

الليلُ منسدلٌ كانه حجابٌ مضروب بين الحياة والأحياء، مجتمعُ الظلمةِ كأنما هى ذنوبُ الناس فى نهارهم جعلت الملائكة تُرسلها إلى السماء، وتغشى الأرض معنىً من خشية الله فنفرت له دموع المساكين، وأقبلت عليه أنفاس المحزونين، وبرزت له فى آثار الظلم دعوات المظلومين، وقد ارتفع إلى الله صوتٌ يتقطع زفرات، ويتهلب حسرات، ويسيل من الدمع قطرات؛ وكان صوت"لويز" وهى تزفر الزفرة تكاد تنشقُّ لها، وترسل الأنة تكاد تدفنُ فيها؛ وما بها الغيظ فتسكته عنها، ولا بها الحزنُ فتمسحه بدمعها، ولا بها الهم ولا بها الغضب ولا أمرٌ مما يتواصفه أهل البلاءِ ويبثونه فى شكوى أحزانهم وإنما ذلك شىء إن يكن من الحياة فليس بالحياة، وإن يكن من الموت فليس بالموت؛ ولعله منازعةُ الحياة على قبلها!

ما بك يا لويز وقد بِتَّ زوجَ الكونت الذهبىّ وهو عما قليل آخذُ ما أمامه وتارك ما وراءه، وما بك أيتها المسكينة وقد كنتِ فقيرة بائسةً لا تملكين قوتَ يوم فقبضت على أعناق سبعين سنة تجمع المال وتكنزه، وما بك- عمرَكِ الله- وقد خرجت من الكوخ إلى القصر، وصعدت من العريش إلى العرش، وإن كانت حواء قد طُردت من الجنة فقد طُردتِ أنت إلى الجنة... وفى الجنة قومٌ يقادون إليها "بالسلاسل"...!

قالت المرأة وهى تناجى ربَّها: إلهى! ماذا قضيتَ علىَّ؟ لقد وضعتَ الدنيا فى راحتى وكأن مملكة آمالى مرسومةٌ فى كفى؛ ولكن أىُّ فرق بينى وبين تمثال من الذهب الخالص فى منزل هذا الرجل! لقد رددتنى

من فقري وذلتي إلى رجل رددتهُ أسفل سافلين[1] فما يريني الدنيا التي أعرفُ أنها الدنيا ولكنه يريني الآخرة!...

يا ويلتا! إن لم يخجل الرجلُ من شيء أفلا يخجل من أنه لا يخجل؟ أبى هذا الموتُ لشقائي إلا أن يتخذني زوجته، وكنت خليقةً أن أجعله أسعدَ رجل في الدنيا لو اتخذني ابنته!

اللهم إنك رزقتني العافية في كل جوارحي ولم تُصِبني إلا في القلب!

يا ويلتا! ما أنا إلا لُعبة في يد هذا الطفل، لا يلذه شيء أكثر من تحطيمها في طرُقِ لذته، وقد خلقتَ ياربِّ من يحطم القلوبَ الصحيحة، ولم تخلق من يستطيع أن يجبر القلوب المكسورة؛ وإنه ليس فيما برأتَ وذرأتَ مخلوق أشد تعبا ممن يفتش في قلبه عما ليس في قلبه، وهل في الممكنات أو في أشباه الممكنات أن أجدَ في ناحية من قلبي حبَّ هذا الزوج؟

لقد عرفَ الناسُ أن قلب المرأة كثيرة العبث، وهذا الذي يسمونه دلالا ويحسبونه في الحب أنما هو شيء من عبثه؛ وأن هذا القلبَ إنما خلق ليحب، ولذلك أعطى قوة يخلق بها الحبَّ من العدم؛ غير أنهم جهلوا فيما يجهلون من أسرار المرأة أن ذلك القلب إنما جاءه العبث بالرجال من أنه لا يطيق أن يعبث به أحدٌ من الرجال ومتى وجد من هؤلاء من يريده بنادرته ويجعله من هزله مَعْرِضَ السخرية وموضع العبث، لم يكن في الدنيا أحد أبغض إلى المرأة منه، وإن كانت الدنيا كلها في طلعته، وإن كان مخلوقا من رونَق الشمس.

---

(1) أي بلغ الغاية من الهرم أو الضلال أو ما إليها.

أليس النساءُ يُحببنَ حتى الكلاب ويُرفهنها ويغالين بها ويُنزلْنها منزلة الولد فى الحب والانعطاف والتوجع والتحزُّن؟ فسبحانك اللهم! إن هذا القلب الذى يسع حبَّ الكلب يضيق عن حب كثير من الرجال إذ يحبون المرأة حبًا ليس فيه شىء من روحها- حبَّ الزانية أو الاستمتاع أو الخدمة- فكأنهم بذلك يبغضونها بغضًا فيه كل روحها.

يا ويلتا!أعجزُت أن أجد فى هذه العاجلةِ نفسا أرى فيها نفسى؟ وهل حرِّمتْ على كلمة الحب فلا يَفيض بها صدرى ولا ينطلق بها لسانى؟ وهل خلقتُ لؤلؤةً لأكون فى عَقْدٍ من الحصى، ورسَمنى الله بهذا الجمال ليعذبنى بهذا القبح؟ وما عسى أن تَرُدَّ على هذه النعمة ما دمتُ لا أجدُ لها سبيلا إلى قلبى, وما دام هذا القلبُ لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يُعامَل بالمال...؟

ضلَّ ضلالُكم أيها الناسُ إذ تحسبون النعمةَ حق النعمة فى الغنى وحده، وتمضون الأمرَ على ما تخيلتم من ذلك، ولا تدرون أن الله ينتقم بالغنى أشدّ مما ينتقم بالفقر؛ فلو أنى ابتليتُ بالمصيبة وأنا امرأة خاملة لا حتملتها وقلتُ خمول عرفته فما يبلغ بى ولا يزيدنى بنفسى ولا بنفسه معرفة ومن رحمة الله بالفقراء الخاملين أن فى كل بلاء يعتريهم ما يُعينهم على حمل بلاءٍ أشدّ منه، ولكنّ الضربةَ اليوم لا تَصدْعُ الصدقة بل تستحقُّ اللؤلؤةَ؛ فاللهم لا قوّة إلا بك!

وما أشبهنى إذ قتَل هوايَ هذا الكونت، بزنجىٍّ من زنوج أمريكا اغتال سيدا من البيض، فلم يجدوا له عذابًا إلا أن يشدوا قتيله فى وثاقِه، وتركوه يَبلَى تحت عينيه ويسيل جوفُه تحت أنفه ويتناثر لحمه على صدره!... وهكذا يقتله القتيل وحده بالرُّعب والجنون قِتلة لا وصف لها فى لغة الحياة.

ولقد كنت بائسةً يطير بها القضاءُ ويقع فلا تزال دهرَها تحت جَناح مخفوض من رحمة الله أو فوق جناح منشور من الأمل فى رحمته؛ فلما وجدتُ الغنى واستشرفتُ للسعادة، شغَلنى الله بهمِّ نفسى، فشغلتنى نفسى على النعمة، فلا تزيدنى النعمة إلا هَمًّا! وقد كتَبَ الله علىّ أن يقتلنى بغضُ هذا الرجل فوهبنى الغنى من يده وحَسب الناس أن ذلك لكيما أستمتِعَ به وعلم الله أن ذلك لكيما اتصل بقاتلى! فاللهم قد أحيطَ بى وليس ورائى منفسحٌ، فمِن حيثما التفت لا أرى غير ما قضيتَ على أن أرى؛ وهذا امتحان أينما أتوجه فى الحياة لا تقابلنى الحياة إلا بمسألة من مسائله المُعضلة!

إن كلمات القضاء لا تقرأ لأنه لا يَنزل بالناس إلا معانيها، على أن الكلمة الأزليةَ التى يكون معناها هذا الزواج وهذا الزوج لابد أن تكون جملة كاملة من غضب الله فى السماء، لا يقابلُها إلا سيرةٌ كاملةٌ من ازدراء الناس فى الأرض.

قال "الشيخ على". ونفَرتْ دموع هذه المرأة تخفف من يأسها، وإنه ليأسٌ أكبر مما تحتمل نفسُها من الصبر لو أنه من وجه الزوج وحده. فكيف به ومع ذلك الوجه شبابُها الهالك, وآمالها الضائعة، وغُصَّةٌ من شماتة الناس وازدرائهم، وبلاءٌ من نعمة سابغةٍ ستنقلب فضيحة وسخرية؟

واهًا لكِ أيتها المسكينة! إن مصيبة الأغنياء لتكِشف نفسها فهم يحملونها ويحملون آراءَ الناس فيها، وإن المصيبةَ لتكون واحدة ولكنها ترتدُّ إليهم من قلوب الشامتين من أعدائهم والمتربصين من حُسادهم والمتوجِّعين من سائر الناس وكأنها مصائبُ كثيرة لا تُعدّ.

والمرءُ لا يأخذ من الله بشرط ولا يعطيه الله على شرط؛ فإن كان فى

الغنى تلك النعمةُ ففى الغنى هذا الهمُّ؛ وما رأيتُ أيسرَ اضطرابا من الماء الراكد قُذفَ بحجر؛ إلا الغنىَّ الغافلَ قُذف بمصيبة!

ويحكم أيها الأغنياء! متى رأيتم ثمرة لا تسقط أبدا من غصنها الأخضر وثمرة تسقط من الغصن ثم تُردُّ إليه فتعلَقُ به وتَنضج عليه، فاعلموا يومئذ أن غناكم هذا نعيم لا رزيئة فيه ولا مصيبة، لأن هذا الكونَ حينئذ يكون فوضى لا نظام له ولا قرار.

وانصدَع الفجرُ، وأقبلت الحياةُ تتنفس من مَباسم الأزهار، وتتغنى بألسُن الأطيار، والفتاةُ موجِسة أن ترى طلعةَ شيخها، وكأن هذه الطلعةَ صُبح غيرُ الصبح، وودّت لووقف الزمن، فإن لم يكن فوقوف الأرض، فإن لم يمكن فوقوف قلب هذا الشيخ؛ وخُيِّل إليها أنها ستُقرف بإثم منكر إذا هو بادرها قُبلةَ الصباح على مثل شفق الشمسِ من خديها، وأنها لا تُرمَى بمسبَّة أوجع ولا أمضَّ من قوله: حبيبتى!... وانسلخ الليلُ، وطارت الأحلامُ، وأفصَحَت الحقيقةُ، واستيقظ الكونت...

على المائدة

زهرات ناضرة كأنما اختبأت فيها ابتسامةُ الفجر، عاطرة كأنها رسالةُ اللقاء بعد الهجر؛ بديعةُ التنميقِ تحسبُها قصيدة من شعر الألوان، متفتحة للحب وكأنها لكتاب الحب عنوان، متلائمة مصفقة، متلائمة كالشفة على الشفة "قائمة فى جلالها وحسنا كأنها فى خِلقَة الجمال آية، وكلُ زهرة فى لونها كأنها لدولة من دولِ الحسنِ راية، وقد جلست إليها غادة فتانة كأنها فى رقتها رُوحُ النسيم وفى نضرة شبابها روحُ الحديقة، ولاحت الأزهارُ كأنما هى خيالاتُ جمالها وظهرت الغادةُ كأنها هى الحقيقة.

تلك هى "لويز" فى صبيحة عُرسها على المائدة وقد أثبتت فى كل زهر لحظا من لحاظها، ولا يشك من رآها فى تلك الحال وهى ترتقب ظُهورَ زوجها أنها تنفَس على هذه الأزهار شبابها ونضرتها وحسنَ مُلاءمتها، وتحسدُها على أن ليس فيها أعواد من الحطب... يفسد نظامها وتنكر بهجتها وتغض من حسنها كما ابتليت هى بزوج من عود[1].

وإنها لكذلك، إذا خفقُ أقدام وضوضاءُ وموكب وشىء كالموسيقى، فما لفتت جِيدَها حتى أبصرت الكونت داخلا يتوكأ على خادمين وله نغم مختلف... وآهات وأنات، ومع النغم سعال كقرع الطبل. وكان الروماتزم قد دَبَّ فى مفاصله تلك الليلة وبات يفتل فى عروقه وأعصابه، ووعكته الحمَّى واجتمعت إليه علل الشيخوخة كلها تهنئة بالزفاف...؛ غير أنه لم ينس مع هذا البلاء كله أن عروسه ترتقبه على المائدة، فحفَزه الشوق وعاوده الصبى فطار إليها بجناحين من خادميه...

ولما بلغ ظلها أفلتَ الخادمين ثم ارتمى عليها يقبلها رِياء ومصانعة، ثم تمسك بها يستند إليها، ثم انحط إلى يمينها، وما كادت تناوله قدحَ اللبن يرتضعه... حتى غمره الألم وهاج داؤه، ففتح فاه وصدحت الموسيقى بنغم مختلف من آهاتٍ وأنَّات، ومع هذا النغم سعال كقرع الطبل...

ورأت "لويز" ذلك فرقصت أحشاؤها..! فلم تملك المسكينة أن اقتلعت جسمها من الكرسىّ وانكفأت هاربة إلى حجرتها، وانطرحت فى غَمرة أخرى من الألم، وبقيت هناك ملقاة يدار بها، وكانت لم تغتمض فى ليلها، فاصطلح على جسمها هَّم الليل والنهار.

---

(١) فى المثل "زوج من عود، وخير من قعود، وقد أصابت الكلمة حقا فى هذا الموضع الذى وضعناها فيه.

فصل خامس فى السنة

وزالت هذه الغَشية عن الكونت بعد أيام، كانت العروس فيها من روح الأمل كالمختلعة[1] إذا أخذت كتاب طلاقها، أو الأمِة إذا وعدت بعتاقها؛ وكان دعاؤها لله كلماتٍ لا تعدوهن، تقول: اللهم رحماك! فأنت المصيب وأنا المصابة، تلك قوتك وهذا ضغفى!

وكانت إذا حمدت الله تواردتْ مع زوجها فيما يَحمد الله به من حبه لا يشعر أحدهما او كلاهما، كأن للحب الشديد والبغض الشديد لغةً واحدة؛ فكان هو يقول: الحمد لله إذ لا ترانى؛ وتقول هى الحمد لله إذ لا يرانى!...

وباغتها الرجل منصبًّا عليها، فلو أنّ ميتا طالَعها من قبره ما كان أروع لها عنه؛ قلب حيوانىّ يسكن من أضلاعه الخربة فى شقوق وظهر كالقَوس يحمل من روحه سهما ليس له إلا المروق، وعروق ناشرة كأنها فى جلده المتغضن خيوط فى خروق...؟ ودخل عليها كما يدخل الشتاءُ بكلوحه وبَردِه، وعلى الروض النِضرِ والبقية الضعيفة من ورده؛ ونظرت إليه فلم يقع من نفسها إلا موقع الهموم على الهموم، ولم يكن فى عينها إلا كما يكون الحلم فى رأس المحموم!

وجلس إليها الشيخ يتطفل ويقترح؛ وكانت لويز تعرف أن السنه أربعة فصول، أما سنتها هذه فكانت فصولها بعد اقتراح هذا البغيض خمسة. الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء، وشهر عسل الكونت؛ فقد لجَّ الرجل فى عناده وأبى إلا أن يكون له ولها "شهر عسل ومما زاده لَجاجا وعتوًّا

---

(1) هى التى تكره الرجل فتخلعه لتتزوج بغيره، وهذه الكلمة فى الأصل يراد بها الطلاق ببدل.

أنه كان يخشى أن ينسلخ الشهر؛ فقد ذهب نصفه فى تجرُّع "الدواء" ولم يبق "للعسل" إلا ريثما يمحق القمر أيامًا معدودات...

ثم انصرف من لدنها على أن ترصد للسفر أهبته وأن ينطلقا على جناح غراب[1].

واستقبلت العروسُ ليلتها وجعلت تقلب وجهها فى السماء وترنو إلى النجوم بعينين قد ثبتَ فى إنسانيهما خيالُ ذلك الرجل كما يثبت خيال القاتل فى عين المقتول[2]، فلم تر فى النجوم إلا هَرَم الدهر وتحجر الأيام وقد استيقنت أن نجمها طامس لا محالة[3] وكأنما خرجَ من الفلك، وضل فى ذلك الحلك!

وما هى خطرة الفكر حتى لاح فى مرآة نفسها خيال ذلك الشاب الذى اختلَبها أياما بالهوى، وكان لها منه الداء وكان له منها الدواء، وأغواها فى عرفِ الناس ولكنه هو ماضل وما غوى. وكان هذا الفتى قرويا فحلا، ظريفَ الهيئة، مستوى القامة، عريض الصدر، تام الخِلقة وثيق التركيب قد ارتوت مفاصله واستحكم نسجه، وله مع ذلك خِلابة، وفى لسانه دعابة، فما أطلى حديثه وأنداه. ما أحلى خبرةَ إذا كان من الغزلِ مبتداه.

وقد أحب الفتاة أكثر مما أحبته، ولكنها كانت غريرة لا تتبين منزلة ما بين الحب والاستسلام، وبين ما يعده الرجل وعدا بالفعل وما يراه وعدا بالكلام؛ ولم تعرف أن هذا الحب سلاح ذو حدين، فالمرأة تقتل به من ناحيةِ الرجل؛ فإن غفلت مرة عن نفسها قتلت هى به أيضا من

---

(١) أى باكرًا جدا.

(٢) اكتشفوا أن صورة القاتل تثبت فى إنسان عين المقتول حتى ليمكن علاجها ونقلها بآلة التصوير.

(٣) أى ذاهب الضوء قد مات وانطفأ فلا حظ لها.

ناحيتها؛ وأن حب الرجل حب مجنون بطبيعته؛ فإذا لم يكن حب المرأة عاقلا انقلب كلاهما حيوانا طامسَ القلب[1] لا يبالى ماجنى على نفسه، وأن الرجل يقاد من رغبته ما دامت أملا فى قلبه؛ فهو يَعدُ المرأة ما شاءت وشاء لها الهوى حتى إذا انقطع هذا الزمامُ انقطع ما بين لفظ الوعد ومعناه، فأخذ منهما ما أخذ وترك فى يدها ما أعطى؛ وما عسى أن يكون قد أعطاها إلا آمالا ومواعيد وغرورا من زخرف القول؟ وكذلك أمرَ الرجلِ والمرأة: تحسب الفتاةُ إذا هى أحبت فاستأسرت لصاحبها أنها تبذلُ فى مرضاته أعز ما تملكُ، وتنوله خيرَ ما استؤمنت عليه، وتعطيه ما لا تستعيضُ منه آخرَ الدهر، وأن ذلك أحرى أن يُؤدَم بينهما[2]، وأن يكون ميثاقا للحب غير منقوص، ويحسب الرجل أنها لم تنله إلا شيئا هينا قريبَ المنالة؛ هو عندها وعند كل امرأة؛ فإن كان سَرى الخلقِ نبيلَ النفسِ رثى لها مما صارت إليه، وندم كما يندم على الإثم، ولا يكون همه إلا أن يلتمس المخرجَ من أمرها؛ فإن طارحته حديثَ الزواج رأى أن من فرَطت له حَرية أن تُفرّط فيه، وبهتها بهذه الكلمةِ[3] وسلم وقد مات الذى بينهما، وإن كان لئيمَ الطبع خسيس النفسِ شدّ على رقها واتخذ من ضعفها قوة ومن خوفها أمنا، حتى إذا ملها تنكر لها ثم أنكرها، فإن استقضتهُ ما وعد من زواجها رأى أن الزواج قد سبق أوانه.. فلم تعد تصلحُ له ولا يصلحُ لها؛ وكلا الرجلين سافل دنىء زَمِرُ المروءَة[4] وإن قال الناس فيهما سرى ولئيم.

---

(١) لا يعى شيئًا.

(٢) المراد المحبة والاتفاق.

(٣) اتهمها فى وجهه.

(٤) قليل المروءة.

فالسحابة تنهل بمائها، ثم تجمع مرة أخرى فى سمائها، والزهرة تقطف لحسنها، ثم تنبت مرة أخرى فى غصنها؛ ولكن العذراء حين تفرط فى خدرها، وتضع نفسها دون قدرها، لا تبرح شقية حتى تنزل فى قبرها.

وهكذا لا يزال الرجل فى عُتوه وظُلمِه كالساحل، ولا تزال المرأة فى ضعفها ولينها كالموجة، فلو أن ألف موجة عاتية يصدِ منَ الساحل لا ستباحهن وما سلبنه مقدارَ شبر من الرمل؛ وما اعترض رجل وامرأة فى خُلق العفة إلا كانت هى الساقطة وحدها فى الاعتبار، لأن العفة إنما عُرفت بالمرأة من أصل الخلقة، وإنما يتصاون الرجل تشبهًا وتقليدًا، فإن هو زَل مرة وقارَف الإثمَ فقد أخطأ فى التقليد ولم يفقد شيئًا من طبيعته، ولكن المرأة متى فعلت ذلك فقدت من نفسها وغيرت فى تكوينها وأخطأت فى الأصل الذى بُنيت عليه طبيعتها وقامت به شرائع الله وهى فيه نظام الأمم فلا جرمَ كان عقابُها على الخطأ عقابًا نفسيًا يجمع من شدة الطبيعة إلى عنتِ الشرائع إلى قسوة الاجتماع، ولهذا كان شر عيوب المرأة ما عاب فضيلتها الخصيصة به[1].

قال "الشيخ على" وانطلقت نفسُ "لويز" لمسرّى خيالِ حبيبها، وكانت تبغضه دون البغض إذ هو مُسعدها ومُشقيها، فصارت بعد زواجها تحبه فوق الحب، إذ لا ترى لها مسعدًا غيرَ ذكراه، ولا تعرف على ظهر الأرض من أشقاها غيرَ الكونت.

ولما ذكرته انهملت دموُعها فجعلت تبكى حتى انحلت سحائبُ همها، ثم أشرقت كما تصحو السماء فى أعقاب المطر، فلو رآها أشعرُ الناس فى

---

(١) انظر فلسفة هذا الباب فى فصل "الربيطة" من كتابنا "السحاب الأحمر" والربيطة: المرأة تقوم مقام الزوجة (Maitresse).

ذلك الجمال المشرقِ الحزين الذى تورّد حتى التهب، لوقف عندها وقفةَ العابد فى المحراب يشعر بالقوة الأزلية ولا يحسن أن يصفها. وأى شاعر تحيط نفسه بهذا الشقاء الذى رفعه جمالها الساحر من بين آلام الأرض وألحقة بذلك الألم المنفصل من السماء الذى لم تشهده الأرض إلا مرة وأحدة يوم جلست حواءُ تبكى أولَ بكائها بعد خروجها من الجنة...؟

ويالله ما أروعَ الجمالَ حين يتألم ويحزن ويحُضر الجميلة همها! إن مثل من يُحاول أن يصف دموعَ هذه الجميلة وحسرِاتها وصفًا ناطقًا يتنفسُ به القلب، كمثل من يريد أن يخلق من سحر البيان زلزلة ترجُف بها الأرضُ حين يبالغُ فى وصف الزلزلة، وما اللغة إلا أداة، فكيف «ويحك» تستعمل هذه الأداة فى صفة قوة تعجز عندها كل وسيلة حتى الشعورُ الذى أبدع اللغة؟

لقد جَمعت المقاييس بين أقطار الأرض، وطَـوَت ما بين الأرض والسماء، وداخلتْ ما بين أنجم السماءِ بعضها من بعض، ولكن أية أداة تعين لنا درجة الإحساسِ بين نفس عاشقةٌ مدنفة تشهد آلالم نفس معشوقة، وبين عينى شاعر غزل وثابِ الخيال تنظران فى عينى امرأة جميلة باكية، وبين ألم جامد جاف يضطرب فى نفس الرجل، وألم سائل متدفق تضطرب فيه نفس المرأة...؟

إن هذه الأنفسَ إنما تشعر بمقدار ما فيها من الإحساس لا بمقدار ما فى الحقيقة من مادة الشعور، وكأى من رجل أبلَه متغفِّل يدور مع الآلام والأوجاع دورانَ الغبار فى العاصفة، فإذا رأيته توَّجعت له وداخَلتْكَ الرقة عليه وثارت نفسُك من أجْله ثورةَ السخط على هذا الاجتماع الانسانى وتمرُّ بالرجل ثم تنساه؛ ولكنَّ هناك طفلة، طفلةً صغيرة قريبة العهد

بالغيب[1] قد ضلت بيت أبويها فى المدينة المترامية فمشت ذليلةً ضائعة يتحيّر الدمع فى عينيها كما تتحير الألفاظُ بين شفتيها، وقد ساورها الخوف، وتوثبت نفسها فزعًا لهول ما هى فيه، وجعلت عيناها تتوسلان إلى الناس بالبكاء، ولسانُها يتلجلجُ بألفاظ مرتعدة كأنما ينتفضُ عليهن قلبُها الصغير، وهى فى ذلك لا تبرح تتمثل أبويها فتضطربُ اضطراب الفرخ إذا سقط من وكرِه ولم ينتهض، وترى أن المصيبة قد انحصرت فيها وحدها من دون الناس، فتبكى بكاء تكاد تنشق له، ثم تعود إلى التوسل بعينيها الدامعتين وبألفاظها المتلجلجة[2] فانظر وأنت أبو مثلها ما عسى أن ينزلَ بك من الحسرة ويتغشاك من الهمّ إذا رنت إليك هذه الطفلةُ من وراء دموعها تسألك أن تدلها على بيت أبويها الماثل فى رأسها الصغير، وهى تحاولُ بذلةٍ ومسكنة أن تنقلَه إلى نفسك وتبنِيَهُ فيها بألفاظ وإشاراتها الضعيفةِ لتهدى أنت إليه؟

فالمصيبة ليست مصيبةَ بمادتها ولكن بما يُقابلُ هذه المادةَ من نفوسنا؛ ومن ثَمَّ فهى لا تؤثرُ فينا بنفسها ولكن بالكيفية التى نقابلها بها.

قال "الشيخ على": ثم سكنت "لويز" هُنيهة لذكرى أيامها الأولى وهى تعلم أن لا رجُعى لها، فقد استيقنت أن هذا الغنى ضربَ بينها وبين الفقر حجابا ولكنه رفع بينها وبين الشقاء حجابا آخرَ كان ذلك الفقرُ وحده هو الذى يمنعه منه؛ وكأن القدر لما اختط لها التعاسة رسم هذه الخطةَ بقلم من ذهب...

---

(١) كناية عن صغر سنها وحداثة عهدها بالوجود.

(٢) انظر في كتاب (السحاب الأحمر) الفصل الذى عنوانه (الطفل) فإن فيه بقية هذه المعانى، وقد بنى على طفلين ضلا بيتهما.

واستشرفت نفسها لخاطرٍ غريب ألمَّ بها فأضحكها على ما بها من الهم؛ فقد أحضرت خيالَها ذلك الحبيب الأولَ فى شبابه الغضِّ، وقوته الثائرة؛ وفورته العنيفة، ونشاطه المهزوز؛ وإرادته على حب امرأةٍ فى أرذل العُمُر- وهو عمر "الكونت"- يلوحُ وجهُها فى العين كما تلوحُ القفار، ويمتدّ أنفها بين الوجنتين كأنهُ جحْرٌ فى أحجار، ويضحك ثغرُها الأدرَدُ[1] فلا تشك أنه فى تلك الصحراء "غار"؛ وقد ثابرت عليها الأوجاعُ والأمراض، حتى أصبح جسمُها بين يدى الموت كالخيط بين شِقَّى المِقْراض!...

... ثم جعلت ذلك الحبيبَ يتزوج منها لمالها وغناها وقد أصاب عندها ملءَ أطماعِهِ ذهبا وفضة، ثم وصلت بين شُعلة فؤاده الملتهب هوى وشبابا وبين هذا الجسم الفانى الذى يشبه حُطام اليبيس[2]، ثم أرادته على أن يعتقد أنها "السُّكرةُ" التى وُضعت فى كأس حياته لتُحلِيها، ثم نظرت لترى ما يكون من أمره وأمرها فى الحب حين لا يكون الحبُّ إلا مُراغمة وإكراها؛ فإذا الحُلمُ قد انهال، وإذا الوهم قد استحال، وإذا الشاب لا يُحبُّ تلك المرأة ولا فى الخيال.

فجهدت أن تذكر فى تاريخ الناس من يكون قد امتحِن بمثل هذه المصيبة وصبر لها كما يصبر من ذات نفسه على آفة أوعاهة أو مُثلة، فأبى عليها الواقع أن يخرج لها مثالا واحدا...

... فكدَّت ذهنَها فى تصوُّر هذه الحال وتقليبها على وجوه مختلفة، فلم تستقم لها صورة صحيحة، وثبت عندها أن حب شاب قوىّ فى الثلاثين

---

(١) الذى سقطت أسنانه.

(٢) كالتبن ونحو من يبيس النبات.

لعجوز هالِكةٍ سبعين هَلْكَه[1].. أمرٌ يكاد يكون فى استحالة الجمع، كطرح السبعين من الثلاثين فى حساب العدد!

وعجبتُ أن يستأثر الرجل وحده بهذه الأنفةِ ويلتمس لنفسه فى هذا الباب ما ينكر على المرأه أن تستنكره، كأن هذه المرأة عجماءُ لا تبالى من صاحبها إلا العلَف، ولو انتهى بها إلى التلف؛ وكأن كل امرأة إنما هى اسم، على جسم، فليس على الرجل إلا أن يختار اسمًا ثم يُثبِتَه فى وثيقة الزواج بعد أن يُساوِمَ عليه؛ أو كأن المرأة بلغت من الجفاء وضعف التمييز بحيث لا تأبى أن تتخذ أعواد فرشها، من أعواد نعشِها؛ وأن تقيم لها قبرا فى البيت، وتنظرَ كلَّ صباح فى وجه مَيْت؛ وإلا فكم من فتاة كالقمر أخفاها نهار المشيب، وكم من عروس للحب زُفَّت إلى غير حبيب، وكم من وجهٍ صبيح، يقبله ثغرٌ قبيح؛ وكم من كعَاب، سال عليها اللعاب... وكم من حسنٍ هو رمز الحياة قَرن به الموت رَمزَه، وكم من قد أهيف كالأَلِف لا يرى إلا شيخًا أعجفَ كالهمزة... وهنا انتبهت "لويز" إلى زوجها المتهدم الذى هو همزة القطع، وإلى تصابيه المضحك وحماقته العمياء وحبه الأخرق؛ فانتفضت من الغيظ وكاد بعضُها يحْطم بعضا، وجعلت خواطرهاَ تنبض فى رأسها كلمح البرق وأخذت تلتمس الوسيلة لردّ هذا البلاء عنها أو مدافعتِه، بيد أنها كلما ابتدأت فكرا انتهى بها إلى قولها: ما عسى أن أصنع؟!

هى لا تفكر إلا فيما ينبغى أن تصنعه، ولكن الفكر يُفضى بها إلى هذا السؤال بعينه، فكأنها من الهم والحيرة منعزلة عن نفسها، وقد نفَر منها

(١) كناية عن بلوغها السبعين.

فكرها وقلبها وحظها جميعًا ولم يبق معها إلا روحها المعذبة، وهى كذلك بينها وبين زوجها وبين القدَر!

ولبثت زمنا لا تجد من رأيها إلا قطعًا وأشلاءً، حتى لمحت من نافذة القصر مركبة تَـدرُجُ فى الطريق، ورأت الحوذىَ، يتلقى الأمر منه إلى الجوادين فلا ينزل عليهما إلا انطلقا ملءَ العنان، كأنما يحاولان الهربَ منه ولا يعلمان أنهما يهربان به؛ فرثت المسكينة للبهيمتين، ثم كأنما حشُرت لها كلُّ مركبة على الأرض فى صعيد واحد، فلم تذكر أنها رأت قط سائقا ليس فى يده سوط ما دام بين يديه حيوان...!

وظلت واجمة عند هذا الخاطرُ هنَيَّة، لأنها ما برحت تتلقى من ضربات القدر وهى تعدو فى الحياة عدوًا فيه من السرعة بمقدار ما فى هذه اللذعات من الألم!... ثم قالت: ترى أىُّ حيوان فى مِسلاخ[1] هذا الهرِم؟

وما كذبت أن قلبت الخاطرَ على وجهه الآخر، فتناولت السوط واستولت على مركبة الأقدار ولم يبق أمام عينيها إلا سبيلَ الحياة وظهر الكونت!...

وكذلك فاءت من غضبها إلى رضا أقبحَ من الغضب،ورأت أنّ هذا الشيخ المأفونَ الذى يتطاوعُ[2] للصِّبى وقد جاوز السبعين وهلك فى الدهر، ثم لا يستحى أن يجعلها مُثلةً على أعين الناس، وأن يكون لها مُخرية ولا كالمخزيات جدير به أن يجدَ منها كِفاءَ ما وجدت منه، وجدير بها أن تُبدِله من شهر العسل شهرا هو أحقُّ به وأهلهُ، وهو على ذلك أقربُ الأشياء من العسل لأنه.. "شهر النحل"...!

---

(1) أى جلد.

(2) يتكلف حتى يستطيع.

قال "الشيخ على": هكذا يُفسِد الرجلُ المرأةَ وهو يدرى أو لا يدرى، فهو يبتغيها متاعا و يريدها مَلهاةً، ثم لا يقدِّر فيها غيرَ الطاعة لما ابتغى وأراد؛ كأن الطينةَ الإلهية التى جُبل منها الرجلُ شديدًا متماسكًا، بقيت منها بعده هنة ضعيفة فتركت حتى ركَّت وانسحقت ثم خُلقت منها المرأةُ ذليلة طائعة... وإن أقدرَ خلقِ الله ليكونُ معه الدرهمُ فاضلا عن حاجته فلا يجد ما يمنعه أن يبتاعَ به الزهرةَ الناضرة، ولكن العجيبَ من أمره أنه إذا احتازها لا يلويها بين أصابعه ولا يُدنيها من أنفه إلا بعيدًا بعيدًا وقليلًا قليلًا، بل إنه ليستحى لقذرِه من طُهرها، ولنتنِه من عطرها؛ فلا يحملها حتى يتجملَ لها، ولا يظهرُ بها حتى يكون فى الجمال أهلَها؛ وما أدرى كيف أدّبته الطبيعةُ هذا الأدبَ مع شِبهِ الجمال، ولا تؤدبُ مثلَ ذلك الهرمِ الأحمق مع الجمال نفسه؟

ويعمدُ الرجلُ متى أصاب مالًا إلى الطيبات من صُنوف الطعام ومِلذات الشراب فيتضلعُ ويتملأ، وليس فى ذلك من حرج، إذ هو ماله ينمو فى باطنه؛ فإن ربح أو خسر فإنما "المضاربةُ "فى مَعدته... ثم يعمدُ أقبحُ خلق الله وجها وأظلم سُنة وأشأمُهم طلعة، بذلك المال نفسه إلى أجمل النساء فيُرخى عليها أستارَ بيته[1]؛ ويُسامِهما قبحه وجمالها، وإنما هى فى رأيه بعضُ الطيباتِ وصنف شهى من طعام القلب؛ فُترى فى أى جهة ينمو هذا المال الذى بذله وتندى به، فإنى لا أرى له نموًّا فى قلبه ولا فى قلب تلك الحسناء؟

أما هو فما إن يزالُ يعرفُ منها البغض، وأما هى فما إن تزال ترى فيه القبح؛ وأحسبُ لو أنفقتَ ما فى خزائن الأرض كلِّها على التأليف

(١) كناية عن البناء بها أو احتظائها.

بين الحسن المبغض وبين القبح المحبِّ ما ألفتْ ذات بينهما ولا زدت كلَّ واحد إلا من طبعه[1].

وكيف يرى هذا الدميمُ أن مرآة بيته التى اشتراها وبذلَ فيها واختارها على عينه لا تُظهره أبدا إلا دميما، وهو كلما بالغَ فى رونقها وصقلها بالغت هى فى إظهار قبحه ودَمامته، ثم يريد أن لا تراه امرأته الحسناءُ الفاتنة إلا جميلا فاتنا ولا تكلمه إلا فى الحب، ولا تُقبِّله إلا قبلة الهوى؛ كأنه هو الذى خَلق لها عينين ولسانا وشفتين..؟

ولعمرُ الله لو أن فى أضلاع هذه المرأة قلبَ رجل من صيارِفة اليهود قد جَم على مَنكب الطريقِ وسرَّح الذمة والدين والظنَّ واليقين وجنودَ إبليس أجمعين؛ فى طلب الدرهم يأكلهُ سحتا، ويَنحتُه من أيدى الفقراء نحتا، لما رأته على ذلك المالِ وذلك القبح إلا كالخرقة فيها دينار؛ فهى هى لم تُخرجها قيمة الذهب الغالية، عن كونها فى اليد والعين خرقة بالية!

أيريد الرجل لسعادته امرأة لا نَفس لها ولا قلب؟ لعله يحاول ذلك، ولكن كيف تسعده إذن؟ إنى رأيت فى معاشرة الحزين شيئًا من الفرح يتنفس به الحزن على الحزن، فليت شعرى أى مهنأ[2] أكثر لذة وأحسن إمتاعًا من معاشرة اثنين كلاهما يَهنأ الآخر؟

أيها الهِرِم الأحمق الذى يستبدُّ بالجميلة الفاتنة؛ إنك تعبث بذَنب السفينة فإذا انحرفت هنا وهنا زعمتَ أنها تضلُّ الطريق لسوء تركيبها..؛

ألا فاعلم (ويحك) أنك لا تصلح أن تكون رُبَّان هذه السفينة؛ وإذا كنت

---

(١) تشذ الطبيعة فى هذا المعنى أحيانا فيكون من بين النساء من لا تعشق إلا القبيح الخلقة، ثم لا تهواد إلا لقبحه؛ وذلك واقع ولكنه نادر؟ وله تعليل لا محل له فى هذا الموضع.

(٢) هو ما يعبر عنه الناس بلفظ الهناء، ولم يرد الهناء فى منقول اللغة بهذا المعنى الذي يستعمل فيه ولكن المولدين أجروه فى أدبهم وفشت الكلمة فى النظم والنثر.

تستطيع أن ترفع شراعا أو تحرك مجدافا فما أنت وهذه الباخرة؟ ماذا تصنع (ويلك) فى آلات هذا القلب الذى صنعته يدُ الله ليخوضَ لُجج الحب فى بحر الشباب إلى ساحل السعادة، وليس بينه وبين الهلاك إلا ان يرتطمَ فى ذلك البحر بصخرة الموت التى لا تكون أكثر ما تكون إلا من رأس رجل هرِم!

عسيت تقول إنك غنى ملءُ الأمل الواسع، وإن هذه الحسناءَ ستفضى من طريق مالكَ إلى طريق حبك، لأن المالَ- زعمتَ- أوسعُ طرق الحياة وأطولُها، وفيه مَنفَذ إلى كل طريق شئتَ أو شاء الهوى فلعمرى إن هذا المال كما تزعم، ولكن لا يذهَبن عنك أنك لا تعرف إلا فاتحة الطريق إلى هذه الحسناءِ، وأنّ خُطَط الآمال ليست من "شوارع التنظيم" أو الطرق السلطانية التى يُفضى كلٌّ منها إلى جهة بعينها أو جهات لا يخطئها من انطلق بسبيلها، فقد تبدأ تلك الحسناءُ من طريق هذا الغنى الذى تفتحه لها؛ ثم لا تلبثُ أن تنعطفَ إلى مذهب من مذاهب قلبها، ثم تأخذُ من هناك فى ناحية من نواحى مصائبك، لأن سبيل حبها وسعادتها من تلك الناحية؛ ثم تُفضى من كل ذلك إلى طريق من الحياة إذا هى أبصرتك فيها رأتك وليس من ورائك للبغض مذهب. ورات وجْهَك ثمةَ كأنه صفيحة مما تُكتبُ عليه أسماءُ الطرق، وقد كتب عليها "شارع المقبرة"...

أنت أيها الأحمق استنقذتَ هذه الحسناءَ من الفقر، ثم جعلت تباعِدُ ما بينك وبينها؛ فأخذتها خادمة وجعلتها سيدة، وبصّرتَها بما كانت تجهلُ من فنون الجمال وأساليب الهوى، ثم جعلتَ غايةَ كل ذلك إمتاع جسمك الفانى ولذّة قلبك الخرب، فنسيت نفسَك باديء الرأى ولم تذكر إلا الفتاة فاتخذتك صديقا، ثم نسيت الفتاة آخرًا ولم تذكر إلا نفسك فاتخذتك عدوًا.. فلولا تركتها على جهلها وغَرارتها ما دام العلمُ بالحب لا يكشف منك للحب إلا عن خُرافة...؟

ويا عجبًا من غرام الشيوخ بالفتيات! فإن أكثر من أنت واجد من المحبين وأهل العشق متى أصابه الكِبَر وذكر حوادث حبه، رأى فيها ما يسميه جهلا وما يسميه حماقة وما يسميه غفلةً وما يسميه خطيئة؛ كأن الهرم يجعل الأشياء نفسها هرِمة، إذ ينزعُ منها أوهامَ الشباب وغرورَه فلا تظهر من ثَمَّ إلا حقائق مخلَصةً؛ فما عسى أن يرى الشيوخُ فيما يسمونه غراما؟ بل ما عسى أن يرى الحبُّ فى هؤلاء الشيوخ "المتطفلين"[1] إلا ما يسمى حماقة وجهلا وغفلة وخطيئة؟

يحب الفتى الناشىء حبًا طاهرا يستوحِف قلبه[2] فيقول أكثر الناس: أحبَّ قبل زمن الحب!

ويعشق الرجل الهرم عشقًا فاسدا يستوقدُ ضلوعه فلا يرضى أن يقول مرة واحدة ولا أن يقولَ عنه أحد إنه أحب بعد زمن الحب؛ مع أن الفتى رجلٌ يُبنَى، والهرِم رجل يُهدم؟

ولو لم يضرِبِ الله على بصره لعلم مما تشرعُ الطبيعةُ أن أحق الناس بالخيبة رجلان؛ رجلٌ وجِد قبل زمنه فلا يحسنُ أن ينفع أو ينتفع؛ ورجل أتى بعد زمنه فلا يُحسن ان ينتفع أو ينفع!

متى كان الرجلُ حقوقا فقط وكانت المرأة واجبات لاغير، فقد خلا الرجلُ من العقل وخلت المرأة من القلب وخلا الاثنان من هذا المعنى الروحىّ الذى يسمى الحب؛ فإن لم يستطع ذلك العاشق الهرمُ أن يستردَّ لنفسه الصِّبى الذاهب حتى تحبه تلك الحسناءُ طائعة، فليسترجع لتاريخ الأرض وحشيته الأولى حتى تلوذ به تلك المرأة كارهة!

---

(١) من التطفل أو تكلف الطفولة.

(٢) يذهب به.

ويلٌ للإنسان من هوى نفسه فلولا هذا الحماقة فيه لما وجد على الأرض خطأ، لأن كل إنسان حين يخطىء فإنما يريد حقيقة من الحقائق غير أنه يجعلُ مركزها فى رأسه ولا يعتبرها إلا من هناك، مع أن مركزَها فى العالم.

شهر النحل

قال "الشيخ على": كل خَطب عظم مدة هان بعدها، إلا خطبَ المرأة فإنه متى عظم لا يزال يعظم، وما رأيتُ فى أصناف البلاء كالمرأة السلِطةِ إذا هى استَكلَبَتْ[1] فكأنما جعل الدهرُ الجائرُ أيامَها خطا من خطوط مداره، واتخذ من دار زوجها مَتحفا ثم أودعه تلك المجموعة من آثاره... ويا رحمة لهذا الزوج! فهو كلما خرجَ من بيته خرج خزيانَ يتنقب، وكلما انقلب إليه انقلب خائفًا يترقب؛ ولا تزال تعرف فى عينه نظرة مغلوبة وأخرى مسلوبة، وفى قلبه مصيبة مستقرة وثانية مجلوبة، وترى على وجهه سِمة استخذاء[2] كأنها مسحَةُ استهزاء، ولروحه ظلاًّ على فمه كأنه ظلُّ النخوةِ الهاربةِ من دمه ولا يزال مع امرأته المكابرة كأنها ذنبٌ وكأنه ندامة، وقد جمعت عليه الدنيا والآخرةَ فكأنه من خوفها فى موت ومن لسانها فى "قيامة"..

وما فى الله خلق أعظم من المرأة، فهى طبيعةٌ وحدها، وغير أنها الطبيعة الدقيقة الحِسِّ؛ وليس يُدرك الرجل حقيقة نفسه قبل

---

(١) يقال استكلبت المرأة واستسعلت: إذا أشبهت الكلاب والسعالى؛ والمراد البذاءة والشر كسلاطة اللسان.

(٢) هو الذل والخضوع.

أن يخلطها بنفسه؛ فإذا رأيتها خاملة مغمورة، أو ساقطة مزجورة، أو ميتة فى الأحياء مقبورة فلا تَرَيَنّ أنها مغلوبة للرجل ولكنها مغلوبة لإحساسها، وقد وفر الله عليها من القوة ما شاء ولكنه غمز منها موضعًا دقيقًا فخرجت بحيث تراها أقوى الأشياء وترى هى نفسها كأن لا قوة فيها، وهذا سر من نظام الطبيعة، فإن أشجع الناس الذى لا يخاف شيئًا يخاف أشياءَ كثيرة من نفسه، فلولا أثر يد الله فى إضعافها ما قامت للرجل معها قائمة.

وهذا الموضع الذى أسلمها ضعيفة مستخذية إنما هو جهلها بتصريف إحساسِها، فليست القوة إلا شيئًا طبيعيًا فى هذا الوجود كائنة ما كانت، وإنما الشأنُ كله فى العلم بطريقة استعمالها، وما من رجل يدارى المرأة نوعا من المداراه فترضى عنه وجهًا من الرضا، إلا رآها فى يده أضعف ما خلق الله، هينة لينة سَمْحة مطمئنة، إن كانت دون الملائكة فهى فوق الناس، إذ هو إنما يستولى على إحساسها فيأمن أن تُصرِّفه فى غير مرضاته ومحبته؛ ومن ثم تصبح كأنها صورة من إرادته وكأن فى نفسِها نفسه.

فإن جهِل الرجل كيف يُداريها؛ وانقطعت الأسباب المختلفة بينه وبين رضاها، ولم يكن أهلا منها لما هى أهلهُ منه استوقد إحساسها وبصرها كيف تناله ومن أين تأتيه. فابتلى منها بفتنة ما تهدأ وقْدَتُها، فما السابح فى البحر إذا أراد أن يقيِّد الموجة العاتية بالحبال، ولا المصروع إذا حاول أن يدفع بيده ما أفزعه من جنِّ الخيال، ولا الطفل يبتغى أن يُمسك القمر فى الماء، ولا المجنون يتطاول فيقتلع النجم من السماء- بأقدر ممن تبغضه المرأة إذا زعم القدرة على إرغامها، وتصريف زمامِها، ومَن تَمضغُه المرأة إذا زعم القدرة على إسكانها؛ والسلامة من بركانها..؛ ومن تحقِّره

المرأة إذا زعم القدرة على ردها، وإرجاعها دون حدها؛ ومن تصول عليه المرأة إذا ادعى القدرة على إسقاطها، والقوة على التقاطها؛

فليس يُعجز الرجل فى سلاطة المرأة إذا هى سُلطتْ عليه ما يكون من حِدة جنانها، وشدة عِنانها، وشِرَّة لسانها، فكل هذه وأمثال هذه إنما هى ضروبٌ مما تحاول من إظهار عظمتها الطبيعية المغلوبة؛ ومن أجل ذلك قلما كانت المرأة السليطة إلا غالبة، إذ هى نفس منفجرة.

ولقد يعجز الإنسان أحيانًا كثيرة أن يكون نفسه؛ إذ لا تنقاد له الطريقة التى يغلب بها على الحوادث أو يجاربها أو ينبه لها الحذَر؛ ومن ثم يُنكر نفسه كأنها غيرُ التى يعرف من قبل، ولكن المرأة متى ثارت لا تعجز أبدا أن تكون نفسها، وما نفُسها إلا أعظم ما فى الخليقة من الخير والشر!

قال "الشيخ على": كذلك صارت "لويز" مع زوجها وانحازت إليها طبيعته الغالبة فكانت قويةً به وبنفسها وكان ضعيفًا بها وبنفسه.

ألا وإن أخلاق المرء إنما هى أعصاب أعماله، فانظر (ويحك) ما عسى أن يكون فى البعض أشدُّ من أعمال امرأة أبغضت بعقلها وبقلبها، ولحاضرها ومستقبلها؛ وصارت حياتها كلها من الشر والسوء كأنها لعنة يصبُّها الله على رأس هذا الهرِم؟

وكذلك اندمج فى إرادتها كما يندمج الثعلب فى فروته الجميلة الناعمة: ترميه بالنظرة حين يتكلم فتقف الكلمة بين حَلقه والوريد، ويجيئها وقد أجمع النيةَ أنَ يأمرها فلا تأخذه عينها حتى يسألها ما تأمره، ويجهد أن تعلم أنه زوجُها ثم ينقلب وهو يتمنى لو تعلمُ أنها زوجته...، ويوسِعُ قلبه عزمًا أن يفعل ويفعلَ، ثم يراها فيخشى أن تكون اطلعت على أن فى قلبه شيئًا من العزم!

وهو لا يعلم بزعمه كيف أنكرته وكيف تغيرت عليه وكيف تنكرت له، ولكنه يريد أن يسأل كل شيء عن ذلك إلا وجهه... ذلك الوجه الذى جعله الحب أقبح ما عرف من دائه، وأشدّ ما خاف من أعدائه، وما أفضى إليها مرة وهو يحمله... إلا عرف أنه من ذنبه فى حبها، وأنه من عذرها فى بعضه، فيطرقُ إطراقةً يتكلفها ويحسبها تشفعُ له عندها، لأن فيها ذلَّ الشيبة، وألم الخَيبة، وشدة الهيبة، ولكن وجهَهُ يظهره وقتئذٍ مظهرًا ليس فى معنى السماجة أسمج منه، إذ يكون كاللص الذى لا ينكر على ملإ من الناس أنه سارقٌ، وهو مع ذلك يحرصُ على أن لايؤخذ منه ما تجشم فى سرقته، وقد عرفت المرأة أنها لا تغمِز منه إلا مكاسِرَ عظمِه الواهن، ولا تطأ منه إلا كل مِفصلٍ مرضوض، ولكنها عرفت كذلك أنه ظالم لنفسه، إذ حمَّلها ما ليس فى طاقته؛ وظالمٌ لها؛ إذ أرادها على ما ليس فى طاقتها، فهو ظالم أشبه بمظلوم، وما مثلُه فى حبها إلا كمثل الفراشةِ؛ لا ترجع دون المصباح إلا أن تخالِط نارَه، فما تحتال من حيلة إلا أحست منها حتفها وتَلفتها، غير أنها لا تزال تنزع من ذلك ما ينبغى أن تنزعَ عنه، وكلما تهافتت انحص جناحها من ناحية، ومع هذا كلِّه لا تسكنُ ما دامت فيها حركةٌ تنبعث.

وما من شيء إلا وقد جعل الله فيه النفعَ والضرر، فمن التمسه على حالة منهما لم تُؤدّه إلى الأخرى، وما تغنى الإنسان معرفة الأشياء على حقائقها إلا إذا عرف مع ذلك فروقَ ما بينها، وتبين الحدود الفاصلةَ بين الشيء والشيء الآخر، وبين الحالةِ والحالةِ فى الشيء الواحد، فقد يكونُ الإفراط من الدواء داء مع الداء، وقد يجتمع من طعامين بلاء لا يكون من جوع يومين!

والمرأة هى هى فى حاجة الرجل إليها، ولكن كل امرأة تكاد تكون جنسا بعينه فى حاجتها إلى الرجل، فمن ههنا أحبت وأبغضت.

لو أن هذه المرأة مما تُنبت الأرضُ وتسقى السماءُ لقد كانت تصلُحُ مع كل رجل كما تصلح لكل رجل ولكن لها قلبًا، وحسًا مع هذا القلب؛ ونفسًا مع هذا الحس ورقة مع هذه النفس، فهى إن لم تحب الرجلَ من هذه الجهات الأربع لا تكون قد أحبته ذلك الحب الروحىَ العجيبَ الذى يوصف بأنه حب المرأة[1].

قال "الشيخ على": وقد رأت "لويز" أن زوجها خَرِبٌ من كل جهاته، وأكبرُ ما فيه أنه كالأرض الفضاء: إذا ضُرب عليها سورٌ وجعل فى هذا السور باب، ووضع على هذا الباب قفل... فما غناه العريض، وما ماله الكثير، ولا اسمه فى أهل الغنى- إلا كتلك الحدود المضروبة على ما وراءها من الفراغ والفضاء!

وكانت ترتاع لذلّه وترق لخضوعه، وتودُّ لو استطاعت أن تراه غيرَ من هو فتعرفَه غير ما عرفته وتجزيه غيرَ ما جزته، ولكنه لم يكن يجيئها أبدًا إلا بايَ المقتَل، ولا يريد مع ضعفه أن يعدل عن مَحزَّها، وما أماتت من نفسهَ نزعه إلا انبعثت فيها نزعة أخرى، كأنه رأى فى غضبها جمالا لم يره فى رضاها، وأحسَّ من سوْرة شبابها وفُورة غيظها ما يعالج منه خمودَ الهَرِم وبَرْدَ الموت فى عظامه، فاعتاد منها ما تجزيه؛ واعتادت منه ما يخزيه، ومرًّا على ذلك دهرًا مات فيه الوفاء، ومرِض الحياء، فإذا تاريخ هذه المرأة كلُّة لعنات، وإذا عِرض ذلك الرجل كله طعنات؛ وأصبحت

(1) نحسب أننا استوفينا كثيرا من معانى الحب وأوصافه الجميلة فى كتاب "رسائل الأحزان فى فلسفة الجمال والحب" وصنوه (السحاب الأحمر).

ملِكة عليه وأصبح معها كما قال ذلك الحكيم: "من أراد مصاحبةَ الملوك فليدخل كالأعمى وليخرج كالأخرس...!"

وبعد...

... فإن آلام النَّزع وإن لم تكن هى الموت ولكنها أشد منه، حتى إن الموتَ ليكون راحة منها؛ وقد مدَّ الله فى نزع "الكونت" مدّاً؛ طويلا فكان يقظان العين نائم الروح وكأنه مقبور فى جلده، وكانت زوجُه لا تأوه موتًا. فليس يراه أحد إلا ظنّ أنه لِما به[1]، ولكنه لا يموت، لأن أيامه كانت بعض ما كُتب فى الأزل من تاريخ هذه البائسة؛ وقد حمله الله على الأمل، والأمل مطيّةٌ دائبة لا تكلُّ ولا تنقطع ولو ذهبتْ تقع مسافةَ ما بين الضدين لتجمع أحدَهما بالآخر، فما يزال يحسب أن لزوجته فَيئة بعد شِرَّة الصِّبَى، وأن ثَقادُمَه فى الهرم وتقدُّمَها إليه سيصلحان ما أفسد الدهر منهما جميعًا، وليس فى الناس أحمق ممن يدفع نفسه إلى ما يظن فى حين تدفعه نفسُه إلى ما يستيقِن!

أما هى فرات أن لا سبيل إلى انهزامها أو تراجُعها بعد ما أنزلت أخلاقها إلى المعركة... كأنها ماتت قبل أن تموت فليس يضرها أن تقع فى هذه المعركة هالكة. وليس ينفعُها أن تخرج منها حية. وكل شىء تستدرك منه الحيلة، إلا ما أفاتت المرأة من شرفها النسائى، فانه إن فرط منه فارط لم يُستدرَك... فبسطت عنانَها فى يد الأقدار وانطلقت على أثرها صاغرة!

وقَطع الفلك فى دورته عشر سنوات حتى تفرى الليل عن صبح لم يشهد "الكونت"[2]، فترك لامرأته ما جمع، وترك فيها ذلك الموت الحى...

---

(١) أى فى الموت، كأن ما به لا بد آخذه.

(٢) كناية عن موته.

وتركها فى تلك الحياة شجرة مرداء[1] غير أن اللذات لم تُبق عليها بعده، فقد لا تقتل الآلام إذا أسرفتْ على النفس ولكن اللذات لابد قاتلة، وكأن الطبيعة فرَضت على الإنسان أن لا يلذَّ بالعيش إلا حيث تكون لذتُه اختلاسا، فإنما رُكِّب على أن يشدَّه ما يُؤلمه، ويبنىَ منه ما يحسبُ أن يَهدِمه، فإن هو حمل نفسَه على لذتها، وأطلق لها ما بين هواه ورأيه، فقد أراد لِبنيته الضعيفة وضعًا ليس فى هندسة الحياة، فلا تترك فيه اللذات إلا أمراضًا، وتحمل منه الأرض إلا أنقاضا... ولو لم تكن هذه اللذة المسرِفة سببًا إلى الموت. لما رُكِّب فى غريزة الإنسان كرهُ الموت من حب الاستمتاع بها، والحياة فى "عمليتها الجراحية" المؤلمةِ لا تحزُّ إلا بأسلحة الآلام الحادّة واللذات الحادة!

وبيعَ ذلك القصر وما ضمه، وكان يحويه بعض رفوف من الكتب يباهى الأغنياءُ بتنسيقها ليظهر من ألوان جلودها رسم ليس فى الحائط.... فاشتراها أديب تأدى إليه خبر الكونت وامرأته، فإنه ليقرأ منها ذات يوم فى كتاب يصف البأساء والضراء من هموم الحياة، إذ ندرت ورقة كانت بين صفحة فالتقطها فإذا فيها تعتلجانِ[2] بين هذين السطرين:

الفقر خلو من المال؛ ولكن أقبحَ الفقر الخلو من العافية!

"فيكتور"

والغنى أن تملك من الدنيا، ولكن أحسنَ الغنى أن تهنأ فى الدنيا!

"لويز"

---

(١) لا ورق فيها.

(٢) تصطرعان وتقتتلان.

الحظ

قال "الشيخ على": وإن فى نفسى أشياءَ من كلمة بين الكلام قد ضلَّ بها الناس ضلالا بعيدًا، لا أعرف كيف استحدثت ولا من أين انصبَّت على الدنيا، وقد خرج الناس من أن يهتدوا فيها إلى حقيقة مخلصة، إذ لم توضع فى لغاتهم موضعَ شرح وإبانة، ولكن موضع غموض وإبهام..

ويا عجبا للإنسان! كيف اهتدى إلى التعبير عن المعانى الإلهية التى يكونُ المعنى الواحد منها تاريخًا طويلًا لقدر من الأقدار المستكِنَّة فى غيب الله من لدُن يُقضى إلى يوم يقع، وكيف تُلقى فى نفس هذا الانسان معانى الغيب فيردُّها ألفاظًا يحمل منها السماءَ بأفلاكها على بضعةِ أحرف![1]

على أن أعجب ما فيه يعبِّر عما تناله قوته بألفاظ صريحة خالصة لا لبس فيها ولا اختلاط، فإذا انتهى إلى ما يضعفُ عنه وأو يعجز دونه أشار إليه بحروف مبهمة لا يكون لها فى نفسه من الدلالة الغامضةِ أكثر مما يدل المجهول على أنه مجهول... فالإنسان متى أحس القوةَ رأيته كأنما يحاول أن يُسمعَ السماء بطنين ألفاظه المكشوفةِ عن معانيها أنه موجود على الأرض، ويحاول أن يظهر للأرض بصراحةِ هذه الألفاظ أن له إرادة تعمل مع الأقدار فى تسخير الطبيعة، ولكنه عند العجز والضعف، وعندما يتخيل صفات من القوة الأزلية ولا يُحِسُّها، تراه يرسل الكلمة الخفية التى تشير إلى كبريائه بشىء من الصراحة اللغوية المحدودة،

(1) ككلمة «حظ» مثلا، فهى ثلاثة أحرف وتحمل الغيب.

وإلى ضعفه وعجزه بإبهامها المطلق فما إن تزال فى هذا الوجود اللغوىّ خالية من المعنى على وجه التعيين والنص، حتى يقع بها قدر من الأقدار فيكون هو معناها[1].

وضعف الإنسان لاحدَّ له فلا حدّ لما يستعمل من الكلام المبهم الذى يَحمل ما شئت أن يحمل، ولولا ذلك لما صح أن تكون الفصاحة نفسُها وسيلةً من وسائل التعمية فى محاورة الخصوم.

قال "الشيخ على": أما الكلمة التى أشرتُ إليها، فهى لشمول معناها الطبيعىّ وإبهامِه كأنها لغة للنفس الإنسانية أين وُجدت، ولكن ليس للإنسان أن يفسرها، بل هو يتعلل بها ويتعلق عليها يعلم أنها كذا خُلِقت؛ لأنه إن قدَّر معناها قدَّره على قياس لا يبرح يَطوى هو من طرفه ليعرفَ ماذا يبلغ وما هى مسافتُه، ويُعدُّ القدرَ من طرفه الآخر ليفِسد عليه ما عرف.

فهى كلمة يستوى عندها خطأ الإنسان وصوابه، ولهذا يراها واقعةً فى موضعها وفى غير موضعها، ولا معنى لها عند هذا الإنسان إلا أنها اتجاهُ حركة القدر، وهى "الحظ".

الحظ يا بنىّ كلمة غامضة غموض النفس الإنسانية، يتعزى بها أهل الأرض جميعًا ويُظهرون فيها إيمانهم الفطرىّ الذى لا بد منه للقلب؛ فمادام هذا الكونت على تركيبه العجيب، وما دام هذا التركيب على غموضه المعْجز بحيث لا يمكن أن يُعرَف بجملته، وما دام هذا الإعجاز وُضع حيرة للعقل، فلا بدّ فى اللغات من ألفاظ تصوِّر كل ذلك وتصِفه على

(1) حين ينجح الإنسان يقول فعلت وفعلت، ولكنه حين يخيب يقول: "القدر" ويسكت.

تلك الوجوه العجيبة، بحيث تكون اللفظة إقرارا من الإنسان وإن جَحد؛ وصوره لإيمانه وإن كفَر.

وهذه الكلمات من أوضاع الإلهام فلا تخلو منها لغة من اللغات، وهى بعدُ فى تفاوتها وظهورها كدرجات الإيمان من أدناها إلى أعلاها، فمن لم يؤمن بالله وجد فى لغته لفظًا للقدَر وهو الإيمان بعمل الله فإن كفر بالقدر اعترضته نفسه بكلمة " الأملِ" وهو الإيمان برحمه الله؛ فإن جحد هذه اعترضته طبيعته الإنسانية بكلمة "الحظ" وهو الإيمان بقدر الله، ولا أحسب أن فى الأرض رجلا يكفر بهذه الأربعة جميعا!

ومن ههنا كان الكفر نفسه لا يخلو من إيمان، وكان الكافر كأنه إنما يؤمن من أضعف موضع فى الكون[1]؛ وما أشبهَ الإيمان بجبل راسخ يحمل الناس كافة؛ غير أن المؤمن يصعد مرتقيًا من جهة والكافر ينزل منحدرًا من الجهة الأخرى!

والعجيب أن كلمة "الحظ" نفسَها يضعف معناها ويقوى بعكس ما يكون فى الإنسان من قوة الإيمان وضعفه "فالرجل المؤمن القويُّ فى إيمانه بالله قلما يفهم من هذه الكملة إلا أضعف ما تريد النفس منها، فهى تبعثه على تذكر قضاء الله والاستكانةِ لقدَره والتعزى عما فات بما لا يزال فى الغيب، ولكنك واجد ضُعفاءَ الإيمان لا يفهمون منها إلا القوة المسخرة لحوادث الدنيا، ولا يريدون بها تسخير هذه القوة فى منافعهم؛ ومن ثم تهيجُ الكلمة فى أنفسهم من معانى السخط والارتماضِ أكثر مما تبعثُ فى نفوس المؤمنين من معانى التسليم والإستكانة؛ وهذا عجيب من طباع الناس لولا السببُ الذى كشفته لك!

---

(١) أو هو «اليقين» على طريقة كما مر فى الفصل الأول.

وما أراك تحسن معرفةَ هذا السبب ما لم تعرف حقيقة ما أريد بكلمة «الإيمان»، فلست أريد بها ذلك المعنى الذى يتعاون على تمثيله البناءُ والنجار والحداد وغيرهم من أهل الصناعات، حين يشيدون المساجد والبيعَ والصوامعَ ونحوها من أمكنة العبادة؛ فإن هى إلا بعض مظاهرِ الدين الاجتماعية لا غير؛ ولا يمكن أن يحصر الضمير الإنسانى بين حائطين.

وإنما الإيمانُ هو ذلك المعنى الذى يُلقى على روحك السكينة لأنها متصلة بالله، وفى ضميرك المحبةَ لأنه متصلة بالناس، وهو ذلك المعنى الذى يُعلمك ما أنت ممن حولك، وما حياتُك مما وراءها؛ وهو ذلك الاعتقاد الكبيرُ الذى تصغر عنده الحياةُ بما فيها من الخير والشر؛ وتهونُ بما فيها من النفع والضر لأنه قائم على الفكر الذى هو بقيةُ ما نفخ الله من روحه فى الانسان الأول[1] فلا يضعف أبدا ما دام فى الكون قوة، ولا يفتقر أبدًا ما دامت الطبيعةُ غنية بجمالها، ولا يسقط أبدًا ما دامت السماء قائمة؛ ولا يموتُ أبدًا ما دامت الحياة باقية، ومتى خضعت له استحال عليك أن تذل لصغائر الحياة، لأنه هو لا يذل ومن مظاهره تلك العظمةُ التى تكون فى الأبطال فيستهينون بالحياة إذ هم أهل الموت، وفى العظماء فيتنزهون عن الدنايا إذ هم أهل الأخلاق وفى الحكماء فيزهدون فى حطام الدنيا إذ هم أهل النفوس.

ومن ثم كان الإيمان الصحيح حرية صحيحة، لأنه يعصم من ضروب الذل كلها؛ وكان منفعة خالصة، لأنه الحد القائم بين النفس وشهواتها،

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في خلق آدم عليه السلام: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾.

وكان عزاء نافعًا، لأنه العقل السماويُّ الذى يُلهمُ الإنسانَ حكمة كل مصيبة، أو يلهمه الثقةَ بالحكمة التى يجهلها؛ لو أن للفضيلة عبادة لكان لها من أخلاق كل رجل صحيح الإيمان مسجد تعبد الله فيه!

ولا يصح إيمانُ المرء حتى يتبينَ لنفسه طريقاً إلى ربه، فيرى كأن قطعة من السماء فى باطنه تضىء له الحياة؛ ومتى عرف هذه الطريق وامتد بها ضميرهُ إلى حيث يتصل بجلال الله، فمن هذه الطريق نفسها يرد مصائبه إلى الغيب كما جاءت من الغيب، لأن للقدر طريقين واحدة يندفعُ منها، وهذه لا تُعرف إلا بعد أن تقع الواقعةُ فتدل عليها بنفسها، والأخرى هى التى يتصرف إليها القدرُ فى حركة الدهر، وهذه لا يوفق إلى معرفتها غيرُ السعداء ومن كتب الله لهم أن يكونوا مظهر حكمته أو مظهر حمده.

فقوم يجدونها فى إيمانهم الوثيق، وآخرون يصيبونها فى حكمتهم البالغة والمؤمن إنما هو صورة قلبيةٌ من الرجل الحكيم، والحكيم إنما هو صورة عقلية من الرجل المؤمن؛ فإذا نزلت بأحدهما المصيبةُ وبلغت منه مالا يبلغُ الصبر، فتح لها طريقَ السماء فى باطنه فيبصرُها كأنها مدبرة، والمصيبةُ متى وجدت كالحياة متى ولدت: لا محل للعقل أبدا فى أولها، فإن هى ذهبت مدبرة اعترضها المرءُ على عينه فتنكشفُ له عن معناها، فيتبينُ حكمة الله منها ويرى حينئذ كيف تنقح يدُ الله فى تاريخه.

وما أرى المصائب فى نظام الكون إلا حركاتٍ ظاهرة تسير بها نعَم مجهولة لا تزال ومن وراء الغيب، وكثيرًا ما يكون من هذه المصائب ما ينبه الله به الناس من غفلاتهم حتى لا يقعوا فى أشد منها إذا تركوا لما هم فيه؛ فليست النازلة هى المصيبة ولكن المصيبة من جهلنا وضعفنا؛ ألم

تر إلى كل نعمة مع الجهل والضعف كيفِ تحمق[1] وتضعف حتى لا تكون مع صاحبها إلا قريبًا مما تكون المصيبة مع صاحبها؟

قال "الشيخ على": والحقيقة يا بنى أن من لم يكن كفؤا لما يناله هَلك بما يناله، فالحظ توفيق، والتوفيق أن لا يكون لك إلا ما تصلحُ له فأنت بذلك مطمئن؛ ومن ثمرة الأطمئنان الرضا, ومن غاية الرضا أن تستمتع بما أنت فيه؛ فأيُّما رجل أصاب فاطمأن فرضىَ فاستمتع؛ فهذا هو ذو الحظ وإن كان عند غيره لم يُصبْ إلا قليلا ولن يطمئنَّ إلا من ضَعفٍ ولم يرْض إلا من عجز ولم يستمتع إلا بأهون المتاع.

إن كل امرىء يريد لنفسه لا لسواه، وإن أول التوفيق أن تريد ما يصلِحك وأولَ الخِذلان أن تريد مالا يَصلح لك؛ وما الطمع إلا فقرٌ حاضر ولو كان طمعَ الغِنى.

وإن هذه النفوس لتَبْلى من طول ما يلبسها قدَر ويجعلها قدر، فلقد رأيت غيرَ الموَفق حين يَجور فى إرادته، ويضل فى مسعاته؛ ويلتمس من الغيب ما يقدّر لنفسه دون ما قدرت له نفسه- لا يبرح يكدُّ ويسعى، وكلما لبِس حالة من دنياه فاضت عليه فخلعها أو ضاقت عنه فخلعته، ولا يزال ذلك من دأبه ودأبِ القدر معه حتى يَهِن ويضعُف ويصير إلى البِلى فى نشاطه وحزمه وفى طِماحه ورغبته، وقد أنفق من حياته مالا يُرَدُّ فى ابتغاء ما يُدرك؛ وهذا كلّه هلاك بطىء يأتى على العمر، والعمر بمقدار الزمن الذى تعيش فيه، ولكنه مقدار ما تُوفق من عيشك.

وهل سمعت برجل كان يحفر قبره منذَ عقل معنى الموت وقد نَذر أن لا يَحول عنه، ثم لم يزل يُوسع الأرض من عمله ويُفسِح فى جوانب هذا

---

(1) بمعنى تكسد من قولهم حمقت السوق (بضم الميم): أى كسدت.

القبر وعُمر طويلًا وغبر على ذلك دهرة، حتى أصبح قبرهُ يأكلُ القبورَ أكلا[1] ثم أدركه الموت فانطرح فيه رمَّة بالية فإذا هو لا يملأ من جوفه عمل يوم واحد مما كان يعمل؛ وبقيت الحفرة كأنها فم مفتوح تصيح منه الأبدية: أين الميت العظيم الذى أعدَّ كل هذا لجيفته... وما بال هذا الساعِد وما بالُ هذا المنكِبِ، وفيم كان ذلك العمل، وما هذا النبوغ الميت الذى ضاعت فيه الحياة ولم يَعظم به الموت؟...

إنك إن لا تكن سمعت بهذا الرجل فلقد رأيت كثيرًا من مثله يعملون للحياة عمل ذلك الأحمق بعينه للموت؛ فهو لم يمت بمقدار ما أعدَّ لنفسه، وهم لا يعيشون بمقدار ما جمعوا لأنفسهم؛ ومنهم من أنفق العمر فى أكثر من حاجته، ومنهم من أضاعه فى غير حاجته، والعمرُ لا يُستخلف، وكلا الفريقين طرَف من قياس واحد فى الخِذلان وإن كان أحدهما يبتدىء من عكس الجهة التى يبتدىء منها الآخر.

لا يوجد على الأرض من يملك شيئًا فى الأرض غيرَ محدود؛ ولكن ما من أحد طمعا محدودا فى نفسه، ومن هنا كثير ما يسميه العامة "سوء الحظ" وإنما هو سوء التوفيق.

أما حسنُ الحظ فما أحسب الناس يعرفون ما هو، وما أراه إلا رغبة مجنونة لا يُقرُّها العقلُ ولا يستقيمُ بها نظام الدنيا؛ وإنما عرفَ الناس فى كل وجه من وجوه الحياة كيف تكونُ الخيبة، وكيف يمرض الأمل، كيف يهلكُ الطمعُ، وسموا ذلك "سوء الحظ" فحسبوا أن لهذه الأحوال ضدًّا، وجعل كلُّ واحد يتمنى لنفسه هذا الضدّ ويصفه ويسميه "حسنَ الحظ" لأنه زعم لاسوءَ فيه: كالذى يسمع بالموت فيحسب أنه يعرف

(1) كناية عن السعة. كأن القبور فى جوفه.

ما هو الموت؟ والحقيقة أنه لا يعرف منه شيئا وإنما عرف الحياة الهالكة!

يأبى كل أحمقَ إلا أن يختط لله خِطة يبنى عليها مستقبله؛ فكأنما يريدُ أن تمشىَ يدُ الله فى التقدير على أجزاء الصورة التى فى خياله[1]...! ولو جمع الله أبنيةَ الأمانى من أوهام الناس ومثلها وكشفَ عنها الغطاءَ فأبصرناها لرأينا ثم "مدينةَ المستقبل" التى لا يملك أفخمَ قصورها إلا الصعاليك...

أما أنا فلا أرى كلمة "الحظ" فيما نأمله وفيما نتعلل به إلا لحنا من الألحان الطبيعية التى خُلقت فى أفواهنا لنتغنى بها تحت الأحمال الثقيلة من مصائب الدنيا وأطماعِ النفوس، كى تجم الطباعُ وتنشط للسير بأحمالها، فما الإنسانُ إلا دابة للحمل، وعليه أن يحمل من معانى المادة التى يعيش فيها أو يعيش بها، والزمنُ نفسه بحكمته وعلومه وحوادثه إنما يعلمنا كيف نحتملُ الأسواء والهموم أكثر مما يعلمنا كيف نتقيها.

قال "الشيخ على": ولكن يا بنى ما هذا الذى يرتفع بالخامل، ويتقدم بالعاجز، ويجعل النكرة معرفة والمعرفةَ نكرة، ويضربُ وجهَ الحق عن مُستحقهِ، ويُفلج[2] الضعيف وما يسمو به أمل، ويحرمُ المجدّ وما يشك فى الظفر، ويخالف فى سبيل الأقدار بين نصيب ونصيب، ويقطعُ فى محاولة الأمور بين الأسباب والغايات ويُبعدُ المنفعة مما به تمامُها فإذا هى مَضرة ومَفسدة...؟

---

(١) من كتابنا "السحاب الأحمر" فى فصل الصديق: "ما الخيبة إلا رد الأقدار علينا حين تقول لا" وقد أفضنا هناك فى هذا المعنى فانظره.

(٢) أى يظفره بحاجته.

لعلك تقول؛ إن كل هذا يجتمع فى كلمتين هما "السعدُ والنحس"، وهما تنطويان فى لفظة واحدة هى "الحظ" ألا فاعلم أن هذا من وضع الإنسان لا من وضع القدر؛ وهى مذاهبُ لغوية تمر بين أنفسنا وبين أفهامنا، وقد جئتنى بجمل تنطوى فى كلمتين، وكلمتين تجتمعان فى لفظة، وأنا آتيك بجمل فى كلمات فى صوت واحد، فما هى صرخة الألم مثلا؟ أليست قطعة طويلة من كلام النفس يجمعها الحِس الثائر المتألم وينتفضُ فيها فلا تكونُ إلا صوتا واحدا؛ وانظر أين هذا الصوتُ مما يشرحه لك الطبيب من أسباب ذلك الألم وعوارِضِه فى كلام طويل وعبارة سابغة لا يتألم منها حرفٌ، مع أن أحدهما إنما يفسر الآخر كما ترى!

وأنا فلا بد أن أعلمك من أين خرجت هذه الأسماء[1]؛ لقد خرجت من تاريخ النوع الإنساني كله؛ فإن هذا الحيوان العاقلَ كان يشعر بمعانى الأشياء قبل أن يضع ألفاظها، وكان السخط والغيظ والحسدَ والمنافسة ونحوُها من غرائزه الطبيعية: إذ هى المعانى التى بثها الخالق فى نفسه لننشىء فى الأرض تاريخ هذه النفس؛ فكان إذا تعادَى رجلان أو فئتان فبغى بعضهما على بعض، أحس الغالب منهما أن قوى الطبيعة معه، وأيقن المغلوبُ أنَ قوى الطبيعة عليه؛ لأنَ الإنسان لم يكن عَرف نفسه بعد، وكان هو وحده يمثل فى هذه الطبيعة المخيفةِ الرائعة فكرةَ الخوف العاقلة!

فهذه الثقة فى القوى الطبيعيةِ المجهولةِ من الإنسان، وهذا الشك فيها والخوف منها، وهما الأصل فى تاريخ لفظتى: السعد والنحس.

ولقد كانت الأمم القديمة كلها تتوسل إلى الغيب المجهول بوسائل غريبة من الطلاسم والتمائم والتعاويذ ونحوها من الأعمال والعادات

---

(١) أى السعد والنحس والحظ.

المأثورة فى تاريخ كل أمة؛ لأن ذلك المعنى بعينه قد ارتقى مع العقل واشتدّ مع الإنسان فخرج من مخافة الطبيعة إلى الرغبة فى إخافتها، حتى تنزِلَ على حكم الإنسان فى اجتلاب الخير ودفع الشر، والزمن لا يأتى على الغرائز فيمحوها، ولكنه يحول منها شيئا ويهذب منها شيئا؛ ومن هنا كانت كلمة "الحظ" فاشية فى المتمدنين لأنها آخرُ صورة مهذبة من تلك الغريزة الأولى!

أما إن فى حوادث القدر أشياءَ لا نفهم وجه الحكمة فيها؛ وهى الحظوظ والأقسام، فذلك صحيح فى نفسه بمقدار ما هو خطأ فى أنفسنا؛ والشذوذ فيما يقع من حوادث الدنيا وفيما نشهد من تصاريف القدر أمر معلوم، ولكن لماذا لا يكون قاعدة لأشياءَ نجهلها ما دمنا نجهل الغيبَ كله ولا نعرف منه شيئا.

ما رأينا قط فى تركيب هذا الكون المعجزِ شيئًا خارجا عن موضعه، ولا شيئًا زائدًا فى موضعه؛ فلمَ نظن مثل ذلك فى الجهة التى بنا من حكمة الله، جهة السعد والنحس؟

يا بنىّ، إنما قربت النعمة عن فلان لأن القدر يسوقها إليه، وإنما بعدت النعمة عن فلان لأن القدر يسوقها إلى غيره، وإذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه، فربما سعى المرءُ بكل سبب فلم يُفلح، ثم يقع له سببٌ لم يَمتهد له وسيلة قط فإذا هو عند بُغيته، وإذا هو قد ملأ يديه مما كان قد يئس منه، فلا يكون عجبه كيف خاب فى الأولى بأشدّ من عجبه كيف نجح فى الثانية!

وهذا هو مظهر إرادة الله، فإن صادف من بعض النفوس الضعيفة حسدًا أو غيظًا أو سخطًا أو منافسة أو نحو ذلك مما يكون مظهرًا لضعف الإيمان فى النفس، تحولّ المعنى إلى لفظ يحمل كل هذه العواطف

الوحشية، فليس الكلمة التى تسلبُ الإنسان قوة نفسه وتكاد في إبهامها تسلب الأقدار قوة الحكمة أيضا، وهى كلمة "الحظ"، ألا ترى أن أحدًا من الناس لا يتعلل بهذه الكلمة ولا يحتج بها ولا يسكن إليها إلا من غيظ أو سخط أو حسد او عجز أو ما هو بسبيل من هذه المعانى؟

قال "الشيخ على" فلم يبق من معنى "الحظ" إلا أن يقال: ولِمَ وفق فلان، ولم خُذِل الآخر وما هو به بدونه، وربما كان أحق منه، وربما كانت المنفعة به أكثر والنعمة عليه أظهر؟ ولِمَ كان ذلك سعيدًا، وبأى شىء صار سعيدًا؟ وهذا شقيًا، وباى شىء عاد شقيًا؟ إلى نسق طويل من هذه المسائل التى لا تجيب عليها السماء ولا تكفُّ عنها الأرضُ أبدا...

ولكن، ياهذا لِمَ تخفى أنت وحشيَّتك المهذبة وتُكاتِمُ الغيظَ والسخط والحسدَ، ثم تحتال على أن تخرج هذه المعانى الخشِنة فى ألفاظ لينة، وأن تعترضَ على القدَر فى أسلوب من التسليم والرضا، وتطرح بينك وبين الله لفظة إن لم يكن معناها مخاصمةَ القضاء فمحاسبتَه، وإلا فمعتَبة عليه!

وهل تعلم أنت ما هى شعوبُ الحوادث وفنونُها، وما الذى سيفعله المجدود[1] حين تُقبلُ عليه الدنيا، والمحرومُ حين تدبر عنه النعمة؛ وماذا يكون مما يترتب على الحرمان أو ينشأ عن الحظ؛ وهل تدرى لِمَ أساء بعض الأغنياء حمل الغنى دون البعض؛ ولِمَ أحسن بعض الفقراء حمل الفاقة دون البعض، ولِمَ ابتُلِيَ طائفة بالتمنى وابتليت غيرها بالضجرِ مما تتمناه الأولى، وحُبب إلى تلك ما بُغِّض إلى هذه؛ ولِمَ انتزِعت نعمةٌ بعد أن استمكنَ حبلها، وأقبلت الأخرى بعد استيأسَ أهلها؟...

---

(1) ذو الحظ.

أليس من كل هذا يتهيأ البقاءُ للحياة الإنسانية فى نظام لا يخفُّ على نوع الإنسان فيهملُه فيفسد به، ولا يجور عليه فيستأصله فيذهبُ به؟

وهل الناسُ إلا خطوطٌ فى لوح الغيب يسقيم ما يستقيم منها ويعوجُّ ما يعوجُّ لأن كل ذلك مما لا بد منه فى جملة الوضع وإحكامه؛ فإذا أردتَ أن تسأل لِمَ استقام هذا ولِمَ أعوجَّ ذاك، ثم ما قصر وطال. ثم مادق وجل، ثم ماعلا وسفل، ثم ما انفرد واختلط فسَل؛ لَم خُلقت الدنيا ولم خلق الناس، وسَلِ الخالق ولا تسل "الشيخ على"..

كل ذلك يا بنى حكمة وكل ذلك انتخاب، وقد ظفر العلماء فى حركات النظام بما سموه "الانتخابَ الطبيعى"، وعرفوا أن ذلك سِر من أسرار التقدم والارتقاء؛ فاعلم أن ما نحن فيه من معنى "الحظ" إنما هو "انتخاب إلهى"، وذلك سر من أسرار الحياة والبقاء. وما من حركة لى ولك ولكل إنسان إلا هى تمس قطعة من تاريخ الحياة وطائفة من الأحياء فليس من حى هو لنفسه وحدها، وليس من حقيقة هى لنفس واحدة، وإن عَرف الإنسانُ بعضَ الحقيقة من نفسه فأكثر الحقيقة لا يعرفه إلا من سواه، ومن أجل ذلك يقضى نظامُ الحياة بما نسميه "الحظ" وإن كنا لا نفهمه كما يقضى به نظامُ هذه الحياة؛ وإنما قوةُ الحركة وضعفها على حسب ما يرادُ بها فى الدفع والجذب؛ فكن واثقًا بالله مؤمنًا بالقدر خيرِه وشرِّه، فالثقةُ وحدها حظ عظيم؛ واللّٰه تعالى يُصيبُ الناسَ بنياتهم، إذا هى حقائقهم الصريحة، وإذ هو وحده المطلع عليها؛ فهو يوفق السعداء للنية الحسنة ثم يسعدهم بهذه النية على الوجه الذى يعلم أنه من سعادتهم، فإذا لم يكن لهم الحظ الذى يريدونه فلهم الحظ الذى يلائمهم، وربما كان زمامُ العافية بيد البلاء وكانت النعمةُ فى عاقبة المصيبة، وكان الإنسان عابسا من طلعة القدر والقدرُ يضحك له!

وإذا لم يكن للأقدار نواميسُ أرضيةٌ تجرى عليها وتقع بحسَبها فإن أقربَ ما يصحُّ أن يعدَّ من نواميسها فيما أرى هو نِيات الناس.

وما النية إلا خُلاصةُ الفكر والضمير ونتاجُ ما بينهما، فلا تنطو على ما يسوؤك أن تنمَّ به ألسنة الغيب وإنما الحوادث من هذه الألسنة ولا تعقدُ هوَى ضميرك على ما تحسبه أملا من حيث لا يكون إلا حسدًا للناس ولا يُعَقِب إلا نكدًا لنفسك، وما تظنه عزمًا منك وهو طمعٌ فى الله ومخادعة للقدَر.

وحسبك من المتاجرة مع السماء بضاعة صالحة من الإيمان الذى لا غشَّ فيه، ومن المتاجرة مع الأرض بضاعة طيبة من النية التى لادنسَ فيها، فإن ربحك من هذه البضاعة التى لا تكسَدُ فى أسواق السماء والأرض، أن يُلقىَ اللّه عليك محبة منه وتأييدًا وسكينة؛ وإن رأى الناس أنك خسرت شيئًا من الغنى أو الجاه أو متاع الدنيا، فإنما تعلم أنت يقينا أنك لم تخسر إلا الهمَّ والشقاء والتعب بالدنيا وأهلِها.

ويومئذ يكون لك من حسن الإيمان، وحسنِ النية، وحسن الأخلاق، ما نعرف منه كيف يكون "حسنُ الحظ".

الحرب[1]

رُقعة من الأرض كأن فيها شيئًا من الطينة التى خُلق منها الإنسان، فهى تُمطَرُ من دمائه، وكأنما عرفته فى سماء الله فلا يكاد ينزل بها الجيشان، حتى تِعد أرواحَ أكثرهم إلى سمائه؛ ينجذب إليها الجندىُّ لأن فيها تُرابَه بل لأن فيه من تُرابها، وينطرح عليها لأن اقتراب منيَّته فى اقترابها، ولا تزال تصرعُه وكأنها من شوقها تضمُّه، وتلقيه على صدرها ميتًا أو جريحًا كأنها تُعْلمُه بذلك أن الأرضَ أمه، وهى مزرعة الموت، نباتُها الرءوس فمنها قائمٌ وحصيد، وثمراتها النفوس فمنها دانى القطافِ ومنها بعيد؛ وقد رواها بالدمِ الحىّ فنبت فيها العظم وأثمر فيها الحديد!

بل هىَ ساحة الحرب ترفعُ عليها القوة راية وتنزِل راية، ويحشَر إلى مسرِحها الناس ليُمثل لهم الموت كل رواية؛ وقد اضطربت فيها الآجال فكأنها أمواجٌ فى بحر القدر زاخرة، وتناثر فيها الرجال، فكأنهم عِظام فى بعض المقابر ناخرة، وظهرت تلك الساحة وقد كشرتَ عن أنياب من السيوف وأسنان من الأسِنة كأنها لأهل الدنيا قمُ الآخرة!

أما الجنودُ فإذا رأيتهم يلتحمون قلتَ زلازلُ الأرض قد خِلقت على ظهرها وإذا شهدتهم يقتحمون خِلْت نفوس الكرام قد حَملت على دهرها، وقد أيقنوا أنهم لم يكونوا للموت كانوا للأسر، ومن لم يبنَ منهم على

---

(١) هى الحرب العظمى التى ارتكس فيها العالم ١٩١٤ للميلاد، وبلغ ما أنفقته الدول عليها مائة ألف مليار ذهبا، وهلك وتعطل بها نحو ثلاثين مليون نسمة، فكانت حصادًا للأرض وأهلها، عمل فيه الموت والفقر والخراب جميعا، وقد كتب "المساكين" فى سنة ١٩١٦ قبل الهدنة بسنتين.

"الفتح" بنىَ على "الكسر" وما منهم إلا من يحمل رأسًا كأنه لا يملِكه، على عُنُق لا يدرى كيف يُمسكه، فى بدن لا يعرفُ أيأخذه الموتُ أم يتركه؛ فهو لا يبالى أظلته الشمس أم أظلم عليه الرمس؛ ونهض للتاريخ مع الغدِ أم ذهب فى التاريخ مع الأمس.

وإذا كان من صفة الميت أنه اسم فى الحياة بغير جسم، فمن صفة هذا الحىّ أنه جسم يعيش بغير اسم، وما الجندىُّ إلا عدد فى حساب الحرب، فسيان قَطعه "والطرح" أم أخذه "الضرب" وإنما هو حيث يتهيأ له انتظارُ الأقدار، فليس إلا الصبر؛ ولو فى بطنَ القبر وحيث يطبخُ له النصر على "النار فثمَّ المكان، ولو فى جوفِ البركان؛ وآيةُ عقله أن يكون كالآلة المتقنةِ تعمل بلا عقل فلا يخشى الحَيْف؛ ولا يسأل لماذا ولا كيف؛ ومن ذكائه أن يكونَ من صحة الذهن... بحيث لا يفرِق فى الموت بين الجمر والتمر، وأن يكون من "خفة الروح" بحيث تحمله اللفظةُ الخفيفةُ على جناح الأمر.

وما الحربُ إلا أن يتنازعَ للناس على الحياة فيقيموا الموت قاضيًا، ويطلبوا من الشريعة المدونة فى صفائح السيوف حُكمًا على الحياة ماضيًا، فكلا الفريقين يُقدّمُ الحجج، من المُهج، ويتكلم بألسنةِ الروح من أفواه الجروح ويأتى من بلاغة الموت فى خصامه بكل "ضرب"؛ ويُجرى الحياةَ مجرى "الاستعارة" فى "بيان" الحرب.

وقد تواقفَ الرجالُ فى يوم أطولَ من يوم العرض، وتقاذفوا بالآجال حتى أوشكت السماءُ لكثرة ما ينزلُ منها أن تقعَ على الأرض، فالخيلُ منقضة كأنها صواعقُ أرسلها الموتُ فى أعِنة، أو نوازعُ من السحاب بُروقُها الصوارِم والأسِنة، مسرعة كأنها تسابقُ تلك المنايا التى جرت بها الأقدار جائلة كأنما تحيرت كيف تفزُ من ساحة الموتِ بما حَملت من الأعمار،

وعلى ظهورها كل فارسٍ كأنه بين الرماح أسد فى غاب وكأنه الموت من سيفه سم خُلقَ فى ناب، وكأن العنانَ فى يده سوط ولكنه سوط عذاب، لم يُعد فى الفُرسان، حتى لم يعد من الإنسان، فإذا صاح بقِرنِه عرفت الوحوشُ ذلك الصوت، وإذا هاجته الحربُ لم يفته من ضروبِ النقمةِ فوت، وإذا نظر فى مقتل عدوه حسبتَ عينيه نقطتين على تاء الموت.

وقد ثار الغبارُ كأنه طريقٌ يُمَد من الأرض إلى السماء، أو كأنما أراد أن يُمثلَ السحابَ وقد رأى المطرَ تمثله الدماء، أو كأنه أرض ثامنة بدأت تتخلق مبعثرة فى الفضاء، أو كأنه لما رأى الحرب تتوقدُ هب مستجيرًا بالهواء من الرَّمْضاء، أو هو قد فر من الأرض لما خشىَ أن تنفلق الأرض من حوافر الخيلِ، أو كأنه أنف أن يأتىَ الناسُ أعمال اللصوص فى نور الشمس فضرب عليهم قبة من الليل، أو حسب عقولَ الجندِ فى أيديهم وأرجلهم[1]... فطار ينظرُ أين تلك الهام، أو هو لما رأى المطرَ أحمرَ خشى على الأرض فثار إلى السماء ينظر ماذا دهى الغَمام.

وقد رمت الأرضَ تلك المدافع بزلزالها، وألقيت على الجنودُ صورًا من شر أفعالها، فتركتهم كالغابة الملتفة إذا استطار فيها الحريق، وانحطَّ فريقٌ من أشجارها على فريق؛ وكأنما انقض عليهم من قنابلها جِدارٌ من الجحيم، وكأن كلَّ مِدفع فى صيحةِ الحرب إنما هو عنقٌ شيطان رجيم.

تحمل فى بطونها أجِنة من النار ترتعد الحصونُ لِهَول ميلادها، وتتحنى القلاع مخافة منها على أولادها[2]، ولها صوت بعيد كأنما تنادى

---

(١) لأن أعمالهم كلها من البطش والفتك بالأيدى والأرجل.

(٢) هم الجند.

به السماء لترسل المنايا الطارقة، أو لتستقبِل الأرواح المفارِقة، أو كأنه نشيد فخم تفتخر به الأرض على الرعِد والصاعقة.

وهى القارعة وما أدراك ما القارعه، أما يومُها فيومَ يكون الناس كالفراش المبثوثِ وتكون الجبال كالعِهنِ المنفوش[1]؛ وهو إن لم يكن يوم النفخِ فى الصُّور فإنه يومُ تحصيل ما فى الصدور[2]، وإن لم يكن يوم يُبعثرُ من فى القبور فإنه يؤم يُبعثر الناس فى القبور.

وهو المِدْفع حسبُه قوّة أنه من الحديد، وحسْب ما يحويه قولُ الله عز وجل ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وحسبُه رُعبًا أنه شكل (عصرى) من عذاب الخَسْفِ القديم أعده الله لهذا الإنسان الجديد... فكم من حِصن منيع اعتز به أهله، فتركهم فيه ترابًا وعِظاما؛ وكم من قلعة شامخة اغترَّ الجندُ بقُواها، فدمدَم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها[3].

وأما الرَّصاص فهو من سماء الموتَ حبٌّ غمامه، ولو صفير كأنه ترنم الشيطان ببعضِ أنغامه؛ ولو أن عاصفة كنَست أرض الجحيم لما شوّت الوجوه بأشد من ناره، ولا حملت من هناك إلا ما تحسبُ هذا الرصاص من حصاه وغُبارِه، يثور كما تثور الأعاصير، ويندفع كما تندفع المقادير، ويقع على الأجسام بالأجلِ أو يطير، ويتناثر فكأن فى السماء نجمًا تفتَّتَ فسقط، أو كأن قطعة ذابت من الشمس فألقت على وجوه الناسِ هذه النقط، أو هو فوْج[4] من ذُبابِ النار، هبط إلى هذه الدار؛ فلا

---

(١) العهن: الصوف وهذه الكلمات اقتباس من القرآن الكريم.

(٢) المراد هنا تحصيل الأرواح، والكلمات أيضًا اقتباس

(٣) دمدم عليهم، طحنهم فأهلكهم، والجملة اقتباس من قوله تعالى ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾.

(٤) الطائفة أو الجماعة.

هَمّ له إلا الجلودُ وإنضاجُها بلذعه، والعيونُ وإخراجُها بنزعِه؛ والعروق
واستخلاصها، والدماءُ وامتِصاصُها، والأرواح بعد ذلك واقتناصُها.

وكأنه زفرات غير أنها لا تخرج من الصدر بل تنزل فيه، ولولا أنها
تشويه ولا تشفيه. وهو أوقعُ فى الرءوس من الأوهام وأنفذ فى الأغراض
من مكايد الأفهام، وأحرُّ على الأكبادِ من كل ما يُضرِم غضبَ الجبار
المغيظ، وما هو إلا العذابُ الرفيع إن كان المدفعُ هو العذاب الغليظ...

وهناك من الروع ما لا يُحصيه الوصف ولا يحصّله، وإن عرفت آلة
التصوير كيف تجمله فليس يعرف القلمُ كيف يفصّله؛ ولعمرى لو كان
البحرُ الأسودُ فى المحبرة، لما بلغ فى وصف هذه المقبرة، غير أنها الحر
التى ابتدعها العلم لهلاك الإنسان، والقوة التى رُزقها العقل فكانت با
على الأبدان.

قوة المعجزات التى أركبت هذه الديانة الإنسانية على مت
وطوت لها من السماء بين جناحَى النور والظلام، فإذا تم
خفضَ لها السحاب جناح الذل، وأقبلت الملائكة تسأل ربّها
من العالم بل ما هذا الكل؛ وما هذه الجرادةُ التى رأسها فى
فى جهرها، بل ما هذه الحياة الأرضية التى عرجت ف
من حدود دهرِها، بل وما هذا العقل الإنسانىُّ الذى لا
يدفعه إلى السماء ارتعاشه وهو مع ذلك يندفعُ
السيل، ويطلع نصفه كالنور على الأرض (٣) ليط

---

(١) المراد برأسها الطيار الذى يركبها، لأنه يكون فى ظه
(٢) كناية عن عدم الاضطراب والخوف.
(٣) كناية عن المخترعات والأعمال النافعة مما به

وهى الحرب العامة كأنها ثورة الدهر وقد ضجر من هذا العلم وطغيانه، ومل من سماجة إنسانه؛ واشتاق إلى عصر حيوانه، فزفر زفرة أيقظت الموت وكان نائمًا، وتركت هذا الإنسان من الفزع لجنبيه أو قاعدا أو قائما؛ واستنزلت من القضاء ما كان فى علم الله غيبا، واشتعل من هولها رأس الأرض ببياض السيوف شيبا؛ وجعلت من البيوت قبورًا لأهلها، وسارت فى معايش الناس بين صعبها وسهلها، وأظهرت لعقول العلماء أن أكثر علمها من فنون جهلها...؛ فالأرض فى بلاء منتشر لا يُعرَف له حجم، والشعوب فى ظلام من اليأس مُلتهب النّجم، والدول فى عصر ...كليل الشياطين كله رَجم...

...قال "الشيخ على": تلك هى الحربُ القائمة اليومَ ولكن كما ترى خيال ...ى الماء؛ أما الحقيقة فكلُّ حرف منها جيش، وكل كلمة أمّة ووراء ...ى رائع هو استجماعُ الحياةِ الأرضية لمقابلة الموت. ولو أن لهذا ...ا يعتريه كما تعترى الناس أمراضهم لقلت إن شِقَّ الأرض قد ..." فأصبح شقُّها الآخر لا يكاد يَجرُّ ظلّه حول الشمس، لأن ...ة بينه وبين ذلك النصف الميت؛ فقد اشتبكت العلائق بين ...، إذ لا تعرف دولة بين الناس ترعى شعبا من البهائم، ...ن نفسه فى عصر العلم والمدنية عرف أخاه، لأن أكثر ...ومن ثم اتصل به اتصالَ اليدِ بأختها فى المعاونة ...؛ وجمع العلم بين هذه الأمم لأنه لا ينتسب ...لأرض خال ولا عم، ولا يعرف شىء يقول ...يا أبتِ" إلا التاريخ الإنسانى.

...دن.

ولها سَفَر بين أمم الأرض كلُّ ما يخرج من رأس الإنسان وما ينتجُ من يده. واتصل ذلك واستفاض حتى كأنما دارت الأرض دورة جديدة من داخلها، فما إن يقع الاضطراب فى ناحية منها إلا دخلها من الأثر فى سائر نواحيها، من هزةٍ ترجُف، إلى زلزلة تهدم، إلى الخسفِ الذى يجعل عالِيها سافلَها.

وإنى باسطٌ لك شيئًا من الرأى فى كلمات قليلة، ولكنها كالمَعركة الأخيرة التى يحقُّ بها النصر، فتكون هى تاريخ الحياة، ولا يكون ما سبقها إلا تاريخًا للموت.

ألا فلتعلم أنه لو كان لحوادث الدهر منذ نشأ الدهر تاريخ صحيح يصف لنا ما كان سببًا فى كل حادثة وما صارت كل حادثة سببًا فيه، لأثبتَ يقينًا أنْ ليس فى الأرض شىء من خير أو شر غير ما يلزم لبناء هذا التاريخ الأرضىّ على الوجه الذى يتفق مع بناء الإنسان، والتاريخ يَطرُد حينًا ثم يعطِف ههنا وههنا فى مجراه من الغيب، فلا يتحول إلا انشقت له ناحية من العالَم.

فإن خَربِت دولة أو سقطت أمة فما هى بصاحبة الدهر كله، وقد كان لها قسمُها منه ثم عاد الدهر يطلب قِسمه منها. ولن يُجدَّد البناء القديم حتى يكون الهدم أولَ العمل فى تجديده.

فالحرب شر لابد منه، لأنها من عوامل التحليل والتركيب فى تاريخ الإنسانية؛ وهى بذلك سبب من أسباب استمراره. وكلُّ شر لابد منه فهو خير لا غنى عنه.. وهل يبتغى الإنسان أن تُضربَ العصورُ والدول كما تضرَب الدنانير والدراهم من معدِن معروف على وجه معروف ولغاية معروفة؟ وإذا لم يكن لنا مستقبل التاريخ وكنا فى عمر محدود فما

نحن والرأىَ فى بناء هذا المستقبل. وكيف نقدِّم لله آلات البناء ثم نحْكِم الشرَط أن لا يكون فى هذه الآلات ما يحتقر أو يكسر أو يَرّض.

إنما يجعل للحرب ذلك الوصفَ الذى يُطيرُ لها فى كل أرض صوتا[1] بالذم والسوء، أنها لا تأتى إلا بغتة، ولا تطبِق إلا فى غفلات العيش، وأنها تثور فى بياض الأمن حمراء من لون الموت، وتطلعَ فى خِصْب النعمة سوداءَ من لون القَحْط، وتنبثِقُ بالشر من حيث يكون الشرُّ مأمونًا وتصُب المحنةَ على من لا يُطيقها، ثم لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تِلفُّ من جانبى الحياة لَفًّا. وهى فى كل ذلك البليةُ المكشوفة التى تشتهِرها الأحاديث[2]، وتَضرب فيها الألسنة، وتسيلُ عليها الأوهام بما فى طباع الناس من طبقاتِ الأخلاق ضعفًا وشدّة، وخوفا وطمعًا، وبخلا وكرما، وحذرًا واندفاعا، بحيث تصبح وكأنما ترتمى على رأس كل إنسان بالموت، أو بالخوف من الموت، أو بالخبر عن الموت أو بما يُشبه الموت، أو بما يكون الموتُ خيرا منه!

وإلا فكم يترضرَض الناس[3] كل يوم، وكم يجدون من صنوف الدمار فى الأعمار ومن ضُروبِ الأرزاءِ فى الأرزاق، ما لو جُمع بعضه إلى بعض فى نَسق واحد لطَمَّ على هذه الحروب كلِّها، ولأظهر لك أن فى السِّلم ما هو شر من الحرب وإن لم يصرخ به صوت الموت.

وما البغى والظلم والكيد والفتنة والاستبداد ونحوها مما يشمل أكثر وسائل الحياة الإنسانية إلا ضروب من القتل الخفىّ، وربما عُدَّ الموت فى بعضها راحة من الموت... ولكن ذهب بإثمها فى اصطلاح الناس أنها

---

(١) كناية عن تحدث الناس عنها بذمها.

(٢) تذمها وتشهر بها.

(٣) يتكسرون، يقال: ترضرض الحجر: إذا تكسر.

خُططٌ موضوعة للمغالبة على الحياة؛ وأنها لا تنالهم إلا فردًا فردًا، وكأن باطلَ الأمم غيرُ باطلِ الأفراد، لأن الاجتماع قضى منذ أولِ العهد به أن تكون الأمة مظهرَ السرع وأن يكون الفردُ مظهر العقاب، ولكن ليت شعرى لِمَ يكون الفرد كذلك من الأمة ولا تكون الأمة كذلك من أمةٍ غيرها؟

فالحربُ هى عقاب الجماعات، وهى كذلك ضرورةٌ اجتماعية، ولن يخلو منها تاريخُ الإنسان إلا إذا رجع الناسُ أمة واحدة فى تركيب مستحيلٍ لا يتهيأ معه أبدَ الدهر ما يَقسمُ هذه الامة على نفسها، ولعمرى إن ذلك التركيب الاجتماعى الذى يخلو من الحروب ليُزهِّد الناسَ فى جنة الله ولا يدعُ للأديان محلاً على الأرض، ويحسبون أنه صلاحٌ فى الطبيعة وهو يفسدُ الطبيعة كلها، فما هو إلا خيال شعرى فى تاريخ الحقيقة الإنسانية، وما أرى الحرب إلا البرهانَ الذى تقيمه الطبيعة أحيانا على فساد ذلك الخيال كلما أو شك الضعفُ الإنسانى أن يتوهمه حقيقة..

وإذا كان الله لم يخلق إنسانا من النور فلا تظلمُ نفسه، ولا من الثلج فلا يَحمَى دمُه، ولا من الصخر فلا يَهِنُ كاهله، ولا من الحل فلا يحيف على غيره؛ ولا من الرضا فلا يطغُ فى سواه، ولا من الكتمان فلا تخرج أضغانُه ولا من السكون فلا يتحركُ فى نزاع؛ فكيف لعمرى يخلق بعض الكتابِ والفلاسفة هذا الإنسانَ الجديدَ من عناصر السِّلم وحدها؟

إلا إن الإنسانَ لا يولد ساكنًا ولا نظيفًا، وإنما يخرج من بطن أمه فى ثورة دمويةٍ تنفجر من حوله ههنا وههنا؛ وما أرى الحربَ أكثرَ ما تكون إلا ولادة للتاريخ على هذا الأسلوب، فكأن من التاريخ ما يولد على أسلوب الحيوان فى ثورة من الدم، ومنه ما يوجُد على أسلوب النبات فى تحوُّل ساكنٍ غيرِ منظور.

قال "الشيخ على": والحركاتُ المجهولةُ فى نظام الأرض كثيرةٌ، بعضها يجرى على الطبيعة وبعضها يجرى على الإنسان؛ فكما يُدكُّ الجبلُ وتخسفُ الأرضُ ويغطى الماءُ وتثوُر العواصفُ وتتفجر البراكين، يجرى على الإنسان من مثل ذلك القحط والوباءِ والحروبِ وغيرها؛ لأن الإنسان فى الحقيقة هو الطبيعةُ الرفيعة، وما القوةُ المركبة فيه التى تخرج من مجموع غرائزه إلا تهيئة حربية فى نفسه[1].

فلولا أن هذا الإنسان مهيأ للحروب بأدواتها الطبيعة، وأن هذه الأدواتِ هى كذلك من أسباب بقائه اللازمة له، لما قامت فى الأرض حرب قط، ولو أبعدنا فى مطارح الفكر ونظرنا من وراء النفوس الإنسانية إلى ميادين القتال لرأينا أن الحرب التى تقوم بين الأحياء إنما هى حرب قائمة بين مذاهب الحياة.

وكما يجتمعُ العلماءُ وأهل السياسة لتنقيح الأنظمةِ والقوانين، تجتمع الأمم المتحاربة لتنقيح الطباع والعادات، وما أعجب أن يكون القتلُ تنقيحًا فى قانون الحياة[2]. فلا تنظر من الحروب إلى هؤلاء المساكين

---

(١) لو لبست الغرائز الإنسانية مادة لما لبست إلا الأسلحة.

(٢) من تمام هذا المعنى ما ذكرناه فى كتابنا "تحت راية القرآن- المعركة بين القديم والجديد" فى كلامنا عن فساد الحضارة الغربية، ننقله توفية للفائدة : الروح الإنسانية متى أصبحت موتورة ساخطة متبرمة بأسباب مختلفة كأسباب هذه المدنية من سياسية واجتماعية ووطنية، لم تكن روح الحياة ولكن روح القتل وما فى حكمه، ومن ثم فلا بد فى هذه الحضارة من انفجارات حربية مستمرة، ولا بدلها أن تجد من تقتله ومن تظلمه ومن تستعبده؛ وإذا تحاجزت الدول وتتاركت زمنا فانما يسمن بعضها بعضا فى مراعى السلم والعيش وكل أمة عينها على شحم الأخرى !

"ولقد كانت الحرب العظمى تنقيحا إلهيا عنيفا لهذه الحضارة الزائغة فوضع الله يده عليها فمحت أكثر حسناتها ورقائقها وطرفها البديعة، وأميتت طباع الترف لتنبعث طباع القوة، وقر فى الرجل معنى الرجل وفى المرأة معنى المرأة وكانا قبل ذلك وإن الرجل نصف امرأة- وإن =

والمتوجعين والمحزونين: فذلك كله إلى نهاية ولا يبقى منه على الأرض شيء قلَّ أو كثر ولا أحمق ممن ينظر إلى ساعة الهدْمِ إلى آثار الهدم ولا يعلمُ أن ذلك سبب لما بعده، وأنه إذا لم يهلك يومٌ فى سبيل الغَدِ هلك المستقبل كله.

ولكن متى تكون الحرب حقًا ومتى تكون باطلا؟ فهذا مالا سبيلَ إلى وجه الرأى فيه، وربما كان الجواب عليه سؤالا آخر. وهو: متى تَعْرض فى حياة الناس تلك المسائل التى لا يصلُحون هم أنفسهم لحلها؟ ومتى تكون الحركةُ العنيفة التي يتحول بها التاريخ الإنسانى كلما وجب أن يتحرف ليتبع مجراه من الغيب؟

أليس ذلك هو السبب فى أن العقل أحيانًا يكون أولَ ما ينهزم فى الحرب كما تراه اليوم[1]. فيصبح الفلاسفة والعلماء المتفننون ولا همَّ لهم إلا إدارة حركة الموت هجوما ودفاعا، وترى الصلواتِ والأدعية والتسابيح تصاعدُ إلى الله وفيها ريح الدمِ والنارِ والغازات، كأنها قنابل صُنِعت من العواصف؟

وقد يقول بعضهم إن فى الحرب إسرافًا اجتماعيًا بما تأخذ من الموتى وما تترك من المرضى؛ ولكن كم من الإسراف الطبيعىّ والأخلاقى فى بقاء الناس موفورين بعلومهم وفنونهم وشهواتهم ونعمهم ومصائبهم ونحوها، مما يؤدى إلى انطواء هذا المجتمع الإنسانىّ فى الأدمغة والقلوب

= المرأة ضعف نفسها، فكأن الحرب كانت مصفاة للحضارة ثقوبها الخرائب والخنادق والقبور، ومتى جمعت الأوساخ بعد زمن فالمصفاة باقية؟.

(١) كانت الحرب العظمى حرب مخترعات فاتكة جهنمية لم يعرفها تاريخ الإنسانية من قبل، كأنما كانوا يجربون أن يخترعوا جهنم.

بما تبعث عليه تكاليف الحياة الاجتماعية الساميةِ التى تحاول أن تجعل الإنسان حيوانًا على شكل مخترع.

فلا تُزَيِّنَّ يا بنىّ هذه الوحشية التى تعترى الناس فى حروبهم إلا سببًا فى رجوعهم بعد ذلك إلى الإنسانية الخالصةِ التى أفسدوها بحضارتهم وضربوا عليها الحدود من مصطلحات التمدّن ومن أصولِ المعاملة، فأصبح الإنسان منهم يقضى العمر وهو يتعلم كيف يصير إنسانًا...!

وأنا يا بنىّ فى خاصةِ نفسى أكره الحربَ، لأنى أراها تُصور بكل ألوان الهلاك والخرابِ فكرةَ العدمَ المبهمةِ على قطعة من أديم الأرض، وأمقتها لأنها تلوِّث الحياةَ بدماء الرجال ثم لا تغسلها إلا بدموع النساء والأطفال، وأبغضُها لأنها تدفِن تاريخَها الصحيح للمستقبل ولا تترك للحاضر إلا تاريخها المشوّه فى أعضاء الجرحى، ولكن البغض يا بنى لا ينفى الحكمة مما تُبغضه؛ وما سرور نصف الناس إلا بما يكره النصف الآخر!

وأكبر شخص اجتماعى وهو الأمة، كأصغر شخص اجتماعىّ وهو الطفل: كلاهما يبكى ويتألم حين يُضربُ لتأديبه.

(قال "الشيخ على": وهذا آخر قول الشيخ على...)

على الكوكب الهاوى

حسناء أفقرتها الحرب، وكيف تتلقاها الحقيقة؟

طريدةُ بؤسٍ مل بؤسها الصبرُ ... وطالت على الغبراءِ أيامها الغُبرُ

تنكرت الدنيا لها ورمت بها ... على الكوكب الهاوى حواه فضا قفر

وكانت كما شاءَت وشاءَ جمالها ... كما اشتهت العَلْيا كما وصف الشعر

تلألأ فى صدرِ المكارم درّة ... يُحيط بها من عِقد أنسابها دُرُّ

وما برِحت تَرقى السنين وتَعتلى ... وكلُّ المعالى فى طفولتها حِجْرُ

فكانت كزهر نضر الفجرُ حسنه ... ولما علمت كالنجم أطفأها الفجر!

رمى الدهرُ أهليها بحرب ولم يُرد ... بها الشرَّ لكن الحروبَ هى الشر

ومن يحطمِ الكأس الرويةَ وحدها ... فقد ذهب اثنان: الزجاجةُ والخمرُ

تقاسمتِ الحسنَ الإلهى وانثنى ... يقاسمها، فالأمر بينهما أمر

فللشمس منها طلعة الحسن مُشرقا ... وفيها من الشمس التوقد والجمر

وللزهر منها نفحةُ الحسن عاطرا ... وفيها ذُبولٌ مثلما ذَبل الزهر

وللظبى منها مقلتاها وجيدها ... وفيها من الظبى التلفُّت والذُّعر

وما قيمة الحسناءِ يَقبُحُ حظها ... وتذوى بروض الحبِّ أيامها الخضر

من الحسن معنى يهلك السن عنده ... كما أهلك الأزهارَ أن يؤخذَ العِطر

فما السنُّ فخر للحِسانِ وإنما ... لخالقه فيما يريد به سر

ضعيفة أنفاس المنَى بعد ما غدت ... رقابُ أمانيها يُغللها الفقرُ

وبين خُطى أيامِها كل عثرة ... يزلزلُ أقدام الحياة بها العُسر

وزجت بها الأحزان فى بحر دمعها ... وليس لبحر الدمع فى أرضنا بَرُّ

يقاذفها موج الليالى وما لها ... سوى زورق واه يقال له العمر

وما التمست رأسَ الرجا عند صخرة ... فكان سوى رأس الردى ذلك الصخر

إذا استنبأوها أرسلت من دموعها ... لآلىءَ حزن كل لؤلؤة فكر

وإن سألوها لجْلجَتْ فكأنما ... عَرا اللفظَ لما مر من فمها سُكر

مُشردةٌ حيرى تَنازعَ نفسَها ... فريقانِ ذُل لم تعوّده؛ والكبْر

وما قتلَ الذلُّ امرأ من عبيده ... وكم من فتى يرمى بهامته الفخر

ولو أنصف الإنسان فى قدر نفسه ... رأى قدرَها أن لا يهونَ لها قدر

فلا تتساءل كيف تقعد وادعا ... ولكن تتساءَل كيف يسعى بك الذكر

وكن رجلا كالضرِس يرسو مكانه ... ليطحَن، لا بعينه حلو ولا مر

ولا تتوقع أىَّ جنبيك واقع ... إذا انطبقت يوما حوادثها النكْر

ولكن تلقَّ الدهرَ غير مُفزَّعٍ ... بصدرك ولثغر الخطوب كما تعرو

فعزُّ الحسامِ الهُنْدوانىِّ صدره ... وذلُّ العصا إن العصا كلها ظهر

ولن يَهِن الحرّ انتضى عزماتِه ... وصال بها من صبره الخلقُ الحرُّ

وإن تغلبِ الأبطال فى كل حَومة فما عرفت حرب بها غلبَ الصبر!
وليلة هـمّ مـا يـطـيـر غـرابـهـا ولا انحط من وكر الصباح له نَسر
تُطل عليها الشُّهْبُ أعيُنَ نِقمة تطايرَ فيما بينها النظرُ الشَّزْر
ويـزفِـرُ فيها الليـلُ زفـرةَ مـارِدٍ تطير لها من بَرقِه الشُّمّلُ الحُمر
ويخفُقُ فى أحنائها كلُّ عاصِف خفوق فؤادٍ بات يُسمِله الصَّدر
ويَغضَب من آثامها الموت غَضبة يُـرَجُّ لها فـى كـل نـاحـيـة قبرُ
دُخـانـيّـة هـوجـاءُ لـو مُـد نقعُها لقام على وادى الجحيم بها جسر
وأهـونُ مـا فـى أرضِـهـا وسمائها على الناس، هاتيك الحزينة والبدَر[1]
ثـوَتْ تحتها تلك الفتاة عليلة تئزُّ كما أزتْ على نارها القدْرُ
وفى غرفة مما بَنى الله لا الورى فليس على من حلَّ ساحتها أجر...
جوانِبها شـرق الظلام وغربه وفى سقفها ضاءِت كواكبه الزهر
ممدَّدة كالسطرِ فى صفحة المُنى وأطمارها تبدو كما "شُطِبَ"[2] السطر
فإن يك أهل الأرضِ أرقامَ حاسب فتلك وراءَ العالمَينَ هى الصَّفْر
رمتْ عينها يُمنى ويُسرَى فلم تجد على الأرضِ خُلقًا ليس فى جنبه غدر
رأتْ كلَّ مخزاة من الشر تلتوى ويَهربُ ذُعرًا من جنايتها العُذر

---

(1) حتى البدر لا بهجة له إلا فى ليالى الصفاء، وفى غيرها يتصعلك فى سمائه.

(2) هذه الكلمة مما استعمله المولدون، وفصيحها الترميج، وهو افساد الأسطر بعد كتابتها، وفى معناها ألفاظ أخرى.

رأتْ أثرًا تدنى به الأرض والسما ... وليس سوى الإنسانِ فى جُرحهُ ظفر

رأت ذلك الإنسانَ يطغى بعلمه ... ويجهل أن العلمَ عن جهله زَجْر

أليس يَرى الإنسان فى القرد شِبهه ... فهل ذاك إلا من تكبُّره سُخر

كما عاقبَ اللهُ الأسودَ لكِبرها ... فجاءَ لنا فى صورة الأسدِ الهُّر

رأت هذه الحروبَ الضَّروسَ كأنها ... مراحِل يَطويها من الزمنِ الحشْر

وما حَمِد الشيطان للناس مثلَها ... ولا كان للشيطان فى مثلها شُكر

وما الحرب إلا رجفة الأرض رجفة ... يموت بها عصرٌ ليحيا بها عصر

وما الحرب إلا مَطرة دموية ... إذا دَنِست روح الورى فهى الطهر

وما الحرب إلا غضبة الله لا مست ... مخازِيَ الدهرِ فانفجر الدهر

فيارب، جلِّت هذه الحرب محِنة ... على الناس،لا الإيمان منها ولا الكفر

ففى كل نفس غُصَّةٌ ما تُسيغُها ... وفى كل قلب كسرة ما لها جَبْر

وبين شفاه الناسِ للناسِ لعنة ... إذا لم يُثرْها الحقُّ ثار بها الخسر

ومالوتِ الأسياف فى الأرض عُروة ... من البغضِ إلا والرءوس لها زِر

فلا تخدعوا الإنسان عن نزغاتِه ... فما الناس إلا ما أساءوا وما سَرُّوا

وكم قيل "إنسانية ومحبة ... وعلم وتمدين" وأشباهُها الكُثر

فيا قدَرا يجرى دِماءَ ويلتِظى ... سعيرا، أذاك الحب أنت أم الهجر

ويا هذه لا تجحدى، إنما الورَى ... كما خُلقوا والمكر بعد هو المكر

وأين من الناس الكمالُ ولم نزَل ... نرى السودَ سودًا ليس يَغسلُهم بحر

ولابــدّ مــن ضــدَّيْــن كــلِّ حــالــة ... وبيـنـهـمـا إمـا الـنـجـاة أو الأسـر
بذلك يَجرِ الغيبِ إن طار أو هوى ... فـإن جَـنـاحـيـه المنـافِـع والـضـرُّ
فلا تطمعى أن تُغفلَ الأرض أهلهَا ... ولا مَـدَّ فـوق الأرض إلا لـه جَـزر
ولا تطمعى أن "يرفعَ" المال أنفسا ... يُحركها من ذُلِّ مطمعِها "الجرّ"
ولا تاملى الأيام خُضرا على المدى ... ففى كل حين يَسقُط الورق النضر
ولا تسألى الزلزال ترقيصَ طفلة ... وأصغر ما فى كفه الجبل الوعر
ألا إنـمـا الـدنـيـا سـلاليـم يَـرتـقـى ... بها الناس تغريم أواخـرها الغرُ
نـذَروا غُـلاها لِلكمـالِ، وعندهم ... من العلم أسباب يُقر لها السحر
فـمـا بـرحـوا يـرقَـوَن كـل بعيدة ... ولم يعلموا أين الكمالُ ولم يدروا
فما علوا واستحمقوا وتتابعوا ... وغـرهـمُ بـاللـهِ ذلـك فـاغـتـروا
... تهاوَوا على أعناقِهم وتحطمت ... بهم درجات كان من فوقها النصر
كـذاك سـلاليـم الـحـيـاةِ، فكلنا ... طموح لأعلاها وفى الوسط الكسر

الجمال والحب[1]

وكأنما أنظرُ الآن فى قلب رجل لا فى وجهه، إذ تهللَ على السحاب وجه "الشيخ على" شيخ المساكين.

أراه كما كنتُ أعرفه، ضاحكا غيرَ الضحك الذى يَلبسُ وجوه الناس، فلا يضحك لشىء إنسانى، بل ما هو إلا أن تراه قد تهلل فرفع وجهه إلى السماء وأرسل من فمه مثلَ نورِ التسبيح فى إشراق جميل؛ حتى لقد كان يخيلُ حين أبصره على تلك الهيئة أنه لا يضحكُ ولكنه قلبه يرتعشُ بعضلات وجهه.

لو أراد اللّه بالناس خيرًا لوضع فى أبصارهم أشعة تنبث فى أطواءِ القلوب فتعرفُ ألوان العواطف وتميزها لونًا من لون، ولكنه جعل الوجهَ غطاء على معانى القلب ثم سلط الفكرَ على معانى الوجه ومعارفه يصورُ فيها ما شاء مما له أصل فى الحس وما لا أصل حتى لتختبىء الإنسان عن الإنسان وهو مكشوف لعينيه... وإذا كان اللّه سبحانه قد أوجد الخير والشر صريحين فقد أوجد الإنسان ثالثًا لهما وهو تلبيس أحدهما بالآخر؛ وأراد الخالق ذلك ويسره للإنسان فجعل فيه آلة واحدة للصدق وهى القلبُ وآلتين للكذب وجهه ولسانه.

كان "الشيخ على" يُشبه إنسانية قائمة بغير إنسانها على حين ترى أكثر الناس كأنه إنسان قائم بغير إنسانيته[2] وكانت الدنيا كأنما نسيت

---

(١) هذا هو الفصل الذى أشرنا إليه في تعليق صفحة ٣٩ ننقله عن كتابنا (السحاب الأحمر) وقد وضع هناك (المساكين) الحب، وهو رأى من آراء كثيرة استوفيناها فى ذلك الكتاب صنوه (الرسائل).

(٢) أكثر من ترى الناس لهم حظوظ الإنسان ولا إنسانية فيهم والشيخ على لم يكن له من حظ الإنسان إلا الجرعة واللقمة وغمضة العين.

أنه فيها فتركت له روحه صافية منطلقة تتطعمُ الحياة غيرَ مستقرّة فى شىء كما يتطعم النسيم رائحته من ورق الزهر فهو يتسحب عليه ولا يستقرُ فيه ولو أنه ورقُ الزهر.

وما زالت روحُ هذا الرجل منى منذُ عرفته كأنها نضاحة عِطر[1] نمُجُّ رَشاشها على حياتى روحًا وعبيرًا وندى، وكأن الرجل طفل عزيز من أطفال قلبى يملأ ما حوله ابتسامًا وطفولة ورقةً؛ ولو أن أحدًا خُلق من عينى الطفل الضاحكتين لكان هو- الشيخ على- رحمه الله، على أنه كان رجلًا من سُوسِه القوة معصوبًا متكدسًا[2] يملأ جِلدَه كأنه جِذل من أجذال الشجر[3].

وانقبضت نفسى انقباضةً شديدة إذ تغير الرجل فى خيالى[4]، فنظر إلى نظرة ينقدح منها شرر الغيظ، فلو أبصرت عيناك طائر ضعيفا أراغه نسر فاستطرده فى نواحى الجو وهكذا وهكذا[5]، ثم أهوى له بمخالبه، ثم سَدّد إليه نظرة غرَزت هذه المخالب وانفجرت بآلام لحمه ودمه؛ فاعلم أن تلك كنظرة "الشيخ" إلى.

ولقد تبعثرت لها شياطينُ نفسى فانطلقت يُحاول كل شيطان منها مَهربًا، وكانت توسوِس فى صدرى أن استمِد من روح "الشيخ" قوله فى الحب، هذا الحب الذى مهما اعتبرته لم تجده إلى كإحياء الخيالاتِ بقتل حقائقها؛ ثم ما لبِث أن استضحك وأطلق لى نفسى وجاشت عيناه

---

(١) رشاشة العطر وهى ترجمة وضعناها لكلمة (Vaporisateur) ويسميها العامة "بخيخة العطر".

(٢) المتكدس: الممتلىء عضلا. والمعصوب: الشديد طى الجسم بعضه على بعض، ومن سوسه: أى من أصله وطبيعته أو كما يقول العامة "من عوده".

(٣) ما عظم من اصولها.

(٤) أى حين ظهر على السحاب الأحمر. وكنا نستوحي ذلك الكتاب من أرواح نتخيلها فى شعاع أحمر كما وصفناه فى أوله.

(٥) أي هنا وهناك فرارًا من الضعيف وطرادًا من القوى.

بنظراتهما الحكيمة، فقلت: ويحك يانفس! إن عينَ "الشيخ" ترى من الجمال غير ما نرى، ثم تعلم علمها مما نظرت فيه، ثم تُقدره على حساب ما تعلم منه؛ فما يُدريكِ لعل هذا الرجل الروحانيّ لا يرى إلا ما وراء تلك البشرَة الجميلة التى تكسو وجوهَ النساء الجميلات، كما نبصر نحن من وجوه الموتى وقد تآكل جلدُها وتناثرَ لحمُها وبرزت عظمًا كسائر العظم من كل حيوان؛ فلا موضع قبلة ولا سحر نظرة ولا إشراق بَسمة، وما هو إلا تركيب من العظم صُنع هذه الصنعة تيسيرًا لما خُلق الله؛ ولعله يا نفسُ لو حشرَ الله لعينيك أجملَ الجميلاتِ فى صعيد واحدٍ وحشرَ معهن إناثَ البهائمِ صنفًا، ثم نزع من تلك الوجوه كلها ذلك الطرازَ من الجلد وما وراءه من اللحم مُزْعة بعد مزعة[1] حتى لا يبقى إلا الوضعُ فى بناءِ العظام وهندستها؛ فما يُدريك لعل أجمل الجمال عندنا هنا لا يكونُ حينئذ إلا أقبح القبح هناك!

أفمِن جلدة على وجه امرأة يجيءُ الشعرُ والجنونُ معا ويجتمعان فى هذا الخيال الذى يسمى الحبَّ ويستنزلان معانى التقديسِ من أعلى السمواتِ إلى عين تلحُظ لحظة، وشَفة تَبسمُ بَسمة؟[2].

إنه القلم الإلهىُّ المبدع الحكيم هو الذى صورَ ولون وافتنَ ما شاء؛ فإن رُزِقت امرأة جلدة جميلة مُشرقة كأنما تجرى فيها الشمسُ، وألبست أخرى جلدة قبيحة سفعاءَ[3] تجول فيها رهبةُ الظُّلمة، فكلتاهما صورة

---

(١) هى القطعة من اللحم.

(٢) لرسائل الأحزان والسحاب الأحمر فى فلسفة الجمال والحب: كتاب ثالث منهم لهما واسمه "أوراق الورد- رسائلها ورسائله" (وسنستوفى به ما بقى مما لم نثبته فى الكتابين، وفى هذا الكتاب رسالة مفردة "وأنه أسلوب من أساليب الطبيعة لخداع صورة بشرية بصورة بشرية مثلها).

(٣) السفع: سواد مشرب بحمرة، والمراد هنا فساد لون الوجه وقبحه وبشاعته

من صنع الله، وكلتاهما تظهر لونًا من ألوان الحكمة، وكلتاهما جاءت لمعنى، وكلتاهما بعدُ غشاءٌ زائل على وضع ثابت لا يختلف فى هذه ولا فى تلك، وضع الحقيقة الجسميةِ التى تحمل الحياة بأدواتها الكثيرة. والحياة لا تعرف البشرةَ إلا غطاءَ على ما وراءها أسود وأبيض، وكان من لون المرمرِ أو من هيئة الطين.

ولو أن كل وجه فى نساء الدنيا خُلق دَميمًا نافرًا على أبشع ما نتصوره من القبح لكان كلُّ الدنيا جميلات إذ يألف الطبع الإنسانىُّ تلك الصورة الواحدة ويتقرُر بها الذوْق فى الجمال وتستمر بها العادةُ فلا يستبينُ وجه من وجهٍ آخر فى صفة ولا يخالف مذهب مذهبا فى حالة.

ولكن هذا الإنسانَ كُتب عليه الشقاء؛ فخلق وخُلق معه ما يطغيه وما يستفزّه وما يُخرُجهُ عن طوِقه، كما خلق له ما يزِّهده وما تطمئن به وما يحصره في إنسانيته فالجميلات والقبيحات كلهن سواء فى أنهن نساءُ هذه الإنسانية لا تُقصر فى ذلك واحدة عن واحدة وإنما يتفاوتن فى أسباب الشقاء الإنسانى الذى يبتلى الرجلَ بالمرأة ويمتحن المرأة بالرجل.

ولو سما عقلُ الرجل إلى الغاية العليا من كماله لرأى المرأة الجميلة الفاتنةَ فى نصف جمال بالمرأة القبيحة، ولبانت الواحدة عنده من الآخرى بأن الدميمة مُهيأة فى نفسها لمعالى الإخلاق والجميلةَ مهيأة لسَفْسافِها[1]؛ ولرأى مع هذه من بعض طباعها ونزغاتها شرًّا مما تقدم بها من جمال وجهها، ومع تلك من أكثر طباعها وصفاتها خيرًا مما قّصر بها من حسن صورتها.

(١) السفساف: الدنىء، وأصله ما يتطاير من الغبار إذا أثير ومن الدقيق إذا نخل لأنه أهونهما ولا فائدة منه.

بَيدَ أن من شِقوة الطبع الإنسانى أنه سَخِط القبحَ فأحاله فسادًا وعَبدَ الجمال فأحاله فسادًا من نوع آخر، إذ كان فى نَفرته وحبه لا يعتبر المنافعَ والحقائقَ ولكن الأهواءَ والشهوات؛ والمنفعة والحقيقةُ كلتاهما لا تكون إلا فى قيودها، أما الأهواءُ والشهوات فهى دائما لا تقع إلا متخطية حدودَ العقل إما إلى النقص وإما إلى الزيادة ولا تُغرَّى بشىء إلا أوقعت به السوء إذ لا يستوى فى القصد ما حرج عن الحقيقة وما هو مقيَّد بالحقيقة.

كان هذا وحى "الشيخ على" فى نفسى غيرَ أنى رددته عليه وأزلَّنى شيطان الحب مرة فقلت: أفترى الشوهاءَ على ما بها مما ركع الدهر وسجد[1]، ثم تلك المرأةَ التى سَمُج تركيبُها فتحامتها العيون، ثم الأخرى التى قمِعت فى بيتها تختبىء فيه من القبح[2] فصارت سرًّا فى صدر الحبطان، ثم تلك تلوح فى النساء كالسطر المضروبِ عليه أفسده الخطأ، ثم المهزولة التى أدبَر جسمها[3] وتقبضت أعضائها وأصبحت جلدة تمشى وتتكلم. أفترُى هؤلاء أو إحداهن كتلك الغانية المتشكِّلةِ فى ألوان الثياب كأنما تُلبِس بدنها الجميل بدنًا معنويًا يدل على معانيه، أو الأخرى التى تظهر فى جمالها الفتان عاطلة من كل حلِية ومع ذلك ترفُّ على حسنها روحُ الياقوت والألماس واللؤلؤ مما عليها من البريقِ والشعاع أو المطويةِ الممشوقةِ المسترسلة كأنها فى قوامها ووجهها غصنُ الجمال وزهرته، أو الحسناء اللعوبِ المَزَّاحة كأنما اجتمعت طباعُها من نور القمر أطل فى

---

(١) كناية عن فقرها من الجمال وسقوطها فيه ويقال ركع للدهر وسجد إذا كان فقيرًا ساقطًا وراء ما به من الذل.

(٢) هى القمعة "بوزن ملكة" وجمعها قمعات" كملكات" من تستتر لما ابتليت به من قبح الصورة.

(٣) كاد يفنيها الهزال وتسمى الممصوصة.

ليلة من ليالى الربيع يُداعِبُ أوراق الورد النائمة؛ أو... أو تلك[1] "يا شيخ على...؟

قال "الشيخ على": فياويلَك؛ إنى والله بك من رجل لخبير[2]؛ أفمن أجلِ واحدة؟ أما إنه لعل الذى جعلها حقًا عندك هو الذى يجعلها باطلًا عند سواك، ولعله ما حَسنها فى عينك إلا أن طبعًا من الجد فيك استملح طبعًا من الهزل فيها، كما ترى معنى مكدودًا فى إنسان يستروح إلى نقيضه فى إنسان آخر.

ولعل من أمتع اللذات وأبهجِها لقلب المهموم أن يتصوَّر فى همه من يعرفه طَروبا فرِحا، وإن كان كلا الرجلين لا يسكُن لعشرة الآخر لو تعاشرا واختلطا. وهذه القلوب لا تؤتَى من مأتى هو أدقُّ وأخفى من توهُّم ما فيه اللذة، فإن النفسَ ترجع عند ذلك بكل حقائقها إلى نوع واحد من الوهم ينصرف بها إلى تمثُّل هذه اللذةِ التى استشرقت لها وطمعت فيها، فإذا طعمُها فى الدم يَهيج لها سُعارَ[3] الجوع العصبى. وما هى السرقة مثلاً إلا أن يضعَ اللص عينَه على المال أو المتاع ويتذوق طعم اليُسر والفائدة فتُجنَّ أعصابُه جنون الحاجة، فلا يَرعوِى إلى شىء من الرأى يَزُجرهُ أو يمنعه أو يكفه، ويكون فى الحقيقة سارقًا من قبل أن يسرق؛ وكذلك يكون الفاسق متى نظر إلى المرأة واشتهاها ونَبَّه معانيها فى معانيه، وقل مثلَ هذا فى كل من طار قلبُه أو طار صوابه.

الْهُ عن وهَمِك يا بُنىَ وضَع الأمر على قاعدته. وسدِّد نظرك إلى

---

(١) إشارة لى فتاة "رسائل الأحزان" فانظر وصفها هناك

(٢) أى خبير بك وبما تبطل وتخفى

(٣) ما يأخذ من الجوع الشديد شبه الجنون، وحالة الأعصاب متى اهتاجت لأمر لا تكون إلا هكذا، وبخاصة إن كان هذا الأمر من الحب.

حقيقته ودعنى من حبل الباطل الذى تجر فيه شيطانَ هواك أو يجرك هو فيه. وما نتكلم عن اثنين من الخلقة أنتَ وهى، ولو أن الأمرَ قد انحصر فيكما وفنيت بالحب فيها لكانت هى الكونَ كله؛ ولو فنيت هى فيك لكنتَ أنت ذلك الكون وهذا حرسك الله موضع النقص فى نفوس العاشقة إذ تنقطع إحدى نفسين من العالمَ إلى نفسها الأخرى. وهو نقصٌ أشبه بجنون المجانين بل هو متمم له، فإنما ذَهابُ العقل فى المجنون المختبلِ هو نصف الجنون الإنسانى أما النصفُ الآخر فهو تجرد العقل فى العاشق المتدله.

نصف الجنون فى العاشق الذى يتجرد من الناس إلا من أحَب، ونصفه فى المعتوه الذى يتجرَّد من الزمن إلا الحاضر. إنه ليس للمجنون عند نفسه ماض ولا مستقبل إلا يأمُلُ هذا ولا يذكر ذاك، وكل سعادة نفسه فى هذا النسيان الذى طمس عليها وتركها كأنما تعيش فى غير عمرها، بل فى كل أعمار الإنسانية بل بغير عمر؛ وكذلك ليس العاشق مع الحبيب شخص آخر ممن مضى وممن يأتى ما دام الحب قائمًا، فالحبيب هو الحبيب، وكل الناس بعده أدوات: وشخص واحد هو "الألفُ واللام والحاء والباء، والناس جميعًا نقطة صغيرة مُلقاة تحت الباء فقط.

وقال "الشيخ على" ثم يَبرأ المجنون ويثوبُ إليه عقله فيعرف أنه كان مجنونا، ويبغضُ المحب أو يسلو ويبرأ من وهمه فى تلك المرأة، فلا يرى إلا أنه كان بها مجنونًا، أفلا يكفى هذا ويحكَ فى الدلالة على أن الحب والجنون من أم واحدة وإن اختلف أبواهما... وأن رأىَ العاشقِ فى كل النساء كرأى المجنون فى كل الناس، لا يجوز أن نأخذ بواحد منها إذا أخذنا بالآخر وأقررناه فى باب الصواب والعقل؛ إذ كلاهما حاصل من حالة متى هى تغيرت فانقلبت اعترفَ صاحبها عليها بالجنون وإن

كانت إحدى الحالتين فى طبيعتها ووصفها غير الأخرى؟ ويلمه وصفًا من العاشق لو كان مع صاحبه راى[1] ويلمه رأيًا من المجنون لو كان مع صاحبه عقل!

قال "الشيخ على" سئل الحلاج[2] وهو مصلوب يُعانى غُصةَ الموت: ما التصوف؟ فقال لسائله: أهونهُ ما ترى.. فهذا رجل يموت فى سبيل حقيقة تقتله بغموضها السماوىّ العجيب؛ وعلى أنها قد دقت المسامير فى أطرافه وجمعت لموته آلامَ الحياة كلها، وأنبتت فى كبده من وخزات الجوع شجرة من الشوك، وأطلقت فى عروقه من لذعات العطش لهيبا من النار، وتركته على عُوده ممدودا تتساقط نفسهُ كما يُنشرُ الثوبُ الذى بَلى وانسحق فهو يتمزق من كل نواحيه- على هذا البلاء كله لم تتغير الحقيقة فى رأى الرجل ولا فسد موضعها فى نفسه، ولا رأى ما يكرهه الناسُ من الألم مكروها فى ذاته فيميل عنه، ولا ما يحبونه من اللذة محبوبًا فيميلَ إليه، ولا تسحب قلبه حركة واحدة السخط على الحكمة

---

(١) كلمة تقال لتفخيم شأن الأمر، تشعر الذم لا يريدونه وأصلها «وبل أمه» ولكنهم يسقطون الهمزة، ومن أجل ذلك رسمت كلمة واحدة وترسم كلمتين إذا أمن الخطأ فيها.

(٢) هو الحسين بن منصور الحلاج الصوفي الشهير اختلف العلماء فيه اختلافا كثيرا ورمي بالكفر وقتل سنة ٣٠٩ للهجرة وهو فيما قرأنا عنه من أكبر رجال الحقيقة وما زال هذا التصوف كالحقيقة نفسها هى موضع المعرفة وموضع الجهل معا: ومن أبدع ما قرأناه فى ذلك أن أصحاب الشيخ عثمان القرشى من أكبر علماء مصر فى علوم الحقيقة والشريعة قالوا له يوما: مالك لا تحدثنا بشىء من الحقائق: فسألهم كم أصحابى اليوم؟ قالوا ستمائة، فقال انتخبوا منهم مائة فانتخبوهم، فقال اختاروا من هؤلاء عشرين فاختاروهم، فقال استخلصوا من العشرين أربعة، فكان الأربعة أئمة الجماعة ابن القسطلانى وأبا الطاهر وابن الصابونى وأبا عبد الله القرطبى. قالوا فلما انتهى الامر على ذلك قال الشيخ رحمه الله: لو تكلمت بكلمة من الحقائق على رءوس الأشهاد لكان أول من يفتى بقتلى هؤلاء الاربعة. قلنا: فتأمل هذا البحر فما أبعده غورا، وتوفى القرشى سنة ٥٦٤.

الإلهية فانتقصها برأيٍ أو اغتمز فيها بكلمة؛ بل نظر نظرة الحكيم من وراء الحد الإنسانى المنتهى فيه، إلى ما يبدأ عنده الحدُّ الألهىُ الذى لا ينتهى، ورجع آخره إلى أوله فكأنما مما يقول بلسان حكمته فيما نزل به: اللهم إنك بدأتنى طفلاً غِرًّا جعله فِقدان العقل لا يملك مع أحد إلاُصياحه فخذنى إليك طفلا عاقلًا جعله العقل لا يملك مع أحد ولا صُياحه.

واذكر الطفل يا بنى فرُب مُعضلة من أمور هذه الدنيا يحار الناس فى آخرها وهى محلولة من أولها، وما هؤلاءُ الأطفال إلا الأساتذة الذين يعلموننا وهم يتعلمون منا، غير أننا لا نأخذ عنهم فلا نصلح، ويأخذون عنا فيفسدون. أفرأيت ولدَ الشوهاء تعرف عيناه فى كل ما طلعت عليه الشمس أجمل من وجه أمه، أو يرى طائلا فى وجه سواها؛ أو يَحن إلى غير طلعتها أو يسكن إلى صدرٍ غيرِ صدرها، حتى كأن الله لم يخلق وجهَ حبيب لقبلات محبه إلا وجهها هى لقبلاته؟

إنه فى ذلك ينظر من ناحيتين: الأولى ناحيةُ صفاته هو فإن القلب إذا لم يكن بهيميًا منعكِسا أشرق صفاؤه فيما حوله فلا يرى إلا خيرًا، ولبست المرئى صفةُ الرائى فلا ينظر إلا جمالًا، واتصل الشعور الطيب الرقيق الجميل بين نظرِ النفس وبين ذاتِ النفس كما يصل الشعاعُ الذى يلقى على حائط من المصباح- بين هذا الحائط وبين المصباح فيغشيه النورَ وإن كان الحائط نفسه من الطين.

فإذا كان القلب بهيميًا زائغًا عن الإنسانية إلى حيوانيته، استفاضت ظلمته وشهواته على ما حوله فلن يشهدَ من صفات الجمال شيئًا بل يرى فى كل شىء من صفات نفسه هو، حتى ليكون الوجود كله فى عين بعض الناس كما يكون الطعامُ كله فى فم بعض المرضى. ومثل هذا يعشق أجمل النساء فلا يرى فيها جمالا ألبتة وإن هو خدع نفسه

فى ذلك واختدع الناس، وإنما يرى فيها شهوات، شهوات جميلة ليس غير.

أما القلب البهيمىّ غير المنعكس وهو ذاك الذى تحمله البهائم، فلا يحتفل فيه عقل ولا يحتشدُ فيه خيال، وما هو إلا أن يَنصب الحيوانُ به على مَخص المنفعة، لأنه عامل فى الطبيعة يُعدُّ من عمالها لا من شعرائها... فليس عنده جمال يقع فى ظاهر الروح وآخرُ يقع فى باطنها وثالث متوهم لا يقع ولا يمتنع أن يقع[1]؛ وليس يَعرف من معنى القبح إلا أن تكون الأنثى قد طاش بها المرضُ فما تستقلُّ إعياءً وضعفًا. وبذلك سَلمتْ إناث البهائم من شر كثير يملأ لغةَ الحياة النسائية بمعانيه وتجمعه كلمتان: الجمال والقبح.

والناحية الأخرى التى ينظر منها الطفل لأمه الدميمةِ الشوهاء ناحيةُ الصفات الإلهية، فإن الحب الصحيح الذى يمكن أن يُسمى حبا لا يكون فيما ترى من لون وشكل وتركيب وتناسق وغيرِها مما يُظهر البشريةَ على أتمها وأحسنِها فى الشخص المحبوبِ كما يظن الناسُ خطأ؛ بل هو فى عكس ذلك أى فيما يُخفى البشرية بمحاسنها وعيوبها جميعا ويُظهر فى أمكنتها خصائص الروح المحبوبة وحدَها فمن ثمَّ يبدو لك شخص المحبوب على أىّ أشكاله وهيآته كأنه تمثالٌ سماوى وُضِع لروحك خاصة فهو مجبول من مادة واحدة هى مادةُ الفتنة، ولو كان فى أعين الناس كافة تمثالَ الأرضِ السفلى يصورّ كلَّ ما تشتتَ فيها من القبح...

---

(1) رأينا هذه الكلمة مروية للمأمون وهى: إن الجمال إذا وقع فى ظاهر الروح كان صباحة، وإذا وقع فى باطنها كان فصاحة، فزدنا عليها ما هو فوقهما مما لا يعرف إلا بالتخيل ولا حقيقة له فى الواقع.

فإذا لم تظهر لك خصائصُ روح المرأة ظهورًا يستفيض على وجهها وجسمها ويجعل كلَّ شيء فيها ذا معنى منه وكلَّ معنى منه ذا معنى فيك، فما أنت من حبها في شيء ولو ذهبَتْ من جمالها بعقول الناس ولا هي عندك من الجمال في شيء ولو كانت في النساء كليْلةِ البدر في الليالي ومن أجل ذلك لا يخلو الحبُّ من بعض معاني الوحي ولا تخلو الحبيبةُ من بعض المادة الملائكيه[1] في النفس التي تعشقها؟ ولا مَلَكُ الوحي إلا قوة المزج السماويِّ في نفوس الأنبياء، وهل روحُ الحبيبة إلا على قدر من مثل هذه القوة في نفس محبها؟ ولعل هذا يفسر لك سرًا من أسرار الاحتراق في بعض الأرواح العاشقة التي نيَّمها الحبُّ فإن تلك القوةَ المزجية متى أفرطت على نفس رقيقة حساسة أذابتها واشتعلت فيها فأكلتها أكلَ النار للهشيم وتركتها تحترقُ أسرعَ ما تحترق لتنطفيء أسرعَ ما تنطفيء.

قال "الشيخ علي" تلك هي الحقيقة يا بنيَّ فلن يأتيَ لكائن مَن كان أن يقسمَ النساءَ إلى جميلات وقبيحات إلا إذا طوى في ذلك معنى القسمة إلى شهوات جميلة وشهوات قبيحة؛ ومتى انتهينا إلى هذا فقد خرجنا إلى المخاطبة بلغة لا هي من لغة البهائم ولا هي من لغة الإنسانية.

أفرأيت قطُّ ألفاظَ الجمال والقبح تشيع في أمة من الأمم وتعلو بالأعين عن النساء وتنزل وتمتد[2] بها وتنقبض إلا أن تكون أمة ضعيفةَ القوة قد اختلت أجسامُها، أو ضعيفةَ الدين قد اختلت أرواحها[3].

---

(١) نسبنا إلى الجمع للخفة وفرقا بين هذه وبين النسبة إلى الملك "بكسر اللام" فانها ملكية "بفتح اللام".

(٢) يقال علت العين عن كذا: أي نبت منه نفوزًا فلم تلتصق به، فاستعملنا منها نزلت كما ترى.

(٣) شرحنا هذا الرأي في بعض فصول السحاب الأحمر.

انكشف القمرُ ذاتَ ليلة لرجل اسمه "من عباد الله المقربين" فإذا البدرُ أسودُ كالحبر وإذا هو مكتوب فى وسطه بالنور "أنا وحدى"؛ فالقمر نفسُه لم يمنعه كل ضياء الشمس عليه أن يَسوَدَّ فى عين الرجل الذى ينظر لروحه، فما الذى يمنع من ينظر لروحه وخصائصها أن تصير المرأةُ القبيحه فى عينه كالقمر الأزهر؟

فى البدر ظهرت كلمةُ الألوهية "أنا وحدى"[1].

وفى وجه الحسناء تقرأ كلمةَ الألوهيةِ "أنا وحدى".

فهل يمكن أن تقع الدميمةُ من الحسناء أقبح ويقع ظلام القمر من نوره فلا تكون فى وجهها هى أيضا كلمة الألوهية "أنا وحدى"؟

لم يبق فى البدر مع الحكمة العُليا شىء يسمى الجمال!

ولا المرأة الحسناء يكون فيها شىء أجمل من القمر؛ فهى مثلُه ليس فيها مع تلك الحكمة شىء اسمه الجمال.

أفيمكن أن يكون الحكمةِ نفسها فى وجه القبيحة شىء اسَمه القبح؟

القمرُ طالع مُشرِق كما كان

والجميلة الحسناءُ لا تزال فاتنة.

والدميمة ظاهرة كما هى.

لم ينقُصِ الكون من ثلاثتها شىء.

ولكن أين عينُ الرجلِ الكامل؟

---

(1) هذا تهكم من "الشيخ على" يريد به طاشة فتياتنا وفتياننا ممن يرون الدين شيئًا قديمًا فى لغة قديمة ونفوس قديمة ومذهب قديم. فليهنئهم البلاء الجديد الذى حل من أنفسهم محل الدين فجعل الرجل بلاء على المرأة إن تزوج بها أو أهملها والمرأة بلاء على الرجل إن كانت له أو لنفسها.

الفصل الأخير
الدين ولادة ثانية[1]

"قال صاحب المساكين":

عرفتُ فيمن عرفت من أصناف الناس أربعة تجرى أمورُهم فى نفسى على غير مَجاريها فى أنفسهم؛ وأرى من طبيعتهم موضع الغفلة والحمق فيما يرونه أو يحسبونه موضع السَّداد والحكمة:

"فالأول" رجل ملحد أديب معنيٍ بجمع الكتب بكل يتعلق نفيس منها؛ وهو يزعمُ أنه تأمّل الأديان فلم يجد طائلًا فى شىء وأنّ له فى كل دين ظِنَّة على ريبة؛ ونقدًا على مسئلة، وثانية على أوَّلة[2] وأنه تبدَّلَ الدين بالخُلقُ[3] فما خسر شيئًا وربح الحقيقة، ثم يحذو بعدُ على هذا الحذوِ كما يفعل الملحدون فى صفة أنفسهم وهى دائمًا لا يأخذون من الكلام إلا بملء اليدين إذ من العجيب أن لا تقعَ لهم الكلمة الصحيحة المفردة.

هذا الذى خرج من الأديان ومن نَهيها وأمرها إلى الأخلاق وعُهدتِها وأدبِها "قال لى ذات يوم وقد خُضنا فى أمر الكتب: إنى لأمقُتُ السرقةَ والغصْبَ والخديعة ولا أبيح منها شيئًا ولا أمِرّها لأحد؛ غير أنى إذا وجدت كتابًا نفيسًا وعجزتُ عنه أو ضاقت به ذات يدى أمكنتنى فرصة من الغفلات لم أتورَع أن أسرقه.. ولو غَصَبتُ ولو خدعتُ.

---

(١) هذا الفصل من زيادات الطبعة الثانية.

(٢) كناية عن التعدد وأنه لا يكتفى بواحدة.

(٣) بمعنى التغيير لا الاستبدال.

قال هذا فلم أفهم من كلمته شيئًا إلا أن لقب "اللص" يكون من الشرف أحيانًا بحيث يسمو كثيرًا على الرجل الملحد...

"والثانى" رجلٌ متفلسف انقلبت عقيدته إلى زيغ فله رأيان فى أمور الحياة: واحد ينزع فيه إلى طبيعته فيستمتع ما وجد متاعا فى حرام أو حلال وفى معروف أو منكر. والآخر يرجع به إلى ضميره الإنسانى وما هو الأشبه بعلمهِ وعقلهِ وفلسفته فيألم ويتململ إذ يرى أنه لا يزن من لذاته لا بمقادير الخير ولا بمقادير الشر وأنه يبيح لنفسه ويحرّم على غيرهِ؛ فإنما الرأى والحقُّ والعدل أن لا ينطلق فى كل إنسان تاريخه الوحشى كما يفعل هو ليقومَ النظام على أصولِه وتتحققَ الإنسانية فى أهلها، ولو فعل الناس ذلك فوسعتهم الفلسفة لما وسعتهم الطبيعة بل هى تسرع حينئذ فتُطلق لكل حيوان مع أكيلته التى يغتذى بها آكلَه الذى يغتذى به.

لم أفهم من فلسفة الرجل أنه فيلسوف، بل عرفت من علمه أن الرجل من الناس قد يكون سافلًا حتى من الجهة العالية فيه، وقد يكون فاسدًا حتى من بعض جهاته الصالحة...

"والثالث" رجل يزعم عند نفسه أنه مصلح ويتولى أمور الناس فيداوُرها ويلتمس لكل شىء مَأتى يتسبب منه إلى إصلاح فيهم حتى إذا وثق الناس به واستكانوا إليه وصاروا فى حال الغِرةِ وفى قياد الأمن، صدعهم فى أديانهم وأخلاقهم وركّبهم بمزاعمه وخرافاته وبثَّ أوهامَه فى مذاهب أقدارهم وتصاريف أمورهم وظن الدين كلمة تضع فى موضعها كلمة غيرَها وحسب اليوم من أيامهِ فى عمل الدهر كاليوم من أيام الله فى خلق السموات... فهو يَطرد الأزمنة ويمحو العادات ويغير الطباعَ ويسنُّ لفروع الشجرة سنةَ جذورها فلا يذهب الفرع طالعًا بل يغور نازلًا، ثم يريد أن يقيم على طريق التاريخ مجازة أو قنطرة ليمشىَ

بالناس فوق التاريخ فيقطع بهم ألف سنة فى ألف يوم، وكأنه زاد فى الطبيعة ناموس نهيهِ وأمره...

أنا لا أقول فى مثل هذا إنه مصلح؛ بل أقول يا عجبا لسخرية الأقدار من القوة، ألا يرتفع النسر فى الجو ليبحث أين تكون الجيفة...

"الرابع" ذاك الذى جعلته الكتب عالمًا وقسمت له ما شاء ولكن الله تعالى لم يقسم له شيئًا من كرم الضريبة وشرِف العِرق ولا ألقى معانى الذهب فى سلسلة آبائهِ[1] فهو رِثَّة[2] لا يجىء فى معانى الناس بطباعه وأخلاقه إلا كالثوب الخَلَقِ من فُتوق ورقع، ويغطى عليه العلم كما تغطى القشرة النضرة على التمرة المرة، فإذا كتَبَ للناس ارتطم فى طباعه ونزعَ مأخذه وتجاذب داخل نفسه وخارجها فيذهب يُنكر ويعترض ويُسفِّه ما عليه الناس من دين وخلق وينزو بهم فى نوازيهِ ودواهيه، ويرد كل ما فى الطبيعة من الجمال وكل ما فى النفس من الحق إلى تأويل مادىّ بحت، كأن الزهرة الخارجة من الطين هى طين مثله. ويسقط عنده كلُّ ما عمِل الشعاع والماء فى الذرة الأزلية التى انبثقت منها النبتة فخرجت توحِى عن السماء وحىَ النور واللون.

أنا لا أفهم أنّ مثل هذا عالم ولكنه فى الناس كبعض النبات فى النبات يرَزق من النمو قوة يُفسد بها ما حوله، فإذا هى ظهرت فيه لم تُنبّه على قيمته بأكثر مما تنبه الناس إلى وجوب اقتلاعِه واستئصاله...

لاثقةَ لى بمختلق لا دينَ له؛ فإن الخُلقَ يصله بحظ نفسه أكثر مما يصله بواجبات الناس، ولا فيلسوف ملحد؛ لأن الفلسفة تمزجه بالمادة

---

(١) فى الأثر: لا تعلموا أولاد السفلة العلم (أولاد السفلة) فقط.

(٢) أى من البقايا التى لاخير فيها.

أكثر مما تمزُجه بالإنسانية، ولا بمصلح ينسلخ من الدين، لأن إصلاحه صورٌ من غروره، ولا بعالم جاحد، لأن علمه كهندسة الشَّوكة كلُّها من أجل آخرها... أولئك لا يدرون أنهم من هذا العالم فى حدود أغراضهم الصغيرة الفانية إذا كان كل منهم يتناول الكون من حيث يحبُّ هو لا من حيث يحبُّ عليه، ثم يفسر الأشياء فى جزء منها لا فى مجموعها، ويعتبر الزمن عمرًا كعمر الفرد وهو تاريخ لا يموت، وينظر إلى الغاية من الوجود كأنها داخلةٌ فى الحدّ مع أنها لو حدَّت لبطلت أن تكون غاية.

كل منهم صحيح فى ذاته لكنه فاسدٌ بموضعهِ من أغراضِه أو من أغراضنا وما أشبههم بالأشجار فى المقابر لا تجدُ لها فى المقبرة ما تجد لها فى الحديقة، كأنها لما قامت فى موضع الموت قامت حية ولكن ماتت روحُ الحديقة فيها.

لا تسمو حياة الفرد إلا إذا كان جزءًا من كلّ، ولا يجتمع الكل إلا إذا كان تامًا فيما هو كل به، السبيل أن يُدفعَ الفرد أبدًا إلى خارج حدوده الذاتية الصغيرة. وفكرة الكل هذه لا يصورها ولا يستوفى معانيها إلا الدين الصحيح إذ هو خروجٌ بالفرد من شهواته التى تفصله من غيره إلى واجباته التى تصله بغيره، وانتزاعٌ له من ذاتيته إلى إنسانيته ودفع بالإنسانية نفسها إلى الكلِّ الذى هو أسمى. فكأن الإيمان فى حقيقته إن هو إلا دُربة لهذا الإنسان على الدخول فى اللانهاية فهو من أجل ذلك يقضى على الفرد أن يتسعَ ويمتد فى إنسانيته لا فى شخصيته فيتخلقَ بالأخلاق التى تعم دون أن تخص؛ وفى صورة صغيرة من جعل المحدود فى ذاته أعظم من ذاته ودَفْع ما ينتهى فى سبيل مالا ينتهى.

فإذا عمِل الفرد على أن يُقفل حدوده عليه ويستغلق بها ويمتنع من ورائها صار كالقلعة المحصَّنةِ لا تصلح إلا حربًا لما حولها ودفاعًا عما

فيها فلن يضعَ هو أمرَه إلا على هذا المعنى، ومن ثم فلن يكون له ممن يصادمونه إلا حكم واحد وهو تخريبه وهدمه واقتحامه فإذا كانت الحياة غيرَ باقية على فرد من الناس فمن الحمق أن تكون هذه صورة الإنسانية فيها، وإذا كان ذلك حمقا فالحقُّ ولا جرم بعض المعانى التى يقوم الإلحاد عليها.

ليس فى الأرض إنسان لا أجداد له ثم ليس على الأرض إنسان فى نفسه بل إنسانية فقط، إنسانية متصلة مفرغة إفراغا ليس للفرد بينهما موضع لذاته بل موضعه لاتصاله بسائرها كمنزلة الخلية الواحدةِ بين الملايين من الخلايا المتلازةِ فى جسم واحد قائم من جميعها صالح للوجود بصلاحها وفسادِها معًا.

أنما إنها لعجيبة أن تلقى بسؤالين متناقضين لا يلتئمان ثم لا تجد ولن تجد عليهما إلا جوابًا واحدًا لا يختلف، سلِ الحكمة، لِمَ صَلُح هذا؟ فالجواب ليكون شيئًا ضروريًا فى الوجود. وسلها لِمَ فسد ذاك؟ فالجواب كذلك ليكون شيئا ضروريا فى الوجود. هى الحلقة المفرغة: لما غاب طرفاها صار كلُّ موضع فيها طرفا وعلَت كلها ونزلت كلها.

فليس إلا النوع لا الفرد، والكلُّ لا الجزء، والإنسانية لا الإنسان وإنما يقع كل شىء فى الحياة- بل فى الوجود كله- تدريجًا لتحقيق هذه الوحدة كيلا ينفصمَ أحد منها، فهى أبدا ذاهبة بالجسم والعقل والمعرفة والعمر من جزء إلى جزء من الأصغر إلى الصغير، ومن الكبير إلى الأكبر، ومن الأوسع إلى الأسمى، لأن تلك هى علامتها فى حركتها وتسخُّبها، وهى طريقة برهانها بالنهابة على أنها لا نهاية.

بَيد أن خطأ الغريزة فى الإنسان يظهر فى اعتبار الفرد نفسه كلا تامًا

وشيئًا متميزًا فلا يريد لنفسه إلا أمرًا تامًا ووجودًا يتميز فيه، وبذلك يقتحم سواه ويستبيح وجوده، فيقع النزاع والعدوان. وكأنه يضيق بمقدار ما لا يستطيع أن يتسع، لأن دفعَه لكل ما حوله مردود عليه بدفع مثله مما حوله، فتتبدل صورة الإنسانية فى شكل دَحَله الغلط من كل جهاته، وههنا موضع الدين الصحيح فما هو إلا الناموس القائم من كل إنسان على الواقع فى ذاته والواقع فى غيره ليصل بين الواقعين المختلفين بنظام مختلف متحد يكون له فى النفس ما يكون لنظام المد والجزر.

وبهذا كان واجبًا حتما أن تكون العقوبة جزءًا من نعيم الدين، وأن يكون القيدُ شِقًّا من حرية العقيدة، وإلا بطلت فى الإيمان قّوتا الجذب والدفع معا ببطلان إحدهما، لأن مدا بلاَ جَزْر هو أفحش الغرق من ناحية وجزرا بلا مدّ هو أفحش الغرق من الناحية الأخرى.

تُعجبنى كلمة فى الإنجيل لا أعرف أحدا أحسن تأويلها وبلغ حقيقتها قال "يجب أن تولدوا ثانية" ووضعها فى هذا المقال هو تفسيرها فإن الفرد يولد من الفرد ولكنه لايصلح على ذلك، بل يجب أن يولد فى صفاتِه وأخلاقه من المجموع الإنسانى لتقع الملاءمة. ثم إنه من أبويه يخرج من الحيوانية بغرائزها ولن يُفلح بها إنسانًا فيجب أن يولد مرة أخرى من جنسه الاجتماعى بغرائز مكتسبة، ثم إنه يولد مهيأ للإقرار بنفسه وحدها فيجب أن يولد الثانية مهيأة لإنكارها وحدّها.

على هذه الأرض. إما الإقرار بالنفس وإيثارها والاعتداد بها؛ ومع كل ذلك: الحيوانية والشيطان؛ وإما إنكارها والإيثار عليها والمهاونةُ بها، ومع كل هذه الإنسانية والله.

لن نطاقَ الحياة إلا إذا تبدلت فاتخذت لها أسلوبًا غيرَ أسلوبها الآتى

من تركيب المادة. وإنما صِراع الأرض كله حول إقامه هذه الأسلوب الجديد أو هدِمه أو ترميمه: أسلوب كل الأخلاق والطباع الشديدة التى لا تطيقها الحيوانية فتسميها إنسانية، وتكبرُها الإنسانية فتسميها الإيمان بالأسلوب الأول تكونون بالحياة فى موضعها، وبالثانى تسمُون بالحياة عن موضعها "فيجب أن تولدوا ثانية".

كل ما يراد به أن يسد فى الإنسانية مسد الدين ويُغنى عنه فإنما هو فى رأيى كطعام أهل الجحيم، لا يُطعمون فيها كما يطمعون فى "نُزل" لشبع وسِمن بل طعاما كما جاء فى القرآن الكريم ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ أى لإحداث الجوع وكلَبِه واستمرارِه[1].

والطبيعة نفسها تهىء الإنسان للدين بأسلوب غريب هو هذا الحب الذى يُخلَق فطرة على أنواع مختلفة متعددة لا يخلو منه أحد فلا مَعدِلَ عنه ولا محيص. وإنما هو فى مظاهرِه- أيًّها كان- دُربةٌ للنفس الإنسانية تَصعد به درجات من الفضائل، كالإخلاص، والإيثار، والاتصال الفكرىّ والانبعاث الروحى، والشوق الخيالى ونحوها مما هو فى الحقيقة إيجاد للحياة النفسية فى أعمالنا، وفيَض بالقوة الروحية على مظاهر المادة لإحداث الملامسة بين الأرواح والأشياء، والترابط بين الجاذب

---

(1) انظر إعجاز هذا التركيب وكيف بدأ حين أراد وصف طعام أهل الجحيم وماهى بدار طعام بل دار عذاب، فقال (لايسمن) فينخدع الحس بالكلمة فنظن أن هذا الطعام إن لم يسمن فربما ذهب بالجوع وإن لم يذهب به فربما أغنى منه ولو شيئا فقال (ولا يغنى من جوع) فيصدم الحس هذه الصدمة وينعكس عليه التأثير الذى توهمه قبل ثم يشتد هذا التاثير ويبلغ مبلغه حين يتأمل الحس البليغ هذا التركيب الدقيق فلا يخرج له إلا أن طعام هؤلاء إذا كان لا يحدث نتيجة ألبتة مما هو من خصائص الأطعمه لا فى سمن ولا شبع ولا الغناء من جوع، فما هو إلا طعام منعكس لإيجاد الجوع واستمراره، ثم وتسميته على ذلك (طعاما) مع أن لهذه الكلمة فى النفس عكس ذلك العمل يكون أشد على النفس فى العذاب وفى التهكم؛ فتأمل كيف يكون الإعجاز

والمنجذب، وكل ذلك تهيئة للدين وعملِه فى النفس ليكون قائمًا على أساسه فى الطبيعة. فالحب دين على أسلوب خاصّ ضيق؛ ولذلك يشتد فيه التعصب كما يقعِ فى الدين من المؤمن به على وتيرة واحدة، إذ لا يرضى القلب فى هذا ولا هذا غير رأى واحد. فكيفما قلَّبنا الحياةَ رأينا فى كل جهة منها وجهًا من وجوه الإيمان وباعثا من بواعِثه وحكمة من فلسفته، فالمصلحون الذين يحاولون تجديد الأمم بصُوَر ملوَّنة من الغرائز تَطمسُ على الدين، هم الذين يرجعون بهذه الأمم فى عالية الأمر إلى الحيوانية، لأنه ليس فى طبيعة النفس إلا شيئان: هوى هى دائما أعظمُ منه، وإيمان هو دائمًا أعظمُ منها.

تم بحمد الله تعالى

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
فاتحة محمد سعيد العريان	٧
مقدمة الطبعة الأولى	١٧
غرض الكتاب	٢٩
مقدمة الطبعة الثانية	٣٣
الشيخ علي	٤١
في وحي الروح	٥٣
الفقر والفقير	٦٤
مسكينة! مسكينة!	٨١
لؤم المال ووهم التعاسة	٩٢
وهم الحياة والسعادة	١١٠
سحق اللؤلؤة	١٣٠
فصل خامس في السنة	١٥٤
الحظ	١٧٤
الحرب	١٨٧
الجمال والحب	٢٠٤
الفصل الأخير.. الدين ولادة ثانية	٢١٦